من ميكافيللي وكلوزويتز

الى بن غوريون ودايان

هيثم كيلاني

أعتبر الفقيه العسكري الألماني كلوزويتز[1] الحرب امتداداً للسياسة . أي ان السياسة هي الأصل ، وان الحرب هي الفرع . فالهدف السياسي يشكل الغاية ، والحرب تشكل الوسيلة لتحقيق تلك الغاية . ولا يمكن تصور الوسيلة ان لم تكن الغاية محددة بدقة . هذا هو موجز مبسط لفكرة كلوزويتز عن العلاقة بين السياسة والحرب .

---

(١) كارل فون كلوزويتز (١٧٨٠ – ١٨٣١) قائد بروسي ، اشترك في معارك الراين (١٧٩٣ – ١٧٩٤) ، وفي الحروب ضد نابليون بونابرت وبخاصة في معركة واترلو. عرف بدراساته في الاستراتيجية العسكرية ، وأشهر مؤلفاته « في الحرب». وقد ضمنه نظرياته الحربية ، ومنها نظرية « الحرب الشاملة » التي يشن فيها الهجوم ، بجميع الوسائل الممكنة ، ضد الأمة المعادية وضد مواقع قواتها المسلحة ، بدون تفريق أو تمييز بين ما هو مدني وما هو عسكري. وكان لنظرياته أثر واضح وعميق في تطور الاستراتيجية والتكتيك . وستصدر ترجمة عربية لكتاب « في الحرب » قريباً في القاهرة .

ولقد كانت هذه العلاقة التي وضعها كلوزويتز تشكل نظرية سارت عليها معظم الحروب في التاريخ القديم والحديث ، سوى ان الصهيونية جاءت بشكل آخر من أشكال العلاقة بين السياسة والحرب ، يختلف عن نظرية كلوزويتز . فقد جعلت الصهيونية الحرب هي الأصل ، والسياسة هي الفرع ، كما جعلت السياسة امتداداً للحرب وأداة لها ، وذلك منذ أن ولدت الصهيونية كعقيدة ، وتطورت كاستراتيجية وتكتيك . ولا تزال تجعــــل من الحرب وسيلة للغزو والتوسع والاستعمار ، في المجالات الجغرافية والاقتصادية ، وهي في سبيل ذلك تستخدم السياسة . ولن تعدل اسرائيل عن مبدئها هذا أي : « السياسة هي امتداد للحرب وأداة لها » ، وتعود الى تطبيق مبدأ كلوزويتز « الحرب هي امتداد للسياسة وأداة لها »الا بعد أن تبلغ أغراضها في التوسع الجغرافي والاقتصادي وفي اخضاع الوطن العربي ، وبخاصة مشرقه ، لنفوذها ونفوذ الامبريالية العالمية .

. . .

وإذا كان الجنرال « نيكولاي تلينسكي »(١) يرى أنه لا يمكن تجريد أي تحليل استراتيجي لطبيعة الحرب ، عسكرياً وسياسياً واقتصادياً ، من نظرة الطبقة الحاكمة ونوع المصالح التي تدفعهـــا الى استخدام الحرب كأداة للسياسة القومية ، فان من الواضح أن أي تحليل للحروب والاعتداءات التي قامت بها اسرائيل منذ نشوئها حتى اليوم يؤكد طبيعة المجتمع الاسرائيلي العدوانية ، وليست الطبقة الحاكمة الاسرائيلية سوى وليد طبيعي لذلك المجتمع . ان كل مهاجر اسرائيلي جاء فلسطين غازياً ومستعمراً منذ عام ١٨٨٢ وحتى اليوم ، هو

---

(١) Nikolai A. Talensky « On the Character of Modern Warfare » International Affairs - Vol. X. Moscow, October 1960.

معتد غاصب ، مهما كان أصله ومنشؤه ، سواء كان عاملاً فقيراً أو فلاحاً معدماً . ولقد تشكل المجتمع الاسرائيلي من هؤلاء المهاجرين الغزاة ، وبذلك أصبح هذا المجتمع ذاته ، غاصباً معتدياً يعبر عن طبيعته بالحروب والاعتداءات المستمرة .

• • •

ولم يسبق الصهيونية في تطبيقها لنظرية « السياسة هي امتداد للحرب وأداة لها» الا النازية في أواخر الثلاثينات . فقد وضع الجنرال الألماني لودندورف[1] بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بعشرين عاماً تقريباً نظريته في « الحرب الشاملة » التي تبناها هتلر وأقام عليها عقيدته النازية . وقد هاجم لودندورف نظرية كلوزويتز التي كانت أساس المذهب العسكري الألماني في الحرب العالمية الأولى ، وأخذ عليه عدم سيره في طريق العنف الى آخر مداه ، واعطاءه أهمية كبرى للسياسة ، وجعل الحرب تابعة لها . وانتقد فكرته القائلة : « ان الهدف السياسي يشكل الغاية ، والحرب هي وسيلة تحقيقها ، ولا يمكن تصور الوسيلة اذا لم تكن الغاية محددة بدقة » واعتبرها قديمة بالية ، لأن مبدأ الحكم المطلق « يتطلب من الوطن أن يضع في زمن الحرب كل شيء لمصلحة الحرب ، كما يسخر كل شيء في زمن السلم للتحضير لحرب مقبلة ، لأن الحرب فكرة سامية لتحقيق ارادة الحياة الوطنية ، وما السياسة سوى تابع لها » .

• • •

ان النظرية النازية والصهيونية تتمثل بشكل واضح وعملي في الرأي الذي عبر عنه بن غوريون . فقد خطب أمام كبار ضباط الجيش الاسرائيلي بعد انتهاء عمليات العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، فقال :

---

(١) اريش فون لودندورف (١٨٦٥ - ١٩٣٧) جنرال ألماني ، كان معاوناً للفيلد مرشال هندنبرغ في الحرب العالمية الأولى ، وقاد بعده الجيوش الألمانية .

« لقد أثبتنا قوتنا في عمليات سيناء . أما الآن فيجب أن نبرهن للعالم أننا على حق » .

• • •

هكذا تفعل الاستراتيجية الاسرائيلية : تحضّر العدوان في الداخل ، وتهيىء الرأي العام العالمي في الخارج ، وتموه وتضلل باسم السلام ، ثم تقوم بالعدوان ، وبعد ذلك تتولى السياسة أمر تبرير العدوان ، وتطمس معالمه في المحافل الدولية والرأي العام العالمي ، أمام ضجيج الدعاية والدعوة للسلام .

ان اسرائيل إذ تتبنى النظرية النازية في العلاقة بين السياسة والحرب ، إنما تفعل ذلك ، لانها تعبير عن عقيدة المجتمع الاسرائيلي وايمانه بالحرب وحتميتها ، كما تعبر عن طبيعة تكوين ذلك المجتمع وأساس بنيانه .

ولن تحيد اسرائيل عن إيمانها بحتمية الحرب . وذلك لأن العقيدة الصهيونية وما يتولد منها من استراتيجية عسكرية سياسية ، تهدف الى وضع المجتمع الاسرائيلي في ظروف وشروط وحالات تدفعه فيها الى الحرب دفعاً . بعد أن تكون شحنت طاقته القتالية ، وغذته بأفكار العدوان ، وخلقت العوامل الداخلية والخارجية اللازمة للاشتباك المسلح ، ودفعت بالعلاقات العربية الاسرائيلية – وهي علاقات مقتصرة على الحوار المسلح – الى ميدان القتال .

إن كل شيء في اسرائيل مسخر لغرض الحرب ، وموجه لخلق امة محاربة : القوانين والأحزاب والنوادي والمدارس والمطبوعات والصحافة والمؤسسات الاجتماعية والثقافية والادب والفكر وبطاقات التموين . كل شيء بلا استثناء مسخر لتحويل يهود اسرائيل الى جيش مقاتل . ان كل يهودي مجند ، رجلاً كان

أو امرأة ، شيخاً أو فتى . إن العقلية العسكرية التي تسيطر على اسرائيل تشبه شبهاً عميقاً واضحاً العقلية العسكرية في المانيا النازية قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها .

ويدعم هذه العقلية العسكرية ، وهذا الاستعداد الحربي ، جهاز الصهيونية العالمية الذي يمد اسرائيل بنبع لاينضب من العون المادي والمعنوي معبئاً لذلك امكانات جميع اليهود في مختلف انحاء الأرض . ويردف الاستعمار الصهيونية ، لان الصهيونية – ومن ثم وليدتها اسرائيل – برزت الى الوجود كبديل يخلف الاستعمار الذي يعيش في اواخر سني عمره ، وبخاصة في الوطن العربي .

• • •

لقد اتصفت السياسة العامة لاسرائيل بازدواجية الهدف حيث دأبت على أن تعلن دوماً عن هدف يأتي الاول في سلم الأفضلية ، في الوقت الذي يكون الهدف الأهم مختفياً تعلنه بعد تحقيق الهدف الأول . وهكذا اتصفت الاستراتيجية الاسرائيلية دوماً وعلى مدى تاريخها بهذه الازدواجية . ومما يلفت النظر في العلاقة المتبادلة بين السياسة والاستراتيجية العسكرية هو التناسق والانسجام الكامل بينها ، بحيث تختار السياسة اللحظة المواتية لبدء الحرب آخذة بعين الاعتبار الفكرة الاستراتيجية ، فتجني كل منها الفوائد القصوى . ففي عام ١٩٤٨ اختارت السياسة اللحظة المواتية لاشعال الحرب في الوقت الذي كان فيه العالم لايزال يذكر أسطورة الاضطهاد النازي لليهود . وكانت القوى السياسية العالمية المتصارعة لاتزال تحت تأثير تحالفها المشترك ضد العدو النازي ، كما كانت البلاد العربية في وضع معقد ، ولما يزل معظمها يقاسي ويلات الاستعمار ، وبعضها الآخر في أول عهده بالاستقلال ، يصفي التركات الثقيلة التي خلفها له الاستعمار . وكانت جماهير الشعب

العربي تفتقر الى وحدة الفكر والهدف ووضوح الطريق امامها . في هذه الظروف دفعت الصهيونية البلاد العربية لاعلان الحرب عليها بعد أن رفضت التقسيم الذي أقرته هيئة الامم المتحدة . وهكذا سهلت السياسة الصهيونية للاستراتيجيـــة العسكرية مهمة تنفيذ أهدافها بالاستيلاء على الجزء الاكبر من فلسطين .

وفي عام ١٩٥٦ استغلت السياسة الاسرائيلية نقمة الدوائر الاستعمارية على الشعب العربي الذي بدأ يدرك أهمية الانفتاح على العالم و كسر طوق احتكار السلاح واسهامه في النضال مع حركات التحرر في العالم ، كما استغلت انشغال القطر المصري في تثبيت أركان الثورة ، ورغبة الولايات المتحدة الامريكية في إحلال نفوذها في المنطقة بدلاً من النفوذ الانكليزي والفرنسي المتداعي ، ونقمة الدوائر الاستعمارية الحاكمة في انكلترا وفرنسا على تأميم قناة السويس ، ولوعة الحكومة الفرنسية من جراء هزائمها المتتالية أمام الثورة الجزائرية ، واعادة تسليح الجيش المصري بالعتاد الشرقي - استغلت السياسة الاسرائيلية ذلك كله لتخلق الموقف الملائم للاستراتيجية العسكرية كي تحتل سيناء وخليج العقبة .

وفي عام ١٩٦٧ ، وبعد تحضير طويل للحرب بدأ منذ عام ١٩٥٧ ، استغلت السياسة الاسرائيلية الظروف الدولية المعقدة ، والهجمة الاستعمارية الضارية على مواقع التحرر في العالم ، ونقمة الاحتكارات العالميـة على الشعب العربي المتطلع الى استثمار ثرواته ، واتجـــاه الدول الاشتراكية نحو التعايش السلمي ، وبدائية التخطيط الاستراتيجي العربي ، وتمزق الارادة العربية ، وعاطفية أجهزة الاعلام العربية ، وغوغائية السياسة العربية وترددها - استغلت السياسة الاسرائيلية ذلك كله لتعطي الاستراتيجية العسكرية الأمر بالتنفيذ لتحقيق

أهداف المرحلة المحددة ولتخلق الجو المناسب ـ بعد الحرب ـ لكي تحقق السياسة الاسرائيلية أغراضها .

ان الاداة ـ في عرف الصهيونية ـ لتحقيق الهدف هي القوة العسكرية المرتبطة بالمعنى الديني للعقيدة اليهودية ، التي استفادت منها الصهيونية العالميـــة السياسية لكي تجعل من إقامة الدولة عن طريق الحرب مسألة دينية جوهرية عند اليهود . وان هذه الطريقة ، وذلك الاسلوب ، يمثلان جزءاً لاينفصل عن المفهوم السياسي والعملي للصهيونية ولرسالتها وسبل تحقيقها وسلوكها ، ذلك السلوك الذي يجعل من كل يهودي ـ انّى كان ، وحيثما وجد : في المهجر أو أرض الميعاد ـ جندياً متأهباً دوماً للانقضاض والعدوان ، لاستعادة الحدود التاريخية ـ في زعمهم ـ ولحماية وجود الدولة والحفاظ عليها ماديا وروحيا وتدعيم مستقبلها ، وتأمين استمرار وجودها وبقائها على قيد الحياة .

وان بقاء يهود العالم ـ في عرف الصهيونية ـ يعتمد على بقاء دولة اسرائيل ، ويقوم عليه . وان مشكلة توفير أمن اسرائيل تعادل ـ بالتالي ـ مشكلة مايسمى بالشعب اليهودي . ولقد تم ـ أصلا ـ تنظيم اليهود في العالم كله ، منذ اكثر من سبعين عاماً ، بغية خلق الدولة اليهودية ، لكي يتسنى لهذه الدولة ـ بعد ذلك ـ الحفاظ على اليهود وحمايتهم ، وتحقيق اهداف الصهيونية .

ان مشكلة اسرائيل الاولى ، هي مشكلة « تكون او لاتكون » أي « تبقى أو تزول » . ومن هنا غدت مشكلة « الأمن » محور حياتها وقطب تفكيرها كله . وقد ظلت مشكلة الأمن تحتل المقام الأول في الجهد الصهيوني الاستعماري الاسرائيلي منذ نشأت اسرائيل حتى اليوم . والحل الطبيعي لهذه

المشكلة هو توفير القوة المسلحة اللازمة لمواجهة القوى التي تهدد أمن اسرائيل من الخارج . وانطلاقاً من هذا المفهوم ، تحددت أغراض الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية واسسها .

ان مفهوم الأمن والدفاع في المذهب العسكري الاسرائيلي مفهوم حركي ، مجاله الحيوي خارج اسرائيل . لذا فهو مفهوم هجومي عدواني ينبثق من طبيعة العقيدة الصهيونية واهدافها السياسية ، ومن طبيعة المجتمع الاسرائيلي وعقليته .

ولا يعني الأمن - في المذهب العسكري الاسرائيلي - الدفاع عن رقعة معينة من الأرض فحسب ، بل يعني ان تحقيق الأمن يوجب الحصول على مجال المناورة في الارض العربية ، وعلى حرية المناورة فوق تلك الارض . ومن هذا المفهوم ، ينطلق مفهوم تطبيقي آخر ، وهو ان الدفاع عن كيان اسرائيل وأمن حدودها وحماية مكتسباتها ومنجزاتها تقتضي الامتداد والتوسع اكثرفأ كثر في البلاد العربية .

وهناك مبادىء واعتبارات تفرض ذاتها على مفهوم الدفاع في اسرائيل وعلى هيكل الاجهزة التي تتولى شؤون الدفاع تخطيطاً وتنفيذاً . ولم يكن أمام الاستراتيجية العسكرية مناص من أن تخضع لها ، لأن إهمال احدها يفتح ثغرة كبيرة في الجهاز الدفاعي وفي كيان اسرائيل ذاتها . وأهم هذه المبادىء والاعتبارات :

١ - الحفاظ بصورة دائمة على قوة ضاربة قادرة على الردع وعلى صد الهجوم العربي .

٢ - ضرورة الحصول على انتصارات سريعة وخاطفة على الدول العربية سواء كانت المعارك محدودة المدى أو واسعة .

٣ – الصمود على الحدود ، اذ ان كل تراجع عنها – مهما كان ضعيفاً – يعرض كيان الدولة الى الانهيار .

٤ – استغلال جميع الطاقات في الداخل وجميع امكانات اليهود والاصدقاء في الخارج استغلالاً علمياً منظماً كاملاً .

٥ – الحفاظ على الجيش العامل والجيش الاحتياطي والمنظمات شبه العسكرية في أعلى مستوى تدريبي وجعلها في حالة استعداد جيد لمواجهة كل طارىء مهما كان كبيراً وخطيراً .

ويختلط مفهوم الأمن والدفاع في اسرائيل ، بقصد الهجرة واستعمار الأراضي والمعاني الغيبية . فبينما يربط بن غوريون مفهوم الأمن بالهجرة في خطابه الذي القاه امام الكنيست في عام ١٩٥٥ فيقول :

« اننا نعرف بأن امننا لايتوقف على خطط حربية او مقدرة كلامية بطولية ، بل يعتمد على جهود مستمرة في مجال الهجرة والتربية وتنشئة الشبية واستيطان الأراضي الخالية ، وتطوير الصناعة والاعمال اليدوية والملاحة »

نجده يربط بين مفهوم الدفاع والمعاني الغيبية (الميتافيزيكية) في خطابه الذي ألقاه في الذكرى السنوية التاسعة لقيام اسرائيل في ١٥ أيار ١٩٥٦ فيقول :

« ان كان الدفاع من أهم اهدافنا حالياً ، فان ذلك لن يمنعنا عن العمل الخلاق من أجل الخلاص الذي هو هدف اسرائيل النهائي . ان ولادة اسرائيل هي نتيجة لرؤيا نبوية رائعة معلنة من هضاب القدس . وعاشت هذه الرؤيا آلاف السنين في القلوب اليهودية ، رؤيا خلاص اسرائيل والانسانية بأجمعها . اننا نبني أملنا وعقيدتنا على صخرة اسرائيل . ان الدولة والشعب في اسرائيل وفي خارجها هما قوتنا وعوننا » .

ان مشكلة الأمن في اسرائيل تتخذ - كما قلنا - شكل قضية تتعلق بالبقاء ذاته . وقد عبر بن غوريون عن ذلك في خطابه الذي القاه امام الكنيست يوم ٢ تشرين الثاني ١٩٥٥ حينما قدم اعضاء حكومته الى المجلس ، فقال : «تأخذ قضية الأمن موضعاً رئيسياً في افكارنا . ولا توجد قضية مشابهة لهذه القضية في أية دولة أخرى . لأن الأمر في اسرائيل ليس قضية حماية استقلالنا أو اراضينا أو حدودنا أو سيادتنا فحسب ، انما هي قضية البقاء على قيد الحياة من الناحية الفيزيائية ... لايمكننا أن نغمض أعيننا أمام الحقيقة بأن اعداءنا لايهددون استقلالنا وحسب ، بل يهددون عن كثب استمرار بقائنا الفيزيائي . هذا هو المعنى الرهيب لمشكلة أمننا » .

وكان بن غوريون - وهو من ابرز المخططين للاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية - قد وضح مفهوم الأمن والدفاع وما يتعلق به ، وذلك في عام ١٩٥٠ ، فقال :

« ان مشكلة أمننا هي بالحرف الواحد مشكلة استمرار بقائنا الفيزيولوجي . وإن استمرار بقاء الشعب اليهودي يتعلق باستمرار دولة اسرائيل . ولذلك تكون حاجاتنا الدفاعية اكبر من حاجات أية دولة أخرى .

« علينا أن نعرف بأن هناك فارقاً فاصلا بيننا وبين أعدائنا . فهم يعتقدون ان باستطاعتهم حل مشكلة اسرائيل نهائياً ، وذلك بإبادتنا التامة ، فلا نستطيع اذن تحت هذه الظروف تحقيق أمننا الا عن طريق انتصارات عسكرية ...

« إن أمننا يتعلق بتزايد مستمر في جميع القطاعات المؤدية الى رسوخ قوتنا ، وفي جميع القطاعات الواقعة على الخطوط الامامية للمعركة .

« ان من واجبي أن أشدد القول على أن أمن اسرائيل لايتعلق كلياً ولا يكون مبنياً على الجيش والسلاح فقط – مع أنه بدون هذين العاملين لايمكن وجود طمأنينة – ولقد عرف الشعب بحدسه الصحيح كم نحن بحاجة الآن الى امدادات اضافية من الاسلحة . أن أمن اسرائيل اسمه الهجرة . ان مصر لديها وحدها – ٢٣ – مليونا من السكان بينما يبلغ عدد سكان اسرائيل المليونين ونصف المليون فقط . ان الهجرة ليست هي وحدها بغية وهدف الصهيونية ، وليست هي الوظيفة الاولى التاريخية للدولة الاسرائيلية فحسب ، بل اننا بحاجة طاغية اليها من أجل أمننا . وهي لاتعني فقط وجوب هجرة يهود افريقيا أو يهود أي بلد آخر الى اسرائيل ، بل تعني أيضاً أن يتاح للمهاجرين الجدد مد جذورهم في مهنة ما في تربة الوطن الأم وفي اقتصاده ، في اللغة العبرية ، وفي القيم الفكرية للوطن ، في المسؤولية والواجبات المشتركة من أجل الشعب اليهودي ومن أجل الدفاع عن حاضر ومستقبل الدولة ... .

« ان الطمأنينة والأمن يعنيان : النمو الاقتصادي الذاتي ، لأننا لانستطيع تثبيت قوة دولتنا – القوة التي نحتاجها – عندما نبقى طويلاً نستجدي المعونة من الخارج . ان الاعتماد الكلي على مساعدة الآخرين له تأثير مخرب على الاقتصاد الوطني ، بل إنه يكون مجازفة عسكرية وسياسية . اننا لن نتمكن من التمتع بحرية الحركة طالما كنا غير مستقلين اقتصادياً .

« ان الامن والطمأنينة يعنيــــان : التشجيع على الاكتشاف والرقي بالمقدرة العلمية في جميع الفروع : الفيزياء ، والكيمياء ، والبيولوجيا ، والتكنيك . ان التطور العلمي ليس بالأمر الذي تحتاجه طبقة خاصة من الناس ، بل هو الفرضية التي لاغنى عنها لبناء اقتصادنا ولتقوية استقلالنا ولتثبيت دعائم دفاعنا .

« ان الذي يتوقف بصورة أساسية، وربما بصورة فاصلة، على امكاناتنا العلمية والتكنيكية، ليس فقط هيبتنا العالمية وشخصيتنا الدولية وتطورنا الاقتصادي في المدينة والقرية، في اليابسة وعلى سطح البحار، بل تتوقف أيضاً قوتنا الدفاعية على ذلك بصورة أساسية.

« إن العلوم في عصرنا هي المفتاح، ليس للمعركة فقط، بل للاقتصاد الرفيع المتطور وللقوة العسكرية ايضاً. ان فتياننا الموهوبين الذين يدرسون في جامعاتنا الحقوق بدلاً من العلوم الطبيعية وبدلاً من التيكنولوجيا، يجازفون برأس المال البشري القيم للوطن.

« من أجل أمننا واستقلالنا نحتاج الى عدد أكبر من الشبان والشابات في مجال البحث في الطاقة الشمسية، وينابيع الطاقة الطبيعية في ماء البحار.

« إن الأمن يعني: تربية مهنية لفتياننا على مستوى عال في الاقتصاد وفي الأعمال اليدوية، في الصناعة والبناء والملاحة، كي يتمكنوا من اتقان العمل والابداع فيه، ولكي يكون إنتاجهم مضاهياً للمنتجات الأخرى في الأسواق العالمية. يجب علينا أن ندرب كل واحد من الاربعة والعشرين ألف فتى وفتاة، الذين يحصلون على شهادة الدراسة الثانوية في كل عام، تدريباً زراعياً ومهنياً من الدرجة الأولى كي يحصلوا فيما بعد على مهنة منتجة تتفق مع الخطة العليا لحاجات الوطن. ».

وقد تطور مفهوم الأمن الاسرائيلي وما يعتبره الاستراتيجيون الاسرائيليون تهديداً لهذا الأمن. فبعد أن كانت أعمال الفدائيين وتسلح مصر عوامل تهدد الأمن – في نظر الاستراتيجيين الاسرائيليين – في عام ١٩٥٦، نجد في عام ١٩٦٧ أن العوامل الثلاثة التالية قد اعتبرت تهديدات مباشرة للأمن الاسرائيلي:

- العمل الفدائي

- إغلاق خليج العقبة

- تمركز القوات المصرية في سيناء

وحينما أعلنت الجمهورية العربية المتحدة في شهر أيار ١٩٦٧ اغلاق خليج العقبة ، وازالت بذلك آخر نتيجة من نتائج العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، اعتبرت اسرائيل إلغاء هذا « المكسب » عملاً عسكريا عدوانياً ، يسمح لها باتخاذ تدابير دفاعية مشروعة ، وذلك بشن حرب خاطفة . وقد حاول الاستراتيجيون الاسرائيليون بذلك إعطاء معنى جديد لمفهوم الدفاع ، لا يختلف عن المعنى الذي أسبغته النازية في الثلاثينات على كلمة « الدفاع » ، وذلك بأنه يحق لاسرائيل ان تنظر الى أي عمل اقتصادي او جغرافي أو سياسي أو حقوقي أو قانوني لا ينسجم مع استراتيجيتها السياسية والعسكرية أو الاقتصادية على انه عمل عدواني عسكري يستوجب اتخاذ تدابير عسكرية دفاعية ، ويعتبر هذا المفهوم أحد المفاهيم الثابتة في الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية .

واقد دخلت عوامل جديدة على مفهوم الأمن والدفاع في اثر عدوان حزيران ١٩٦٧ . فبعد أن احتلت اسرائيل سيناء وشرم الشيخ والضفة الغربية والقدس وهضبة الجولان ، نشأت أفكار جديدة لتطوير مفهوم الأمن الاسرائيلي ولتبرير التوسع وتحقيق الأهداف الصهيونية . وهكذا ظهرت مصطلحات « الحدود المأمونة » . فقد صرح وزير الخارجية الاسرائيلية أبا أيبان بقوله : « إن الحدود السياسية لا ينبغي ان تكون بالضرورة هي الحدود المأمونة » [١] . وانطلاقاً

---

(١) من تصريح أبا أيبان لمجلة « دير شبيغل » الالمانية الغربية العدد - ٥ في ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٩ .

من هذه الفكرة تسعى اسرائيل الى تجريد المناطق العربية المحيطة بحدودها من السلاح ، ولتجعلها حزام أمن يبعد عنها القوات ومراكز الحشد العربية ، ويخرج من نطاقه المطارات العربية ، فيعطي اسرائيل بذلك هامش أمن واسعاً .

وتعتبر اسرائيل صحراء سيناء منطقة خطيرة بالنسبة لدفاعها ، لأنها كانت ميدان تحشد للقوات المصرية ، ومجالاً واسعاً لمناورتها ، وهامش أمن لدفاعها الجوي ، ومنطقة لعدة مطارات ميدانية تهدد مدن اسرائيل ومطاراتها ومرافقها الحيوية ، وتتمكن - في الوقت ذاته - من تأمين الدفاع الجوي الأمامي عن الأراضي العربية الواقعة غربي قناة السويس . أما قطاع غزة فكان - في نظر العسكريين الاسرائيليين - جيباً خطيراً في جسم اسرائيل ، يهدد وسط البلاد ، ويتمكن من قطع اسرائيل الى شطرين أيضاً ، فيفصل النقب وأيلات وبئر السبع عن الشمال ، ويعيق الجيش الاسرائيلي عن الهجوم على سيناء واحتلالها ، يضاف الى ذلك أن القطاع ظل معسكراً يحتشد فيه الفدائيون ويتدربون وينظمون صفوفهم وينطلقون منه لتنفيذ عملياتهم في أرض اسرائيل .

وترى اسرائيل في الضفة الغربية أخطر منطقة تهدد أمنها ، إذ تدخل هذه الضفة في وسط اسرائيل وتضغط عليه حتى تكاد تخنقه . وبذلك تستطيع القوات العربية أن تشطر بسهولة ويسر اسرائيل الى شطرين منفصلين ، وان تهدد بعد ذلك قلب اسرائيل وعقلها المفكر في تل أبيب . ولقد كانت تل أبيب ذاتها واقعة تحت مرمى المدفعية الأردنية . أما القدس المحتلة ومرافقها الحيوية ومؤسساتها الحكومية فقد كانت واقعة تحت مرمى البنادق ومدافع الهاون قريبة المدى ، المتمركزة في القدس العربية وضواحيها .

اما هضبة الجولان فهي مشرفة على سهل الحولة ووادي نهر الأردن وبحيرة طبريا ، وهذه المناطق خصبة وغنية بالموارد المائية اللازمة لاسرائيل كي

تجرها الى صحراء النقب لارواثه واستصلاح أراضيه وإسكان المهاجرين فيه وانشاء حاجز دفاعي سميك يصد اي هجوم يأتي من صحراء سيناء أو خليج العقبة . وكانت المدفعية السورية متمركزة في الجولان ومسيطر على المستعمرات الاسرائيلية القائمة في تلك السهول والوديان .

ان بقاء اسرائيل في المناطق التي احتلتها إثر حرب حزيران أو تجريدها من السلاح ، أو تطبيق فكرة الحدود السياسية والحدود المأمونة والفصل بين هذين النوعين من الحدود ، إن ذلك كله يدخل ضمن مفهوم « أمن اسرائيل » ، ويهدف ـ من حيث مفهوم الأمن الاسرائيلي فقط ـ الى تحقيق الهدفين الرئيسيين التاليين ، الى جانب أهداف أخرى تتعلق بأغراض وأسس استراتيجية اخرى :

١ ـ توفير حزام أمن واسع لاسرائيل خارج حدودها ، خال من أية قوة عربية مسلحة .

٢ ـ توسيع هامش الأمان للدفاع الجوي الاسرائيلي . فبعد أن كانت المدة الواقعة بين الانذار الراداري وبين وصول الطائرات المصرية الى تل أبيب هي أربع دقائق فقط قبل الخامس من حزيران ،أصبحت بعد اليوم العاشر منه تبلغ نحو ٢٧ دقيقة .

ان حدود الاحتلال التي مرت بعد حرب حزيران في قناة السويس وشواطىء خليج العقبة ونهر الأردن وسفوح جبل الشيخ وبانياس والقنيطرة ومرتفعات فيق تشكل ـ في نظر الاستراتيجيين الاسرائيليين ـ الحدود الآمنة للمرحلة الحالية . ولكنها لن تكون كذلك بعد عدة سنوات ،عندما يحين موعد تطبيق المرحلة الثانية من الخطة الصهيونية الاستعمارية التوسعية .

لقد وسعت حرب حزيران مفهوم «أمن اسرائيل» من حيث المضمون الفكري والتطبيق العملي . ولقد أثبت هذا المفهوم على نفسه أنه حركي مرن ، يتطور حسب العوامل التي تنتج في أثر تطبيق الخطط المرحلية الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية .

* * *

كتب السياسي الايطالي نقولا ميكيافيلي[1] في كتابه «الأمير» يقول :

« لا يمكن أن توجد قوانين صالحة ، إلا حينما توجد أسلحة قوية . وحينما توجد أسلحة قوية توجد قوانين صالحة » .

ان اسرائيل نموذج واقعي لهذه المعادلة الشرطية التي صاغها ميكيافيلي . وبالرغم من أن تلك المعادلة كانت وليدة القرون الوسطى ، فانها غدت حية واقعية متمثلة بدولة عضو في هيئة الأمم المتحدة في القرن العشرين ، عصر الذرة والفضاء . فقد قامت اسرائيل «بأسلحة قوية» — أي بالغزو والعدوان — وحيث قامت ولدت معها «قوانين الاستعمار ، وابادة الشعب العربي الفلسطيني ، وغزو أراضي الدول المحيطة بفلسطين ، واقامة اسرائيل الكبرى ونهب ثروات الوطن العربي والسيطرة عليه» . ان هذه القوانين التي ولدت مع ولادة اسرائيل في عام ١٩٤٨ لاتزال تظهر الى الوجود بشكلها الواقعي التطبيقي ، مرحلة بعد مرحلة ومعركة بعد معركة وحربا بعد حرب ...

ويتضح الارتباط الوثيق بين الوجود الفعلي لليهود في فلسطين وبين استعمال السلاح لاقامة ذلك الوجود ، منذ ماقبل الحركة الصهيونية العالمية . كما يتضح

---

(١) نقولا ميكيافيلي (١٤٦٩ — ١٥٢٧) كاتب وسياسي ايطالي . من أشهر كتبه « الأمير » و « المقولات » و « فن الحرب ومجموعة المؤلفات التاريخية والكتابات الأدبية » .

كذلك أن الذين فكروا أو عملوا لاقامة دولة صهيونية في فلسطين ، أدركوا في الوقت نفسه استحالة القيام بعمل من هذا النوع دون اعتماد القوة والسلاح . ولقد برز هذا الادراك في كتابات القادة الأوائل للحركة الصهيونية ، وفي تصوراتهم للكيفية التي ستحقق بها أهداف المنظمة الصهيونية العالمية . فبعد أن دعا نابليون بونابرت اليهود لمساعدته على احتلال فلسطين في أواخر القرن الثامن عشر ، وجه « آرون ليفي » الحاخام الأكبر للقدس في عام ١٧٩٩ ، أي قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول بحوالي مائة عام ، نداء الى اليهود يحثهم فيه على القدوم الى فلسطين قائلا :

« ليجتمع جميع رجال الشعب اليهودي القادرين على حمل السلاح ، وليأتوا الى فلسطين . »

ويشكل كتاب « الدولة اليهودية » لتيودور هيرتزل الذي يعتبر أب الحركة الصهيونية ، احدى الدعائم الرئيسية للفكرة الصهيونية واحدى القرائن التي تثبت ارتباط الصهيونية بالعنف طريقاً للوصول الى أهدافها . يقول هيرتزل في هذا الكتاب : « ان الانسان ، مهما بلغ من الثراء والقوة ، غير قادر وحده على اقتلاع شعب من أرضه . الفكرة وحدها تستطيع أن تفعل ذلك . وفكرة الدولة تمتلك بالتأكيد هذه القوة » . ودعا الى « حمل السلاح ضد بحر من المشاكل التي ستثيرها محاولات بناء الدولة اليهودية . وبالتصدي لها يمكن انهاؤها » . وهكذا تصور هيرتزل بناء الدولة اليهودية بالسلاح والعنف الجماعي المنظم في جيش من « الرجال اليائسين الذين هم أفضل الغزاة » .

وكان لنظرية نيتشه في الطموح الى القوة تأثير بارز على بعض مفكري الحركة الصهيونية ، وبشكل خاص ميخائيل جوزيف بيرديشفسكي (١٨٦٥-١٩٢١) ،

الذي لم ير الا التوتر والثورة العنيفة طريقاً لقيام اسرائيل . دعا بيرديشفسكي الى اعادة تفسير التاريخ اليهودي ، واعتبر بأن الأنبياء العبرانيين والرتل الطويل من الحاخامين ورجال العلم في السنوات الألفين الماضية لم يكونوا سوى حفاري قبور ومفسدين ومشوهين للحياة اليهودية الحقيقية . نظر بيرديشفسكي الى التوراة والى وثائق التقاليد اليهودية القديمة بروح جديدة ، بحثاً عن بقايا الديانات القديمة التي آمنت بتعدد الآلهة ، وعن الأساطير الزاهية للقوة البربرية التي امتلكتهما القبائل العبرانية الغابرة والتي رفضها الأنبياء والكهنة . وأبـدى بيرديشفسكي استغرابه من قول حكماء اسرائيل «ان السيف والكتاب انزلا من السماء سوية» وذلك « لأنه من الواضح أن كلا منهما يناقض الآخر بل ويقضي عليه كلياً . ان الفترة التي يعيشها الشعب اليهودي هي فترة عصيبة . وفي مثل هذه الفترات يعيش الرجال والأمم بالسيف لا بالكتاب . ان السيف ليس شيئاً مجرداً أو بعيداً عن الحياة . انه تجسيد مادي للحياة في أنقى معانيها ، أما الكتاب فليس كذلك » .

وحين قال مستشار جمعية الطلاب اليهود في فيينا انه عازم على الغاء جميع المظاهر الاحتفالية الموروثة عن المؤسسات الألمانية ، عارضه فلاديمير جابوتنسكي(١) بعنف قائلاً : « تستطيع أن تلغي كل شيء : القبعات، والأحزمة ، والألوان ،

---

(١) جابوتنسكي يهودي روسي ، اشتهر هو وجماعته بعدائهم الشديد لسياسة وايزمن التي تقوم على الدبلوماسية والتروي والاعتماد على بريطانيا . وكان يؤمن بضرورة الاسراع في الهجرة ، والاعتماد بشكل رئيسي على وحدات عسكرية يهودية . وقد نظم بالفعل فرقة دفاعية في القدس، في اثر اضطرابات عام ١٩٢٠ . وهو الذي أنشأ « الكتيبة اليهودية » التابعة للجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى . وكانت هـذه الكتيبة تعزف النشيد اليهودي ، وترفع العلم اليهودي . وكان جابوتنسكي أديباً ، يكتب القصص والمقالات والاشعار وأناشيد الحرب . ولم يكن في تاريخ الصهيونية رجل، غير هرتزل، قدره اتباعه مثل جابوتنسكي .

والافراط في الشرب ، والأغاني ، أما السيف فلايمكن الغاؤه . عليكم أن تحتفظوا بالسيف لأن الاقتتال بالسيف ليس ابتكاراً ألمانياً، بل انه ملك لأجدادنا الأوائل. ان التوراة والسيف انزلا علينا من السماء »(١) .

وهكذا نرى فلاديمير جابوتنسكي يكرر ويؤكد ما قاله بيرديشفسكي وغيره حول الدور التاريخي للسيف ، وما يرمز اليه في حياة الشعب اليهودي .. ولكن جابوتنسكي امتاز عنها بأنه ترجم هذا الايمان الى لغة عملية ، والى مؤسسات فعلية . دعا جابوتنسكي الشباب اليهودي الى تذكر المعـــارك البطولية لليهود القدماء ، والى ملء أنفسهم بالروح العسكرية ، وأحيا أسماء « بيشار » و « مسادة » وهي أسماء آخر التحصينات في الدولة اليهودية قبل آلاف السنين . كل ذلك ليوقظ الاعتزاز بالأعمال الحربية ، وبالقتال والسلاح . واعتبر جابوتنسكي ان اولئك الذين يموتون وهم يحاربون العرب في فلسطين ، يجب أن يبقوا نماذج لا تغيب أبداً عن عقول الشباب اليهودي .

وطالب جابوتنسكي بعد انتهـــاء الحرب العالمية الأولى باقامة نظام في فلسطين – التي كان يشكل العرب فيها ٩٠٪ من سكانها – يسهل الهجرة الواسعة النطاق حتى يصبح اليهود أكثرية . ان نظاماً استعمارياً من هـذا النمط يتطلب قوى مسلحة تتصدى لمقاومة سكان فلسطين الأصليين ، وتتجاهل جميع حقوقهم المشروعة . ان حدود الدولة اليهودية بالنسبة لجابوتنسكي يجب أن تمتد ، لتشمل أبعد نقطة وصلتها الدولة اليهودية في أي زمن ماض من التاريخ .

رفض جابوتنسكي المساعي التي بذلها هرتزل لتأمين اعتراف دولي مسبق

(١) العنف والسلام – تأليف ابراهيم العابد – ص ١١ وما بعدها – مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية – بيروت ١٩٦٧ .

– وفق القانون العام – بالدولة اليهودية ، لأنه مقتنع بأن العرب لا يمكن أن يقبلوا بسيطرة يهودية في فلسطين . ولقد تأثر جابوتنسكي بشكل عميق بالفاشية عقب ظهورها بعد الحرب العالمية الأولى ، وبواقعية سياسة القوة والبطش وبفعاليتها .

ولم تذهب آراء جابوتنسكي هباء ، بل طبقت بحذافيرها بكل ما فيها من مطامع توسعية فاشية وبكل ما تحمل من عنف وبطش وارهاب . ولئن حاولت الحركة الصهيونية ان تصوره زعيماً للتحريفيين فيها وبأن أفكاره لا تمثل الخط الرسمي للتفكير الصهيوني ، فان برنامج بلتيمور الذي أقرته المنظمة الصهيونية العالمية أثناء الحرب العالمية الثانية يدحض هذا الادعاء . لأن هذا البرنامج في الحقيقة مستوحى من البرامج والمخططات والمبادىء التي دعا إليها فلاديمير جابوتنسكي .

وهذا لا يعني مطلقاً أن مجرى الأمور في الحركة الصهيونية قبل ١٩٤٢ – عام وفاة جابوتنسكي – كان مغايراً لهذا الاتجاه ، ولنا في حاييم وايزمن أول رئيس لدولة اسرائيل خير شاهد على ذلك . يقول وايزمن في مذكراته « التجربة والخطأ » في وصف الحالة في فلسطين في عام ١٩١٤ ما يلي : « يستطيع الانسان ان يلمس هنا وهناك تحللاً للاخلاقية الصهيونية التقليدية ، ويلمس بدلاً منها مسحة من الروح العسكرية وارتقاء في أحضانها ، بل وأكثر من ذلك لجوءاً الى العنف والارهاب واستعداداً للتعاون مع الشر كقوة لها فوائدها في تحقيق الوطن القومي لليهود » . وفي معرض التعليق على هذا الكلام يقول هانز كوهين ، وهو يهودي : « ان الشر لم يكن هنا وهناك فقط وانما كان يغرس جذوره بسرعة في كل مكان ، حتى مكن ، من خلال الحرب ، لقيام الدولة تماماً كما قامت اسبارطة وبروسيا .

وكهاتين الدولتين ، استمرت اسرائيل في وجودها بسبب القوة العسكرية وحدها » .

ويأتي دافيد بن غوريون ليكمل اتجاه الحركة الصهيونيـــة نحو العنف والقوة ، وسيلة لتحقيق أهدافها . ويعبر عن إيمانه بالحرب حين يقول : « ان الوضع في فلسطين ، لايمكن أن يسوى إلا بالقوة العسكرية . الحرب حرب ، وبالتالي فان عودة العرب الى يافا،ليست ظلماً وانما هي خطيئة كبرى ، ان اسرائيل لايمكن أن تعيش إلا بالقوة والسلاح »(١) . ولقد أبدى بن غوريون محبة شديدة لالياهو جولومب المفكر الصهيوني الذي أعد نفسه ليصبح خبيراً عسكرياً ، لانه « مقتنع بأن اليهود سيحاربون يوماً ما في سبيل اقامة دولة لهم في فلسطين » .

ولقد كانت دعوة بن غوريون منذ عام ١٩٥١ وحتى استقالته في عام ١٩٦٣ ، ومن بعده ليفي اشكول رئيس الوزراء السابق وزعيم حزب الماباي ، بأن على الحكومة أن تعمل لاستجلاب أربعة ملايين من اليهود الى اسرائيل ولجذبهم - كانت هذه الدعوة برهاناً ثابتاً على أن بن غوريون والمنظمة العسكرية الاسرائيلية قد استوعبا النظرية التحريفية المتطرفة وتبنيا البرنامج الكامل لفلاديمير جابوتنسكي ، مع فارق رئيسي وهو ان جابوتنسكي أعلن بصراحة عن برنامجه العدواني العسكري الفاشي ، بينما تقف المنظمة العسكرية الاسرائيلية خلف أقنعة السلام والاشتراكية والعمل في سبيل انعاش الارض . ذلك لان اسرائيل ، بحجمها الحالي ، لايمكن بأي حال أن تستوعب الملايين الأربعة أو الخمسة من المهاجرين . وبالتالي فانها - اذا استطاعت - ستوسع حدودها اكثر وستشرد مزيداً من أصحاب الأرض

---

(١) Ben Gourion — Israël : Années de Lutte . Flemmarion — Paris 1964 .

الأصليين كما فعلت منذ ١٩٤٨ وحتى اليوم ، ولقد كانت هذه هي سياسة جماعة جابوتنسكي التي اطلق على افرادها اسم التحريفيين او الاصلاحيين والتي كان بن غوريون يدعي معارضته لها ..

أما مناحيم بيغن ، زعيم حزب حيروت ، فشبيه بجابوتنسكي في الاعلان بصراحة عن نياته العدوانية وإيمانه المتطرف بالعنف والارهاب . ويمكن تلخيص موقفه في هذا المضمار بعبارتين وردتا في كتابه « الثورة » . تقول الأولى :

« أنا أحارب اذن أنا موجود » . وتقول الثانية : « كن أخي والا سأقتلك » .

ويعتبر مناحيم بيغن اساليب العنف التي لجأ اليها الصهيونيون قبل ١٩٤٨ هي الطريق الوحيد الفعال لتأمين الأهداف اليهودية القومية في فلسطين ، ويقول ان هذه الأساليب الارهابية قد اشبعت « رغبة جارفة مكبوتة عند اليهود » .(١)

وحينما تشكلت الوكالة اليهودية في عام ١٩٣٩ لتكون الجهاز التنفيذي للمنظمة الصهيونية العالمية ، تولت انشاء القوات المسلحة لغزو فلسطين واستعمارها وكان اصرارها على انشاء الفيلق اليهودي ، ثم جيش الهاغانا ، تأكيدا على ايمانها بالقوة المسلحة والإرهاب لتنفيذ مخططاتها .

يقول الكولونيل مايترتزهاجن في مذكراته : « أن اهمية انشاء الفيلق اليهودي سياسية ، ويدرك تشرشل كل مضامينها . اذ ان هذا الفيلق سيجد نفسه بعد انتهاء الحرب قريبا من فلسطين ، وهذا يعني : دولة يهودية . ان وايزمن يعمل ويطالب بانشاء هذا الفيلق ، وفي ذهنه هذا الهدف . بهذا يكون عندنا نصف مليون يهودي يزحفون الى فلسطين وينهون مسألة الشرق الاوسط الى الابد » .(٢)

---

(١) Menachem Begin - The Revolt -Story of the Irgun- H. Schuman - New York 1951 .

(٢) Colonel R. Meinrtzhagen - Meadle Eeast Diary - The Cresset Press - London 1954 .

وقد تركت الصهيونية في الحياة اليهودية موجة من الحقد الجماعي لا تنحصر حدوده عند المتعصبين دينيا فقط ، بل تمتد وتتغلغل في جميع مرافق الحياة السياسية والدينية والثقافية والاجتماعية . ومن غرائب الامور ان تكون الدعوة الى العنف والكراهية والحقد قد وجهت وسيرت تحت قيادة رجال الدين اليهود المتطرفين والمحافظين والاصلاحيين ، اي زعماء جميع اقسام الدين اليهودي . فقد كتب « ناتان هوفشي » في صحيفة « فير » الاسرائيلية يسترجع الصور التي تحكى عن الحاخامين القدماء كرجال لطفاء يعارضون القوة بكل مظاهرها ، وبشكل خاص مظاهرها المنظمة كالحرب والعسكرية ، ويقول : « اما الآن فان رجال الدين قد اداروا ظهورهم لجميع تحذيرات الانبياء والحكماء ضد القوة ، واصبحوا اكثر الناس حماسة واعجابا بالجيش وبالروح العسكرية والاساليب المسلحة العنيفة . انهم يعطون الجيش الاسرائيلي شهادة الاثبات بأنه ينفذ تعاليم الدين اليهودي » .

وليس ادل على ذلك من المبادرة التي قام بها الحاخام الاكبر في اسرائيل حيث سلم قائد العدوان على سيناء في عام ١٩٥٦ نسخة من التوراة قائلا للجنود: « انكم ستدخلون ترابا مقدسا . لانه في هذه الارض استلم معلمنا موسى الكتاب » . كما قدمت صحيفة « ها آرتيس » الاسرائيلية وصفا لحفلة تخرج عسكرية ، فقالت :

« يمر الموكب الصغير بين صفين من الرجال المسلحين ، ثم يمر الكتاب (مجموعة قوانين الدين اليهودي) المخصص لمعبد هذه الوحدة محمولا على قطعة من المخمل الازرق ، مرفوعة على اسنة الحراب ، ويحمل الكتاب الضابط الديني في الوحدة والى يمينه الحاخام الاكبر للجيش العقيد عورين » .

* * *

وتحاول الصهيونية العالمية في كل مناسبة ان تظهر للعالم بأن اليهود لم

يبدأوا الحرب في فلسطين وبأنهم كانوا في موقف المدافع عن نفسه بعد أن دخلت جيوش الدول العربية فلسطين في ١٥ ايار ١٩٤٨ ، وانهم عند هذا التاريخ فقط اضطروا لخوض الحرب ، واستطاعوا ان يخرجوا منها منتصرين ، ويثبتوا بالتالي دولة اسرائيل ، ولكن الوقائع تثبت عكس هذا المنطق تماما . فقد اعلن دافيد بن غوريون رئيس وزراء اسرائيل في ذلك الوقت في ١٢ كانون الاول ١٩٤٨ ما يلي :

« لقد تحولت حربنا في سبيل الاستقلال من الدفاع الى الهجوم بشكل حاسم في مطلع شهر نيسان عام ١٩٤٨ . ولقد نفذت عملية ناخشون للاستيلاء على الارض التي نقف عليها الآن وعلى دير محاسن وانتهت باحتلال القسطل التلة المحصنة قرب القدس » . وقال بن غوريون في مناسبة اخرى : « ان الصهيونية قد حققت هدفها ، في ١٤ ايار ١٩٤٨ ببناء دولة يهودية اكبر مما كان متفقا عليه ، وبفضل قوات الهاغانا » . وقال بن غوريون في مناسبة ثالثة في ٣ ايلول ١٩٥٠ : « ان العرب لم يدخلوا ولم يحتلوا اية مستعمرة يهودية مهما كانت بعيدة قبل خروج القوات البريطانية من فلسطين ، بينما احتلت الهاغانا عدة مواقع عربية و (حررت) طبريا وحيفا ويافا وصفد . وهكذا كان الجزء الذي كان مفروضا ان تبدأ فيه قوات الهاغانا اعمالها قد (نظف) من العرب في ليلة القدر ١٤ ايار ١٩٤٨ » .

ولعل في هذه الاقوال ما يثبت بشكل قاطع ان الصهيونيين هم الذين بدأوا بالعدوان ، وهم الذين شنوا الحرب قبل ان تتحرك جيوش الدول العربية الى فلسطين ، كما وتثبت ان اسرائيل لم تقم الا بالحرب والعنف والدماء . ولقد اوضح الكونت برنادوت ، الوسيط الدولي الى فلسطين ، ذلك في تقرير بعث به

الى الامم المتحدة وقال فيه : « ان الدولة اليهودية لم تولد في السلام، كما كان مأمولا في قرار ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ ، بل بالعنف واراقة الدماء » [١] .

لقد ادت هذه الافكار الى نشوء نزعة عسكرية فاشية متفشية في المجتمع ، تشكل المرتكز الذي يقوم عليه الكيان الاسرائيلي. ولهذا فان اسرائيل ستستمر في العنف ، وستبقى معتمدة في وجودها على القوة العسكرية ، وعلى قياس جميع الامور والنظر الى جميع القضايا بمنظار العنف والقوة العسكرية وحده .

ان كل زائر لاسرائيل يخرج بانطباع واحد، وهو ان الامور العسكرية لها الافضلية في كل شيء : منظمات الشباب، الجنود النظاميون، البحارة، الطيارون، الاحتياطي العسكري الضخم المجهز والمدرب والمخبأ خلف اسوار ما يسمى بالمستعمرات الزراعية ، الرجال على الحدود ، قوات الشرطة ... كل شيء يشير الى ان هذا المجتمع يضع تأكيدا كبيرا على اجهزة ومعدات الحرب [٢] . ويباهي بن غوريون بذلك ويقول بأن شعب اسرائيل هو عبارة عن « تجمع للمحاربين » وبأنه كان على اسرائيل منذ البداية ان تنظم جهازها المدني وفقا لمتطلبات الجهاز الحربي .

فوزارة الخارجية مثلا لها وظيفة رئيسية ، هي « تبرير اعمال وزارة الدفاع الاسرائيلية » . وكررت ذلك غولدامايير بقولها : « كان على سياستنا الخارجية خلال السنوات الماضية ان تنمي قدرتنا الدفاعية ، وتشرح الحوافز التي

---

(١) ملفات الامم المتحدة ـ ج/٨ ٦٤٤ الجزء الثاني ـ الفقرة الخامسة .

(٢) Commander E. H. Hutchison - Violent Trace - The Devin Adair Company - New York 1958 .

اجبرتنا على الدفاع عن انفسنا »(١) . والدفاع عن النفس بالنسبة لاسرائيل يعني حوادث الاعتداءات المتكررة على طول خطوط الهدنة، منـذ عام ١٩٤٨ وحتى الآن .

ولم تنحصر هذه النزعة العسكرية في التركيب السياسي لدولة اسرائيل، بل انتقلت الى المجتمع الاسرائيلي ذاته لتوجد علاقات اجتماعية تقوم على الشعور الدائم بالقلق وعـدم الاستقرار وتوقع الحرب في أية لحظة . فلقد نشأ هذا المجتمع ، بحكم نياته العدوانيـة ، في جو مشدود من التوتر قبل قيام إسرائيل . وكان عليه أن يعمل على عـدة جبهات : يبني المستعمرات ليستقر وليستوعب المهاجرين الجدد ، وينتظم في صفوف القوات المسلحة ليحارب العرب ويجليهم عن ديارهم . ومن الطبيعي ان يولد مثل هذا المجتمع جيلاً نازياً . فلقـد عاش الجيل الجـديد في إسرائيل حياته « في جو يعطي للقيم العسكرية وعلى رأسها العنف والنزعة العدوانية المكان الأول، وفي جو يكون العربي فيه دائماً عدواً لدوداً »(١) . ان الجيل الجديد في اسرائيـل « لاينظر فقط الى العرب باحتقار ، بل انه يدير ظهره بشيء من القرف للسنين الألفين من العيش في المنفى ، ويحاول ان يربط نفسه بالماضي البدائي السحيق ماداً يديه ليصل الى العبرانيين المحاربين في بيتـار وماسادة والقدس ، والى الملوك المتكبرين الذين احتلوا البلاد المجـاورة فوقف الأنبياء ضدهم ، والى رجال القبائل الذين أخضعوا وأهلكوا السكان الأصليين في أرض كنعان . ان الشباب اليهودي يريد أن يكون أكثر شجاعة وأشد قسوة وعنفاً »(٢) .

---

(١) Henry Chrisman - This is Our Strength. Selected Papers Of Golda Meir - Macmillan Company - NewYork 1962 .

(٢) Lieutenent - Général E. L. M. Burns - Between Arabs and Israeli - G. Harrap and Company - London 1962 .

وفي دراسة أجراها أحـــد أساتذة علم الاجتماع في اسرائيل على طلاب المدارس الابتدائية ، خرج بالنتيجة التي تقول : « ان ٦٠ ٪ من بين ١٠٦٦ طالباً قابلهم وتتراوح أعمارهم بين ٩ – ١٤ سنة أبدوا الإفناء الكلي للسكان العرب المدنيين في اسرائيل في حالة صراع مسلح مع الدول العربية » . ان هذه النتيجة مثال كامل للنازية ، والعنف ، والروح العسكرية العدوانية . ان ذلك يعود الى نوع التربية التي يتلقاها الطلاب في المدارس ، والتي تقع تحت إشراف وزارة التربيـــة والتعليم الإسرائيلية ... فقد نشرت جريدة جيروسالم بوست الاسرائيلية في عددها الصادر بتاريخ ٢٩ كانون الأول ١٩٦٦ خبراً يقول : ان ثلاثة آلاف من الطلبة في المدارس الثانوية في اسرائيل قد إنضموا الى حلقات لدراسة تاريخ حرب ١٩٤٨ تحت إشراف قسم التربية الاجتماعية بوزارة التربية والتعليم . ويلتقي هؤلاء الطلاب في هذه الحلقات بعد ساعات الدراسة العادية حيث ينقسمون الى مجموعات حسب مناطق السكن . ويقوم القادة العسكريون السابقون للمناطق (أثناء حرب ١٩٤٨) ، كل حسب منطقة إقامته ، بشرح تفاصيل المعارك التي دارت في المنطقة والمشاكل الدفاعية الخاصة بتلك المنطقة . ثم يطلع الطلاب على بعض الوثائق المتعلقة بالحرب ويقومون بجولات الى أماكن المعارك .

لقـــد نهجت إسرائيل منذ قيامها وحتى الآن على اتباع خط ثابت في استراتيجيتها الشاملة في نطاق علاقاتهـا مع الدول العربية ، وهو خط يستند الى العنف المستمر ، وذلك بالقيام بعمليات عسكرية كبيرة ذات أهداف محددة بين كل فترة وأخرى ضد الدول العربية المحيطة بها . ولعـــل الهدف الذي تكرر ذكره باستمرار في البيانات والتصريحات الإسرائيلية الرسمية سبب مباشر لهذه الاعتداءات هو اعتبارها عمـــلاً إنتقامياً ضد نشاط الفدائيين الفلسطينيين داخل

حدود إسرائيل . أما السبب غير المباشر الذي أعلنت عنه إسرائيـــل ، فهو دفع العرب الى عقد صلح معها ، وإنهاء حالة الحرب . ولكن التحليل العلمي لهذه العمليات العسكرية ، وتقييمها ضمن الاستراتيجية العامة لإسرائيل ، يُظهران زيف هذه الإدعاءات وبطلانها موضوعياً .

* * *

ان اسرائيل لاتريد من وراء اعتداءاتها هذه « دفع العرب الى مائدة المفاوضات من أجل السلام » . بل تناور بها للتقدم الى مواقع أفضل ، نحو توسع إقليمي أكبر فأكبر . ولهذا فان الصهيونية لاتقبل في الواقع ، ولا تتحمل أي ضمان دولي للحدود بينها وبين العرب ، بالرغم من ادعاءاتها ودعوتها لمثل هـــذا الضمان . ان إسرائيل لاتستطيع أبداً ان تعيش بهدوء ضمن حدودها الحالية ، أو حدود الأراضي المحتـــلة ، أو « الحدود الآمنة » التي تردد ذكرها ، وذلك لاعتبارات تتعلق :

١ – بإيمانها الأساسي والعقائدي بإقامة دولة تشمل حدوداً أوسع من حدودها الحالية .

٢ – بسياستها الساعية الى زيادة الهجرة واستيعاب أغلبية يهود العالم .

٣ – بأوضاعها الاقتصادية .

٤ – بكونها مخلباً للاستعمار والإمبريالية في المنطقـــة ، يسعى باستمرار لإبقاء المنطقة في حالة توتر واضطراب .

٥ – بحكم مصالحها الخاصة في إبقاء حالة التوتر هذه لأنها تستطيع بهذا التوتر أن تطلب مزيداً من المال من المؤسسات الصهيونية في العالم ، مزيداً من السلاح من الدول الغربية صاحبة المصلحة في بقائها وتوسعها .

ان اسرائيل تعلن باستمرار اثر كل عمل عدواني مسلح ترتكبه قواتها النظامية ضد الدول العربية ، بأن هذا العمل جاء انتقاماً لأعمال مسلحة قامت بها الدول العربية او بمساعدة الدول العربية على حدود اسرائيل او في داخل الاراضي المحتلة . ولقد اصبحت سياسة « الانتقام » هذه خطاً استراتيجياً رئيسياً في مخططات الجيش الاسرائيلي ، وغدت - في الواقع - غطاء المطامع التوسعية والنوايا العدوانية . وقد كشف « موشيه بربليانت » المعلق العسكري الاسرائيلي النقاب عن حقيقة هذه السياسة ، وهو يحاول أن يدافع عنها ، فقال : « نادراً ما تكون حوادث الحدود هذه مجرد مصادفة ، انها جزء من سياسة الانتقام ، وجزء من خطة واضحة لإجبار العرب على القبول بالسلام مع اسرائيل .. ان سياسة الاعتداءات هذه هي نتاج تفكير سياسي وسيكولوجي بارد وغير عاطفي » . وهكذا يتضح أن الاعتداءات الاسرائيلية ليست رداً انفعالياً سريعاً وعملياً على بعض حوادث خرق الحدود ، أو عمليات الفدائيين ، ولكنها سياسة مدبرة ومرسومة سلفاً .

• • •

إن نزعة العنف المتمثلة بالغزو والاستيلاء واقامة المؤسسات والاجهزة العسكرية وانشاء المجتمع العسكري في اسرائيل كلها ، هي نزعة اصيلة ذات جذور تاريخية قديمة . فلقد كتب حاييم ليبرمان في صحيفة « جويش دايلي فور وورد » عن الجيش الاسرائيلي ما يلي :

« ان جيش اسرائيل يختلف عن سائر الجيوش في العالم ، في النسب والتقليد العريق والروح والعظمة والمفاخرة. أي جندي في العالم يمكنه أن يضاهي جندي دولة اسرائيل ؟ ما من أحد . ان جيش اسرائيل فتي، ولكنه في الوقت

نفسه اقدم جميع الجيوش . فالجيش الاسرائيلي لايبدأ تاريخه مع تأسيس الدولة، انه يعود الى زمن سحيق في القدم . من تعتقد انه كان اول قائد للمحاربين اليهود؟ حاخامنا موسى ؟ أم علينا أن نبدأ من أبينا ابراهيم ؟

« الأب ابراهيم وحاخامنا موسى ، يشوع بن نون وديبورا النبية ، الملك داود ، المكابيون ، باركوحبا — هؤلاء كانوا القادة اليهود ، من الذي لا يعرف اسماءهم ؟ حتى اولاد الأجانب في مهدهم يعرفونهم . كان هناك قادة حرب شهيرون بين الاجانب . والتاريخ يحفل بسجلات اعمالهم . اعمالنا مسجلة في التوراة . قادتهم اصحاب شهرة . قادتنا تم تكريسهم . كلما كانت التوراة مقدسة كان محاربونا مكرسين . والانتماء الى جيش كهذا هو امتياز مقدس ، و كتابة عن فعل ديني بأعمق معنى روحي . فهناك وصية الهية وضعت في التوراة الى أبد الآبدين تقول : (لأن الرب ، الهكم ، سائر معكم لكي يحارب عنكم اعدائكم ليخلصكم ، لتكن حربكم مقدسة) ، الى آخر ما هنالك . هذه هي التوراة الجديدة التي تخرج اليوم من صهيون » .

هكذا نجد ان عنصر العنف والقوة يمثل جزءاً لا يتجزأ من الحركة الصهيونية . ولذلك كانت اقامة الدولة عن طريق الحرب مسألة جوهرية وليست عرضية في الحركة . واذا كانت دولة اسرائيل على الدوام في حالة حرب ، فان ذلك يرجع الى كون اسرائيل بالواقع دولة حرب . ان المفهوم المتطور للمستوطن الجندي ، يمثل كنه عملية الاستعمار الصهيوني بأجمعها . بينما لا تعدو سياسة تجمع المنفيين كونها دعوة لتكثير وحدات المستوطنين — الجنود ومضاعفة عددها . وقد خاطب ليفي اشكول ، رئيس الوزراء السابق اعضاء المجلس الصهيوني العام المنعقد في القدس في آذار ١٩٦٨ ، بالكلمات التالية :

« ينبغي علينا منذ الآن ان نرسم الخطط المليونين الرابع والخامس . من اين ومتى يأتون ، وماذا سيكون مصير الشعب اليهودي في المنفى ؟ ولكي تتمكن اسرائيل من الاستمرار في تأدية رسالتها يجب أن يكون هناك توسع دائم في سكانها . غير ان المسألة ليست مجرد ايجاد ثلاثة ملايين او حتى خمسة ملايين يهودي في الدولة . مهمتنا لا تنتهي عند هذا الحد ، وهـــذه ليست نهاية الرؤيا الصهيونية . ان رسالتنا التاريخية تتحقق بالوجود والقوة » .

هكذا تغدو مسألة تحقيق « الرسالة الصهيونية وتأبيدها مقرونة ومشروطة بالعنف والقوة . أي بالاستعمار الاستيطاني والقوة العسكرية .

الأمبريالية

أشكالها ومداها

أديب اللجمي

لكلمة « أمبريالية » ماض نظري كامل . وكانت مدار مناقشات واختلافات بين لينين ، وكوتسكي ، وبرنشتاين ، وروزا لوكسبورغ . ثم قامت بعد ذلك حربان عالميتان ، وثورة اشتراكية شيوعية سنة ١٩١٧ ، وتحقق التحرر من الاستعمار ، وانطلق عملاق كبير اسمه الولايات المتحدة الأمريكية ، لتفرض نفسها دولة أمبريالية عظمى . وظهرت في الوقت نفسه دولتان اشتراكيتان عظيمتان ، واحتدم الصراع بين الكتلتين العالميتين إيديولوجياً ، وسياسياً ، واقتصادياً . وما تزال كلمة « أمبريالية » تتمتع بمزيد من الاستعمال ، والتداول .

وقد عقدت مجلة « الفكر Esprit » الفرنسية ندوة خاصة لمعالجة هذا الموضوع الكبير ، اشترك فيها عدد من كبار الكتاب والمفكرين الاقتصاديين والاجتماعيين الفرنسيين ، نقدم عنها خلاصة وافية دون أن نعتبر أنفسنا ملتزمين بكل ما جاء فيها من آراء ؛ انما نحن نقدمها للقارىء العربي لتكون مساعداً له على توضيح هذا المفهوم الكبير :

١ – ماتعريف الأمبريالية ؟
وبتعبير أدق ، ماذا نستبقي من تعريف لينين لها ؟

سيرج هورتيغ S. Hurtig – تتضمن كلمة « أمبريالية » إدانة تقوم على معايير أخلاقية ؛ وهذا يجعل استعمالها في نطاق علمي ضيقاً . وقد درجنا على أن نستعملها ، دون أن نحدد معناها مسبقاً ، على كل سياسة نستهجنها ، دون أن نتساءل عن تطبيقها المحتمل على السياسة التي نتبعها ، أو على السياسة المفروضة علينا . من هذه الزاوية يمكن القول ان كلمة « امبريالية » هي تعبير لابديل له ، ومن غير المحتمل أن يخف استعماله في مستقبل قريب .

ان تعريف لينين للأمبريالية بأنها سوء استهلاك ، وبحث عن منافذ ، هو من الناحية التاريخية قديم ، وقد أبانت كثير من الدراسات الحديثة عدم دقته . فليست الحاجة الى تسويق الانتاج الفائض هي التي حملت عدداً من الدول على انشاء امبراطوريات استعمارية لها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولم تكن مصالح الصناعيين أو التجار هي الحرص دوماً على التوسع ، فقد كانت أسباب هذا ودوافعه أعقد بكثير مما كان لينين يظن ".(١)

إن "مانعنيه في أغلب الأحيان بكلمة « أمبريالية » انما هو سلسلة (أو مذهب من التوسع الاقليمي أو الاقتصادي أو الثقافي ، ينجم عنه سيطرة سياسية أو اقتصادية . بهذا المعنى يصح" قول هانس والدر(٢) ان الأمبريالية تنصهر في نظرية عامة للعلاقات الدولية ، من أهم أغراضها الأساسية التفاوت بين الدول .

وأياً كان التعريف المقبول ، فينبغي أن يكون ممكناً تطبيقه على جميع

---

(١) راجع بهذا الخصوص كتاب فريمون : لينين والامبريالية
J. Freymond - Lénin et l'impérialisme - Lausanne , payot 1951

(٢) هانس دالدر : الامبريالية . «Hans Daalder «Imperialism», International Encyclopedia of the Social Sciences , 1958 .

الدول ، دون تمييز في نظامها السياسي أو الإقتصادي أو الاجتماعي . وقد قال لينين نفسه إن للأمبريالية تاريخاً سابقاً على تاريخ الرأسمالية ، فالتوسع ، والتسلط ، هما من الظاهرات الشائعة في العلاقات الدولية بحيث لايجوز لنا أن نفكر بأنهما قصر على بلد أو على معسكر بعينه .

لابيير J W Lapierre : إنني أعرّف الامبريالية بأنها محاولة سياسية من جانب مجتمع ما – مهما يكن شكله التاريخي : قبيلة ، إمارة ، إقطاعاً ، أمة ، اتحاداً ، قوميات متعددة – يفرض بها على مجتمعات أخرى علاقات ذات طابع « تسلط – خضوع » ، وينزع الى ابقائها أو توسيعها . ان الخضوع هو تسليم بالاكراه دون القبول به ، وبغض النظر عن الوسائل والأساليب المتبعة . والتسلط هو ممارسة الاكراه ، أو بتعبير آخر ، هو أن نحمل الآخرين على أن يفعلوا شيئاً بدون موافقتهم ، وعن طريق القدرة التي نتمتع بها بتقديم بعض الفوائد لهم ، أو بايذائهم ، أو عن طريق استعمال العنف ، أو بمجرد التهديد .

ان فتوحات الاسكندر الكبير أو جنكيز خان ، وتوسع الامبراطورية الرومانية ، وتكون الامبراطورية الفرنسية أو البريطانية ، وسيطرة الاتحاد السوفييتي على أوروبا الشرقية ، وسيطرة الولايات المتحدة على أمريكا اللاتينية ، هي أمثلة تاريخية عن الامبريالية . وتدخل الصين عسكرياً في التيبت ، وتدخل الاتحاد السوفييتي عسكرياً في تشكوسلوفاكيا وهنغاريا ، هي أعمال امبريالية .

ربما كان هذا التعريف عادياً عاماً ، أليس كذلك ؟ إلا أنه صحيح . أعني أنه ينطبق دون التباس على مجموعة من الحوادث الدقيقة الفعلية ، يمكن مقارنتها ببعضها تمهيداً لتفسيرها .

ليست جميع الأمبرياليات واحدة ، ولا يمكن تفسيرها كلها بطريقة واحدة . فلكل منها إطارها التاريخي ، والجو المشخص الذي ظهرت فيه ونمت – ويمكن أن نجد علاقة بين نماذج مختلفة من الامبريالية وبين نماذج مختلفة من الأنظمة

السياسية أو الاقتصادية . ثم ان التبرير الايديولوجي للأمبريالية يختلف حسب الأحوال : تمدين الهمجيين ، أو حمل الايمان للكافرين ، أو نشر السلام الروماني ، أو الدفاع عن الديمقراطية ، أو حماية الحرية ، أو الدفاع عن الاشتراكية ، أو تقوية ديكتاتورية البروليتاريا . ومن النادر ألا تظفر الامبريالية بتأييد فئة أو أكثر من فئات الشعب ، أو تأييد الأقليات فيه . ان مقارنة الامبرياليات ببعضها لاتعني توحيدها ، كما أن تفسير الامبرياليات يعني ابراز مابينها من اختلافات ووجوه شبه .

هنا تصحّ ملاحظة لينين : « ان السياسة الاستعمارية والامبريالية قد وُجدتا قبل مرحلة الرأسمالية المعاصرة ، بل قبل الرأسمالية ، فروما التي كانت تقوم على الاستعباد ، مارست سياسة استعمارية ، وبالتالي امبريالية ، غير الأفكار (العامة) عن الأمبريالية ، إذ تستبعد أو تضع في المقام الثاني الاختلافات الأساسية للتكوينات الاقتصادية والاجتماعية ، تنحدر قطعاً الى تفاهات جوفاء أو الى سخافات ، كالمقارنة بين (روما الكبرى) وبين (بريطانيا العظمى)[1] » . وفي ضوء تجربة تاريخية لم يعشها لينين ، يمكن القول ايضاً أن الأمبريالية قد تحدث « حتى بعد الرأسمالية » أي في العلاقات بين بلاد ذات نظام اشتراكي ، مع وجود فوارق في الشكل والمضمون ، وبسبب الاختلافات الأساسية بين الرأسمالية والاشتراكية . غير أن القضية هنا تظل قضية امبريالية ، ان التفكير « الضيق » مساوىء تتجلى في استبعاده أو في وضعه بالمقام الثاني بعض وجوه الشبه التي قد لاتكون اساسية كما هي الحال في الاختلافات .

لقد حلل لينين بعمق وصرامة ، تحليلاً علمياً امبريالية الدول الرأسمالية الأوروبية في مطلع القرن العشرين ، وأوضح بجلاء العلاقة البينة بين التمركز الرأسمالي

---

(١) لينين – الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية – الفصل الخامس .

وهو ينزع الى تكوين الاحتكارات ، وبين الاستعمار ، وأبان أن تصدير رؤوس الأموال، فيهذا الشكل التاريخي للأمبريالية ، أهم من تصدير السلع : فغزو الأسواق أو البحث عن منافذ ، أقل اهمية من التوظيف والاستثمارات التي تتيح ارباحها المرتفعة للطغمة المالية في المجتمع المسيطر ان تحصل على ارباح كبيرة على حساب المجتمع المستغل ، يقول جيلبر بلاردون Gilbert Blardone في مقال حديث له « ان رؤوس الأموال الأمريكية الموظفة في آسيا قد سجلت ارباحاً صافية في سنة ١٩٦٥ تعادل ٥٨٫٥ ٪ من مجموعها ، وفي افريقيا بلغت هـذه الارباح ٣٧٫٤ ٪ وفي امريكا اللاتينية ٢١٫٩ ٪ » ، اما رؤوس الاموال الامريكية الموظفة في بلاد اوروبا الخارجية عن « المجموعة الاقتصادية الاوروبية C. E. E. » ، فرغم كون نسبة ارباحها اقل ارتفاعاً إذ تبلغ ١٥٫٢ إلا انها اكثر ضمانة ، ولاحظ لينين ان الارباح التي تجنيها الامبريالية تعطي الطغمة المالية إمكانية اقتصادية لتحسين حال الطبقة العاملة ، وتخفيف حدة صراع الطبقات ، وإضعاف التيار الثوري للحركة العمالية في الدول الرأسمالية ، ومع ذلك فان معتقداته النظرية جعلته يقلل من شأن هذه الوقائع ، فقد قال إن « تفسخ » البروليتاريا لايمكن ان يبلغ سوى « الفئات العليا » أو « بعض فئات العمال » وبصورة مؤقتة اقلية عمالية غير ذات اهمية [1] » .

ثمة رأي آخر للينين ما زال صحيحاً : « ان ما هو أساسي بالنسبة للأمبريالية ، إنما هو التنافس بين عدة دول تنزع الى التوسع ، أعني الى احتلال أراض ، لا بقصد التوسع لذاته ، بل بقصد إضعاف الخصم وإحباط توسعه . »[2] ان الوجود الأمريكي في فيتنام يرتد الى شيء من هذا القبيل . إلا أن ثمة إضافة هامة ينبغي ذكرها : ان التنافس من أجل التوسع قد تجلى اليوم لا بين عدة دول رأسمالية

---

(١) المرجع السابق — الفصل ٨ والفصل ١٠

(٢) المرجع السابق — الفصل ٧

كبيرة ، بل بين دولتين عظيمتين ، إحداهما رأسمالية ، والثانية اشتراكية ، بينما الدولة الثالثة – الصين الشعبية – ما زالت في طور التكون .

وثمة وقائع عديدة ملاحظة في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا أيضاً ، تؤكد فكرة لينين التالية : « ان رأس المال النقدي هو قوة بالغة حد من النفوذ والبت في جميع العلاقات الاقتصادية والدولية ، أن صح التعبير ، بحيث أنه قادر على أن يخضع لسلطانه – بل هو يخضع فعلاً لسلطانه – دولاً تتمتع بكامل الاستقلال السياسي [١] » .

ومع ذلك فان تحليل لينين ليس محدوداً بحدود التجربة التاريخية التي يستند إليها وحسب (فنحن لم نعد في سنة ١٩١٦) ، بل انه مخطىء ايديولوجياً في توقعه حدوث أزمة عامة للرأسمالية ، وقرب انهيارها كلياً . فالامبريالية ، بوصفها أعلى مراحل الرأسمالية ، هي رأسمالية في حالة « النزع » و « التفسخ » . والنزاع بين الدول الرأسمالية من أجل اقتسام العالم لا يمكن إلا أن يزداد ضراوة حتى تفني هذه الدول بعضها بعضاً نهائياً . كتب لينين ذلك سنة ١٩١٦ ، وبدت له الحرب العالمية الأولى كبداية لنهاية الامبريالية . حقاً أنه يعترف في الصفحات الأخيرة أن غطاء الرأسمالية ، وإن لم يعد مطابقاً لمحتواها بسبب اتجاه الانتاج في طريق اجتماعية اشتراكية (نتيجة للتمركز) ، يمكن « أن يظل في جمود زمناً طويلاً » (وذلك حين يستمر شفاء القرحة الانتهازية زمناً طويلاً ، في أسوأ الأحوال) . إلا أنه يؤكد « أن هذا الغطاء مع ذلك سيزال بالضرورة » . ان لينين لا يرى في التاريخ سوى حتمية الضرورة ، أما فكرة تعدد الممكنات المحتملة الحدوث ولو بنسب متفاوتة ، فغريبة عنه . وهو يرى أن النزعة الاصلاحية أو في الحركة العمالية أو النزعة الانتهازية (وهي صفة مبتذلة تتضمن حكماً أخلاقياً لا حكماً علمياً) ليست سوى قرحة تنبغي معالجتها ، لا اتجاهاً قد ينمو

---

(١) المرجع السابق – الفصل ٦

وبتطور خلال زمن طويل في البلاد الرأسمالية المتقدمة (١). انه لم يتصور أن يبدأ انطلاق عملية التحرر من الاستعمار قبل التخلص النهائي من الرأسمالية ، كما أنه لم يفكر باحتمال قيام نزاع بين الدول الاشتراكية نتيجـــة محاولة بعضها فرض سلطانهـــا على الأخرى ، ان النزاع بين الاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا ، وتدخل الاتحاد السوفييتي في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا ، ونزاع الصين الشعبية مع الاتحاد السوفييتي ، لا مكان لها في النظرية اللينينية عن الامبريالية .

ورغم أن لينين قد أشار ، من بـــين الخصائص الخمس للأمبريالية ، الى « تكوّن اتحادات دولية رأسمالية احتكارية ، تقتسم العالم فيما بينها » ، فهو لم يتوصل الى التفكير في إمكانات تطور للرأسماليـة تختلف عن « النضال المتزايد الضراوة » بين « مجموعات الماليين الوطنيين » من أجل اقتسام العالم والتسلط على سائر البلاد الأخرى » . ان التنافس بين عدة أمبرياليات (رأسمالية بالطبع) كان يبدو له استثناءً تاريخياً خاصاً بالامبريالية الحديثة . وقد تبنى توقعات المفكر

(١) المرجع السابق - الفصل ١٠ - يرى لينين أنه من المستحيل على الرأسمالية ، وذلك بحكم ماهيتها ، أن تخصص جزءاً من زيادة رؤوس الأموال المتراكمة ، في سبيل رفع مستوى حياة « الجماهير » . ويقول : « ما دامت الرأسمالية هي الرأسمالية ، فان فائض رؤوس الأموال ، يخصص لا لرفع مستوى حياة الجماهير في بلد معين ـ لأن نتيجة ذلك ستكون انخفاضاً في الأرباح الرأسمالية ـ بل لزيادة هذه الأرباح عن طريق تصدير الرساميل الى الخارج ، الى البلاد المتأخرة » . فاما أن الرأسمالية لم تعد رأسمالية ، أو أنه أغراق في التبسيط ، إذ لا ريب في أن مستوى حياة الجماهير قد ارتفع بشكل محسوس منـــذ ١٩١٦ ، في البلاد الرأسمالية ، « ويعود السبب الأكبر في ذلك الى ضغط المنظمات « الانتهازية » للحركة العمالية ، بل ان مستوى حياة العمال ، حين تتم المقارنة على أعمال متشابهة أو مماثلة ، هو في البلاد الرأسمالية المتقدمة أكثر ارتفاعاً مما هو في البلاد الاشتراكية المتقدمة . وحين زار أعضاء وفد من الصين الشعبية إحدى مصافي البترول في فرنسا سنة ١٩٦٨ ، لم يصدقوا أن تكون السيارات العديدة الموجودة خارج المصفاة هي سيارات خاصة للعمال أنفسهم ، وظنوا ذلك نوعاً من « الاخراج المسرحي » بقصد تضليل أفراد البعثة عن حقيقة مستوى حياة العمال الفرنسيين .

الانكليزي هوبسون Hobson ، ومفادها أن الوحدة الاقتصادية لبلاد أوروبا الغربية ستكون نتيجتها الحتمية زوال تصنيع هذه البلاد : إذ تختفي فروع الصناعة الأساسية ، وينتقل الانتاج الضخم المنتجات الزراعية والصناعية الى أفريقيا وآسيا ، ولا يبقى في أوروبا سوى أرباب المال « وكتل كبيرة من المستخدمين والخدم » . ثم إن لينين يسخر من تحليل كوتسكي Kautsky الذي كان يتصور إمكانية تطور الرأسمالية في اتجاه امبريالية متفوقة على سائر الامبرياليات الأخرى . وقرر لينين أيديولوجياً أن قيام نوع من توازن القوى وبقاءه زمناً طويلا بين الدول الأمبريالية ، أمر غير ممكن إطلاقاً . فهذه الدول لا تستطيع أن تقيم فيما بينها سوى تحالفات قصيرة الأجل ، هي بالضبط « أنواع من الهدنة تتخلل الحروب[1] » .

ان الضرورة اللينينية تحظر تصور احتمال ، بدأ فعلا بالظهور إثر الحرب العالمية الثانية : أعني انتهاء الحروب بين الدول ذات النظام الرأسمالي ، واتحاد هذه الدول (اتحاداً دائماً رغم بعض الخلافات والصدامات فيما بينها) تحت سلطة الامبريالية المتفوقة لدولة عظمى . وفي سنة ١٩٤٧ وبسبب قيام تحالف مستمر بين عدة دول اشتراكية تحت سلطة دولة منها (رغم حدوث بعض الصدامات فيما بينها) دخلنا في المرحلة التاريخية للامبريالية المتفوقة التي تنبأ كوتسكي باحتمال حدوثها . ولئن كنا نخشى قيام حرب عالمية ثالثة ، فلن تكون هذه الحرب بين دول رأسمالية من أجل اعادة اقتسام العالم ، بل حرباً بين مجموعة الدول ذات النظام الرأسمالي ومجموعة الدول ذات النظام الاشتراكي ، كل مجموعة تسيطر عليها دولة عظمى صناعية ، وذلك في سبيل اعادة النظر في تقسيم العالم الذي تمّ بين المنتصرين في الحرب العالمية الثانية . ان النزاع والصدام والتوتر والصراع في داخل « المعسكر الاشتراكي » ، ليست أقل حدة مما هي داخل « المعسكر الرأسمالي » . فالخلاف بين الصين والاتحاد السوفييتي أخطر وأعمق وأكثر أهميـــة على الصعيد

---

(١) المرجع السابق - الفصول ٧ - ٨ - ٩

العالمي من الخلاف والخصومة بين فرنسا الديغولية والولايات المتحدة . وفي الحروب التي تستنزف الآن دماء الشعوب في بعض مناطق الأرض ، ليست المصالح الرأسمالية هي التي تتصادم مع بعضها (باستثناء الحرب في بيافرا) ،بل التنافس على السيطرة على العالم من قبل الدولة العظمى الرأسمالية والدولة العظمى الاشتراكية .

بيير هاسنر Pierre Hassner : أعتقد أن كل تعريف ينزع الى أن يكون شاملاً ووحيداً ، يفترض أن تكون ظاهرة الامبريالية ذاتها متمتعة بهذه الخصائص ، وذلك بالضبط هو موضوع نقاشنا . أعتقد أنه ينبغي أن نميز بين أوضاع ، وحالات ، ووظائف ، وأعمال أمبريالية ، بين أمبرياليات اقتصادية ، وسياسية ، وايديولوجية ، واعية وغير واعية ، كونية أو خاصة ، تلبي حركة داخلية ، أو تدريباً خارجياً ، حسب كل حالة بالذات ، وأن ندرس بعد ذلك كيف تتداخل هذه العناصر مع بعضها في منظومة متماسكة أو في مركب تاريخي أصيل . ان البدء بالتعريف بدلاً من استعراض السمات يؤدي إجمالاً الى الوقوع في حلقة مفرغة ، أو في تفضيل ظاهرة أو عامل وحيد ، أو الى هذين الخطأين ، وذلك بإعطاء الكلمات العامة معنى يفترض أولوية عامل معين .

وكمثال على المحذور الأول ، يمكن أن نقدم التعريف التالي للامبريالية : انها حرص على السيطرة . وكمثال على المحذور الثاني،التعريف اللينيني الذي يستند الى مجموعة ظروف تاريخية واقتصادية هي من الدقة بحيث لايمكن تطبيقها إلا تعسفاً على ظروف أخرى . وكمثال على المحذور الثالث ، التوحيد الشائع بين فكرتي الامبريالية والاستغلال . وهناك واحد من التعاريف المتداولة ، ، لايخلو من شيء من المحاذير التي أشرت اليها ، إلا أنه يمتع في تقديري بخاصة الجمع بين العمومية والدقة ، هو تعريف شومبيتر : « الامبريالية استعداد لاغرض واضحاً له ،لدى دولة ما ، للتوسع غير المحدود . » أو هي : « بحث عن

القوة التي تعتبر نفسها غاية بذاتها . » لاشك أن فكرة التوسع عن طريق القوة هي فكرة ضيقة وقليلة الجـــدوى فيما لو قصرناها على التوسع الاقليمي بالقوة العسكرية . بيد أن شومبيتر قد وضع يده ، فيما يبدو لي ، على الظاهرة الأساسية التي ينبغي تفسيرها حتى اذا لم نقبل بالتفسير الذي يقدمه : انهـــا فكرة وجود ديناميكية في الامبريالية لاترتد الى مجرد حساب الأرباح الاقتصادية أو السياسية . بهذا المعنى فان التعريف الذي أقدمه ، في صيغة مشكلة لا في صيغة جواب ، يستند الى فكرة أن نطبق على الامبريالية ما قاله باسكال عن الطغيان : « ان الطغيان يتجلى بالرغبة في السيطرة الكونية ، وخارج نطاق حدودها . والطغيان هو أن نحصل على شيء بطريق ما ، لم نحصل عليـــه بطريق آخر . » (كتاب الأفكار) . ان هذه الفكرة المزدوجة للرغبة في السيطرة التي لا تقف عند حد ، بل تتجلى بالضبط بالانتقال التعسفي من مجال الى آخر ، بالاستيلاء على نفوذ سياسي لا حد له عن طريق الضغط الاقتصادي ، وعلى المكاسب الاقتصادية عن طريق القوة العسكرية ، أو على الولاء المعنوي عن طريق قوة البوليس ، ان هـــذه الفكرة تشير في رأيي الى الاتجاهات التي ينبغي أن نبحث فيها (في طبيعة هذه الحركة وأصولها ، في العلاقات بين المجالات المختلفة ، أو الأحوال المختلفة) ما اذا كانت هذه الحركة وتلك العلاقات ، في مستوى التعريف ، هي بالضرورة ذات اتجاه وحيد ، وما اذا كان هذا الاتجاه معروفاً دوماً منا .

ومن المفيد في رأيي أن نبدأ بيبان العلاقة قبل بيان الجوهر ، ببيان الوضع الذي توجد فيه دولتان أو عدة دول في علاقاتها ببعض ، قبل بيان طبيعة أو نوايا إحدى هذه الدول . ان وضع الخضوع السريع ، أو وضع التحدي العنيف الذي تتخذه الدولة الضعيفة ، هو الذي يفسر الانتقال من التفاوت الى السيطرة أو الى الاكراه . لذا فان المهمة الأولى تتبدى لي في وجوب الاستعانة بمعايير دقيقة التعريف أوضاع التفاوت (العسكري ، السياسي ، الاقتصادي ، الخ ..)

والتبعية (الاقتصادية بصورة خاصة) والاستغلال ، كي نرى الى أي حد ، في أية أحوال يمكن أن تجر احدى هذه العلاقات الاخرى . وثمة مفهومان يبدوان لي مفيدين للحكم على هذا الانتقال : ١ - مفهوم نتيجة التسلط ، وهو مفهوم قال به فرانسوا بيرو F. Perroux المعروف بتحليله القيّم للعلاقات بين الاقتصاد المسيطر والاقتصاد المسيطَر عليه ، بين المؤسسة الكبرى والدولة الصغيرة . ٢ - مفهوم النظام السياسي الدخيـــل ، وقد قال به الكاتب الأمريكي روزناو J. Rosenau ويَعني به الوضع الذي فيه « يقوم أفراد ليسوا أعضاء في شركة وطنية بالمشاركة مباشرة وبسلطة كافية عن طريق الأسهم التي يضمونها الى أسهم أعضاء الشركة ، في توزيع قيم هذه الأسهم ، أو في تعبئة الدعم لهذه الشركة في الاتجاه الذين يرغبون به » . ان الأمثلة على ذلك كثيرة ، من سايغون الى براغ ، ومن أمريكا اللاتينية الى أفريقيا السوداء . ويرى روزناو أن النظام السياسي والاجتماعي يمكن ادخاله في مجال (كما في الدفاع أو الاقتصاد) ولا يمكن ذلك في مجال آخر ، أو يمكن أن يتداخــل مع وحدات عديدة أخرى من طبيعته أو من مستواه (عملية الدمج) ، أو يمكن ادخاله من جانب واحد عن طريق قوة متفوقة (كما في الوضع الامبريالي أو الاستعماري) . ان هذا يطرح مشكلة وحدة أو تعدد مراكز التقرير ، وهي مشكلة أساسية لتغير الامبريالية ، على أن هذا يؤدي بنا خاصة الى معايير طبيعة التبعيات المتبادلة أو المتفاوتة ، الى معايير طبيعـــة الاشراف المباشر أو غير المباشر ، الكلي أو الجزئي ، والى معايير طبيعة تراكم التفاوت ، وتلك طريقة أخرى للتقدم نحو تعريف للامبريالية على الأقل .

ان تعريف لينين ، في المستوى الذي وُضع فيه هذا التعريف ، من حيث هو نظرية عامة تحاول تفسير ظاهرة كلية ، لايمكن الدفاع عنه . على أنه تعريف قيّم ، في مستوى أقل عمومية ، بصفته تفسيراً جزئياً لبعض الظاهرات التاريخية ، وفي مستوى غامضاً واكثر عموميـــة ، إذ يصبح ادراكا لظاهرة لانظرية لها ، ادراكا للتفاوت في النمو ، ولأهمية هذا التفاوت في ديناميكية العلاقات الدولية .

ويبدو لي أن لينين قد اكد بصورة أساسية على ثلاث علاقات ضرورية:
١) العلاقة بين الرخاء الذي يتيح للرأسمالية في مرحلتها الاحتكارية ، أن تمخض ضد الثورة وذلك بأن تمنح اجوراً عالية « للارستقراطية العمالية » وبين تصدير رؤوس الأموال ٢) العلاقة بين تصدير رؤوس الأموال واقتسام العالم عن طريق الاستعمار ، في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .
٣) العلاقة بين هذا الاستعمار أو اقتسام العالم وبين حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ .

والواقع ان هذه العلاقات ، حتى بالنسبة للفترة المعنية ، تبدو لنا غير صحيحة تماماً .

١) فمنذ تلك الفترة كانت أجور العمال الأمريكيين أو السويديين مساوية لأجور العمال الانكليز او الفرنسيين ، رغم ان الولايات المتحدة كانت مستوردة لرؤوس الأموال وأن السويد لم تكن لها مستعمرات . منذ ذلك الحين ، وذلك أولاً عن طريق الاستثمارات والاستهلاك الداخلي ، وعن طريق تطبيق التقنية على الزراعة ، وبواسطة طريقة فورد وسوق القارة الأمريكية الواسعة ، ظهر الرخاء الأمريكي ، وكان ذلك إمكانية فكّر بها لينين كي يتخلى عنها ، إذ أعطى بنفسه المعيار ومفاده ان التطور التاريخي قد دحض نظريته . « إذا استطاعت الرأسمالية أن تنمي الزراعة التي تعتبر اليوم متأخرة في جميع المجالات عن الصناعة ، واذا استطاعت الرأسمالية أن ترفع مستوى حياة جماهير الشعب التي هي مكرهة ، بالرغم من التقدم التقني المذهل ، على ان تعيش عيشة الكفاف وأن تقتات بشظف ، فلن تكون ثمة مشكلة فائض لرؤوس الأموال . آنـذاك لا تعود الرأسمالية رأسمالية ، لأن التفاوت في نموها ، ووضع الجماهير الجائعة ، هما الشرط والمقدمة الأساسيان الضروريان لهذا النمط من الانتاج ، إن ضرورة تصدير رؤوس الأموال ترتد الى النضج المفرط للرأسمالية في بعض البلاد التي لا يعود فيها توظيف الرساميل رابحاً (إذ أن الزراعة تكون متأخرة ، والجماهير بائسة) .

٢) ولو أن الدول الصناعية الأوروبية العظمى ، في تلك الفترة المعينة ، صدّرت رؤوس أموالها وحققت فتوحات استعمارية ، فان الظاهرة الثانية لا يمكن تفسيرها بأنها نتيجة للظاهرة الأولى . فقد حدث العكس ، اذ ان هذه الدول لم توظف من رؤوس أموالها الا القليل في البلاد التي استعمرتها ، أما الكثير من رؤوس الأموال تلك فقد اتجهت الى البلاد التي لم تكن محتلة عسكرياً ولا خاضعة سياسياً ، ان أموال المدّخرين الفرنسيين كانت تذهب الى روسيا آنذاك ، لا إلى أفريقيا .

٣) ما زال المؤرخون يتناقشون في منشأ الحرب العالمية الأولى ، وفي مسؤوليات كل من غليوم الثاني وبوانكاريه . وفي هذه المناقشة لا تحتل فكرة لينين (ومفادها أن الحرب أضحت ضرورة لابدّ منها بسبب انتهاء اقتسام العالم) أي مكان بارز . ويبدو بدهياً أن تطور الحرب ونتائجها ، اذا كانت مرتبطة بجوهر الاقتصاد الحديث ، فان لوقوعها أسباباً ديبلوماسية كلاسيكية ، تدخل في نطاق التحالفات الأوروبية ، وأسباباً تاريخية أكثر عمقاً تعود الى أزمة الأمبراطوريات الثلاث : النمساوية الهنغارية ، التركية ، القيصرية ، تحت ضغط الحركات الوطنية والاجتماعية . وعلى أية حال ، حتى لو كان تفسير لينين صحيحاً فيما يخص الحرب العالمية الأولى ، فهو لم يعد صحيحاً بالنسبة للحروب التي تلت (الحرب العالمية الثانية ، حرب كوريا ، حرب فيتنام الخ ..) ، ولم يكن صحيحاً بالنسبة للحروب السابقة ، سواء حروب بسمارك أو نابليون .

وبالمقابل ليس هناك من يشك في أن أكثر السلوك الاستعماري او سلوك التسلط السياسي قد خضع لدوافع اقتصادية . وقد لاحظ لينين ، وكثيرون من النظريين الماركسيين في عصره ، بحق الزيادة الكبيرة في تصدير رؤوس الأموال بالقياس الى تصدير السلع ، وهي ظاهرة نجدها اليوم جلية . كما أكد لينين على التفاوت في النمو بين الدول الرأسمالية ، وعلى أن صراع الطبقات ، أو التعارض

بين الغنى والفقر ، يحـــدث اليوم بين الدول الصناعية والزراعية او بين الغرب والشرق أكثر مما يحدث في داخل الدولة الواحدة ، وبذلك وضع يده على احدى الظاهرات الأساسية لعصرنا ولعشرات من السنين المقبلة .

وإذ أن لينين قد حرك على المستوى الدولي مفاهيم الماركسية، فقدأعطى الامبريالية طابعها الجوهري : إتاحتها للافقار (الأغنياء يزدادون غنى ، والفقراء يزدادون فقراً) والاستغلال : إن غنى الأغنياء يعتمد على (أو يشترط) فقر الفقراء . على أنه ينبغي ألا نخلط بين معطى واقعي وتفسير ، بين مشكلة وجواب ، بين تعريف ونظرية : ان غنى البلاد الصناعية وفقر البلاد المتخلفة هما واقع ، ثم أن نزوع إحداهما أو كلتيهما الى الازدياد ، أو على الأقل الى زيادة الفوارق بينهما، أمر لاشك فيه بالنسبة لبعض الفترات ، إلا أن حتمية هذا الواقع وعدم إمكان تبدله لا يقوم عليها برهان .

سلسو فورتادو Celso Furtado : ان المفهوم اللينيني للأمبريالية كان يعتمد على المذهب المعترف به اجمالاً في القرن التاسع عشر ، وهو تناقص نسبة الأرباح للاقتصاد الرأسمالي في المدى البعيد . وكان ثمة محاولة لتجنب هذا التناقص بتصدير رؤوس الأموال أو بافتتاح أسواق جديدة . فالقضية إذن تتعلق بفرضية تفسر توسع الاقتصاد الرأسمالي في اتجاه الخارج . وهـذا ما يسمى باللغة الحديثة نظرية الامبريالية الرأسمالية . ولهذه النظرية قيمة تفسيرية محدودة فهي لاتستطيع أن تفسر التوسع القيصري في آسيا ، ولا نشوء الامبراطورية الفرنسية في القرن الماضي . ان كلمة امبريالية غامضة جداً . فهي تدعي الإحاطة بجميع أشكال السيطرة الخارجية تقوم بها جماعة معينة . ولكنّ هذه السيطرة يمكن فرضها بواسطة الدولة أو الفرق الاجتماعية (الاقتصادية أو سواها) التي تمارس شكلاً من أشكال السلطة . ففي بعض الشروط الخاصة ، نلاحظ أن جميع العلاقات تقريباً بين الدولتين أو بين الجماعات الاقتصادية لأمّتين ، تتخذ طابع سيطرة مقنّعة الى

حد ما . ذلك ما يحدث بين الدول والجماعات الاقتصادية (والثقافية أيضاً) للأمم الكبرى الصناعية الحديثة ،وبين الأمم المفككة الى حد ما ، والتي تشكل العالم الثالث .

بيير جاليه P. Jalée : ثمة نقطة هامة جداً ينبغي التذكير بها أولاً ، وهي أن لينين يلح خاصة على الفكرة القائلة إن اشكال الصراع (وسائر الأشكال الأخرى) « يمكن أن تتبدل ، بل هي تتبدل بصورة مستمرة لأسباب عديدة » بينما جوهر الصراع ، ومحتواه الطبقي ، « لا يمكن فعلاً ان يتبدل ، مادامت الطبقات موجودة » (آخر الفصل الخامس من كتاب لينين) . ونتيجة لذلك ، مفهوم لينين ، إن التعريف الذي يقدمه عن الامبريالية ، هو تعريف قابل للتنقيح بقدر ما يُدخل في حسابه الأشكال الخاصة بفترة تاريخية معينة : كالفترة الأولى السابقة عن الامبريالية .

ومن البدهي أن تعريف لينين (في مطلع الفصل السابع) يتضمن معاً مرتكزات أساسية وأشكالاً صورية ، ويمكن القول ، اجمالاً ، إن الصفتين الأوليين ، من بين الصفات الخمس التي يوردها ، تبدوان أساسيتين ، بينما الصفات الثلاث الأخرى هي ظرفية أو تاريخية .

وفي رأيي أن من العبث والخطر معاً الانغلاق في تعريف ، فقد ألح لينين نفسه ، قبل أن يصوغ تعريفه للامبريالية ، « على ما في جميع التعاريف بوجه عام من جانب اتفاقي ونسبي » . ثم انني أعلق أهمية كبيرة جداً لا على تعريف لينين للأمبريالية بل على تحليله لها ، وهو تحليل لا يمكن اختصاره دون أن نشوهه . والمهم هو أن نستغرق في التحليل اللينيني ، إذ أن هذا الاستغراق شرط أول لكل محاولة في تحليل الامبريالية الراهنة .

وإذن ، في ضوء الأجوبة التي نعطيها عن الأسئلة التالية يمكن أن نبدأ باستخلاص بعض العناصر ، في سبيل تقديم تعريف ، أو تحليل الامبريالية المعاصرة .

٢ ـ هل يمكن أن نطبق التعريف على دولة واحدة أو على عدة دول ؟ وبتعبير أدق ، هل نستعمل تعبير «الامبريالية الأمريكية» ؟ فاذا كان الجواب نعم ، فبأي معنى نستعمله ، واذا كان « لا » ، فلماذا ؟

بيير جاله : من تحليل لينين ، نستخلص ان الامبريالية مرحلة من مراحل الرأسمالية لا تقبل العودة الى الوراء ، وتظهر هذه المرحلة حين يبلغ تمركز الانتاج ورأس المال مستوى مرتفعاً جداً (الاحتكارات) وحين يؤدي دمج رأس المال الصناعي ورأس المال المصرفي بعضهما الى رأسمال نقدي ، والى هيمنة للطغمة المالية . ان هذه المرحلة لا يمكن بلوغها إلا في البلاد التي وصلت القوى الانتاجية فيها (وبخاصة الصناعة) الى مرتبة عالية جداً من النمو .

ان البلاد التي بلغت فيها الرأسمالية مرحلتها الامبريالية كلياً ، أعني البلاد التي تنطبق عليها المعايير المذكورة فيما سبق ، هي بحكم ذلك مسوقة الى أن تبحث اليوم ، كما فعلت بالأمس ، عن السيطرة على العالم الرأسمالي غير المصنع ، بوسائل وأشكال يمكن أن تتغير ، وقد تغيرت فعلاً ، تبعاً لتطور العالم ، فمنذ الحرب العالمية الثانية ، لاحظنا استعمال توزع العمل في العالم وفق منطق امبريالي ، ينزع الى جعل البلاد المحكومة في وضع المصدر للمنتجات الأولية ، والمشترين للمواد المصنوعة ، بينما البلاد الرأسمالية المصنعة تستخدم المواد الأولية للبلاد السابقة كي تزيد باستمرار من صناعتها ، وتصرف المزيد من انتاجها المصنوع في أسواق البلاد الأولى .

ان البلاد الرأسمالية المصنعة التي تفيد من هذا التقسيم الدولي للعمل ، والتي تتجه الى الابقاء عليه ، بل الى زيادته ، هي البلاد الامبريالية بالمعنى الموضوعي للكلمة ، وإن لم يكن لها مستعمرات . أما البلاد الأخرى ، فتشكل ما يسمى خطأ بـ « العالم الثالث » أو « البلاد المتخلفة » .

وفق هذا المفهوم تكون البلاد الامبريالية هي : الولايات المتحدة، كندا، اليابان ، وجميع البلاد الاوروبية غير الاشتراكية (يمكن اعتبار كل من البرتغال واليونان حالة حدية) . أما اسرائيل وجنوب أفريقيا فهما حالتان خاصتان ، ودراستهما تؤدي بي الى تصنيفهما في زمرة البلاد الامبريالية ، بل انهما من بعض النواحي في قمة البلاد الامبريالية . وبالمقابل فان استراليا ونيوزيلندا بالرغم من تطورهما الكبير ، ليستا بلاداً امبريالية لأنهما مـــا زالتا بلدين منتجين ومصدرين للمواد الأولية .

ان الدول الامبريالية تشكل معاً ما يمكن تسميته «المعسكر الامبريالي». هذا المعسكر يتدرج في تشكله ، إذ أن المنافسة الاحتكارية والتنازع بين الدول ما زالا قائمين ، وسيستمران ما دامت الرأسمالية موجودة ، بوصفها من مقوماتها إلا أن هذه المنافسة والتنازع ، قد سيطر عليها منذ ١٩٤٥ واقــع جديد : هو اندماج امبريالي عالمي ، أعطى الامبريالية المعاصرة سمات خاصة بها . ويمكن القول باختصار ان هذا الاندماج الامبريالي العالمي هو حصيلة عوامل منها آ - على الصعيد الاقتصادي ، تزايد تدويل الانتاج ، والمبادلات ، وحركات رؤوس الأموال ، ونزوع الاحتكارات الى التطويق العالمي . ب - على الصعيد السياسي اضطرار المعسكر الامبريالي للانتقال من الاستراتيجية الهجومية (القائمة على الفتوحات) الى استراتيجية دفاعية ، نتيجة لانضغاط المساحات الامبريالية (بقيام البلاد الاشتراكية) وتمرد بلاد العالم الثالث .

بيد أن هذا الاندماج الامبريالي العالمي تقوده الولايات المتحدة ، التي تتجه أكثر فأكثر الى السيطرة على النظام والمعسكر الامبرياليين ، وعلى حمايتهما. ان سيطرة الامبريالية الاميركية تنتشر ، لا في بـلاد العالم الثالث وحسب ، بل في سائر البلاد الامبريالية . بهذا المعنى يمكن أن نتحدث عن « امبريالية أمريكية عملاقة » .

لابيير : من الخطأ استعمال تعبير « الامبريالية الامريكية » للدلالة على امبريالية الولايات المتحدة ، ومن الخطأ أيضاً التحدث عن امبريالية روسية بمناسبة تدخل الاتحاد السوفييتي في تشيكوسلوفاكيا . ان الامبريالية ليست سمة قومية انها سياسة دولة ، أي سياسة فئات ، أو طبقات اجتماعية حاكمة ، ونحن في كثير من الاحيان نستعمل مفردات سياسية غير دقيقة . فنقول مثلا : « الأمريكيين » « الروس » ، « الصينيين » ، دون ما تمييز وقد يكون طويلاً وثقيلاً استعمال تعبير دقيق كهذا : « امبريالية الطغمة المالية في الولايات المتحدة » أو « امبريالية الطبقة البيروقراطية في الاتحاد السوفييتي » . وينبغي أن نشير أيضاً الى أن رجال الاعمال في وول ستريت ، أو أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي ليسو جميعاً بالضرورة موافقين على جميع أشكال السلوك السياسي لدولتهم .

بيير هاسنر : يبدو لي أن تعبير « امبريالي » ينطبق بدرجات وأشكال وفترات متفاوتة على جميع الدول تقريباً ، وأن كلمة « امبريالية » لم تستعمل أبداً بدقة كصورة لموضوع مشخص . فأنا لا أعتقد بوجود امبريالية على شكل نظام متماسك ، أي خصائص نوعية ، أو على شكل خاصة أساسية ونوعية لدولة أو لعدة دول ، إلا أنني أعتقد من ناحية بوجود ظاهرة للتفاوت والنزوع الى السيطرة ، مدى جميع الدول ، ومن ناحية ثانية بوجود تنوع واختلاف في أسباب وأشكال هذين التفاوت والنزوع ، بحيث يستعمل تعبير « امبريالي » على بعض الأحوال بصورة أدق مما قد يستعمل على بعض الأحوال الأخرى ...

ويبدو لي أيضاً أن الأنانية الجماعية لدى الأمم ليست أقل تأثراً من أنانية الأفراد بشهوة السيطرة ، بميل القوى الى السيطرة على الضعيف وهذه سمة انسانية واجتماعية أساسية ، لاحظها السياسيون منذ أقدم العصور حتى اليوم ، مثلما لاحظها الفلاسفة ورجال الفكر ، حتى القديس أوغسطينوس وسيمون فيل .

وليس ثمة لهذا الميل سوى علاجين اثنين كما يقول المؤرخ توسيديدس : أخلاقي (من الاعتدال المعقول الى المحبة) وفيزيائي (التوازن أو المساواة التي تسمح وحدها بحل آخر غير المحبة ، هو العدالة) . ومن الملاحظ أن الاهتمام في العلاقات بين الدول يتركز على الحل الثاني .

غير أن البحث عن هذا التوازن أو السلامة ، في مستوى العلاقات بين الأمم ، وفي نطاق الحذر المتبادل ، والتنافس فيما بينها ، يولد ديناميكية أخرى غير نزعات التسلط ، يمكن تسميتها بالامبريالية الدفاعية ، منبثقة عن منطق القوة ، يمكن بواسطتها أن يؤدي الحرص على التوازن ، الى التفوق ، وأن يؤدي التمسك بالمكتسبات الى صراعات جديدة وخصوم جدد . ان وضع الاتحاد السوفييتي في تشيكوسلوفاكيا كما وضع الولايات المتحدة في فيتنام ، يوضحها قول بيريكلس لأبناء أثينا كما أورده توسيديدس : « لا تظنوا أن الصراع ليس له سوى غاية واحدة : العبودية أو الحرية . إن ثمة أيضاً موضوع ضياع امبراطوريتكم ، ودرجة الحقد الذي سببه تسلطكم . ان هذه الامبراطورية لا تستطيعون أن تتخلوا عنها ، حتى لو حققتم اليوم هذا العمل البطولي ، بدافع الخوف أو إيثار الراحة . اعتبروا هذا العمل مماثلا للطغيان : إذ أن التسلط يمكن أن يكون ظلماً ، ولكنّ التخلي عنه يشكل خطراً . وإذا أوحينا للأمة أن تسلك كذلك ، نكون قد خرّبناها في الحال . ان لذة الراحة لا يمكن الاحتفاظ بها إلا إذا اتحدت بلذة العمل . »

وإذا كانت الدول مؤلفة من أناس وجماعات ، تخضع مثل جميع الناس الى الرغبة في الثراء والقوة والمكانة ، من ناحية ، وتقع ، من ناحية أخرى في محيط يُحدث فيه تفاعلها مع دول أخرى أوضاعاً تؤدي الى خوفها من هجوم خارجي عليها ، أو من تطور مفاجىء للظروف ، فيمكن القول إن هذه الدول قد تضطر الى سلوك سياسة امبريالية ، سواء بتصميم من قادتها ، أو بتأثير بعض الجماعات التي تؤلفها ، أو بدافع التنافس والمسابقة .

٣ - هل ترون أن استغلال البلاد الاجنبية من قبل الولايات المتحدة أمر لا بد منه ؟

هنري دنيس Henri Denis : نعم ، أعتقد أن الامبريالية صفة أساسية للمجتمع الأمريكي الراهن . وثمة بعض الاشكال الواضحة الجلية من الاستغلال يقوم بها رأس المال الامريكي للعالم الثالث ، بل ولأوروبا الغربية : انها حصوله على المواد الاولية بثمن بخس ، وكسبه للارباح المرتفعة . وربما كان حرص الولايات المتحدة على إيجاد أسواق لسلعها المنتجة ، ذا اهمية كبيرة لاقتصادها ، ان ذلك ناشىء عن حاجة أي بلد رأسمالي الى انعاش تنميته الاقتصادية إما بزيادة مبيعاته من المنتجات المصنوعة ، او بزيادة نفقاته العامة . ويستطيع أن يزيد في البلاد المتخلفة التي لا تستطيع أن تصنع شيئاً كهذا ، مبيعاته من المنتجات المصنوعة . لذا كانت التجارة الاستعمارية وما تزال عاملاً أساسياً في انعاش التنمية في البلاد الرأسمالية ، ولا تستطيع الدولة الرأسمالية بلوغ هذه النتائج ، في علاقاتها مع دول صناعية اخرى ، إلا اذا كانت قادرة على أن تفتح أسواق هذه البلاد في وجه بضائعها ، بينما تستمر هي في حماية سوقها الداخلية ؛ وذلك هو بالضبط ما تفعله الآن الولايات المتحدة .

ان العالم الرأسمالي المعاصر ما زال يستعمل حتى الآن هذين الحافزين الكبيرين : زيادة النفقات العامة ، وزيادة مبيعاته للخارج ، وبخاصة للبلاد المتخلفة . وهذه البلاد تسدد القيمة من المواد الاولية والمواد الزراعية ، وتعيد البلاد الرأسمالية هذه الاموال الى البلاد المتخلفة على شكل استثمارات جديدة للشركات الرأسمالية .

قد يقال إن من غير الممكن أن يكون لزيادة تصريف السلع في الخارج دوراً هاماً في حياة الولايات المتحدة ، التي تصدّر جزءاً يسيراً فقط من انتاجها الصناعي . حقاً ان نسبة التصدير ضعيفة . ولكننا هنا في مجال يمكن أن تكون فيه للأسباب الصغيرة نتائج خطيرة . ونحن نعلم بالتجربة أن الزيادة الطفيفة في الانفاقات العامة (او انقاص نسبة الاقتطاع الضرائبي) تحدث في بلد كفرنسا نتائج منعشة لا سبيل الى انكارها .

بيير جاليه : ان الاستغلال ، وبالتالي السيطرة على بلاد اجنبية ، أمران لا بد منهما للولايات المتحدة، لأنهما شرطا بقائها كقوة امبريالية عظمى،بل وشرطا بقـاء الامبريالية كنظام عالمي . وهناك وقائع كثيرة تثبت ذلك ، أكتفي بواحدة منها :

ان القوة الصناعية للمعسكر الامبريالي تستند ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، على دعم متزايد لها من المواد الاولية المستقدمة من العالم الثالث. والآن، استناداً الى وثائق واحصاءات الامم المتحدة ، نجد أن أهم ما تقدمه بلاد العالم من المواد الاولية لحاجات اقتصاد ومصانع المعسكر الامبريالي تتجلى بالنسب التالية :

- أكثر من ٥٠ ٪ من البترول (ستزيد الى ٦٥ ٪ سنة ١٩٨٠)
- ثلث فلزات الصلب (الحاجة اليها تتزايد)
- $\frac{٤}{٥}$ الكروم والمنغنيز
- $\frac{٣}{٤}$ الكوبالت
- جميع كميات القصدير تقريباً

• ٤٠ ٪ من النحاس

• $\frac{٢}{٣}$ البوكسيت

ان هذه الاحتياجات المتزايدة ، التي يحاول بعض المسؤولين اخفاءها وتمويهها ، هي واقع فعلي ، وهي تشير الى تزايد حاجات الامبريالية الامريكية اليها ، وبخاصة الى اكثر المواد النادرة والاستراتيجية .

حقاً ان تبعية العالم الثالث والامبريالية ليست في اتجاه واحد . انها تبعية متبادلة وديالكتيكية .

سيرج هوورتيغ : من الصعب علياً تحديد كلمة « استغلال » . فاذا كان علينا أن نبرهن ، كما حاول أن يفعل كلود جوليان في كتابه « الامبراطورية الامريكية C. Julien - L' Empire Américain » أن رجال الولايات المتحدة يستند على استيلائها على المواد الأولية للبلاد المتخلفة بثمن بخس ، فليس من الصعب دحض هذا البرهان : ان مجموع استيرادات الولايات المتحدة من البلاد المتخلفة يشكل ١٫٣٪ من انتاجها القومي الخام ، وهذه الاستيرادات هي أقل ، في قيمتها المطلقة ، من استيرادات البلاد الستة للمجموعة الاقتصادية الأوروبية (٧٫٧ مليار دولار استيراد الولايات المتحدة - ١١٫٥ مليار دولار استيراد المجموعة الأوروبية سنة ١٩٦٧) .

سيلسو فورتادو : القضية بالنسبة للولايات المتحدة ليست قضية استغلال بقدر ماهي قضية سيطرة . ذلك أن هذه المشكلة تزداد تعقداً بسبب اعتقاد الولايات المتحدة أن سلامتها الخارجية مرتبطة بدفاعها عن نوع معين من النظام الاجتماعي في بلاد العالم الثالث . وهذا النظام الاجتماعي قد يكون أداة تعويق

لنمو تلك البلاد . ثم ان شكل توسع المشاريع الامريكية في الخارج يحول دون تشكل تنمية وطنية في بلاد العالم الثالث ، ويعقد ايجاد الحلول لمشكلاتها .فالتقاء العوامل السياسية بالعوامل الاقتصادية يعطي سيطرة الولايات المتحدة طابعاً خاصاً ، ويجعل بلاد العالم الثالث تعتبر هذه السيطرة أداة تعويق لنموها .

٤ ـ هل تجدون علاقة بين الامبريالية السياسية والامبريالية الاقتصادية ؟

بيير هاسنر : ثمة علاقات تجريبية ، إذ أن كلا من الامبرياليتين يسهل حدوث الأخرى ، بل ويستدعيها ، دون أن يكون ذلك حتمياً . ففي مثال الولايات المتحدة ودول أخرى غيرها ، حدث أن بعض العمليات السياسية قد خضعت لدوافع اقتصادية ، أو بالعكس أدت الى تضحيات اقتصادية ، أو انهاقت بدوافع سياسية ، ثم أدت الى استثمارات اقتصادية ، وأصبحت هذه بدورها هدفاً يحاول العمل السياسي أو العسكري حمايته والذود عنه ، فيما بعد ، إلا أن مايبدو لي اليوم ذا دلالة كبيرة في علاقة الولايات المتحدة بسائر بلاد العالم ، إنما هو ازدياد الفصل أو العزل بين الظاهرة الاقتصادية والظاهرة السياسية أو العسكرية .وأبرز مثال لذلك هو مثال اليابان :

١) فاليابان هو من الناحية العسكرية محمية أمريكية ، ومن الناحية السياسية حليف مطيع للولايات المتحدة ، ولكنه يحارب الاستثمارات الأجنبية ، بما فيها الاستثمارات الامريكية ، أكثر بكثير مما تحاربها فرنسا الديغولية ، بحيث أنه لاتوجد أية مؤسسة في اليابان يجري الإشراف عليها من خارج البلاد .

٢) واليـــابان ، من الناحية الاقتصادية ، يرفض دخول السيارات الأمريكية الى أسواقه ، رغم احتجاج الولايات المتحدة التي تفتح أسواقها للمنتجات اليابانية أكثر بكثير مما تفعله اليابان بالمقابل .

٣) واليابان ، من ناحية رؤوس الأموال ، رغم كونه يقترض من الولايات المتحدة ليحقق بهذا المال الاستثمارات التي لم يستطع بلوغها ، فانه يقيم بنية علاقاته مع الولايات المتحدة على عكس بنية علاقات أوروبا الغربية بالولايات المتحدة .

فإذا كان ثمة استغلال ، فالأصح أن نتحدث عن استغلال تمارسه اليابان على الولايات المتحدة ، لا العكس . هذا مع العلم ان اليابان كانت عشية انتهاء الحرب الثانية كلياً بيد الولايات المتحدة ، وكان باستطاعة هذه الأخيرة ان تستعمره ابدلاً من أن تساعدها على النهوض ، مثلما فعلت مع أوروبا الغربية .

بيد أن استقلال اليابان وتحرره الاقتصادي لم يمنعــا انتشار الأسلوب الأمريكي ثقافياً واجتماعياً بصورة جزئية في اليابان ، وليس مرد ذلك في تقديري الأمبريالية الأمريكية .

ثمة مناطق ثلاث من العالم تطرح فيها مشكلة الأمبريالية بشكل جلي : أمريكا اللاتينية ، فيتنام ، أوروبا الغربية . ويبدو لي أن هناك اختلافاً كبيراً بين هذه الحالات الثلاث ، من جميع الوجوه ، وبخاصة من ناحية العلاقات بين العنصر الاقتصادي والعنصر السياسي .

ان امريكا اللاتينية تشكل بالنسبة للولايات المتحدة ، ماتشكله أوروبا الشرقية بالنسبة للاتحاد السوفييتي ، وافريقيا السوداء الناطقــة بالفرنسية بالنسبة لفرنسا : منطقة حماية ينبغي الحفاظ على الإشراف عليها من جميع الوجوه ، ومهما تكن الظروف ، على أن هذا الإشراف يتغير ، درجة وشكلاً ، ودوافع. فقبل الحرب العالمية الثانية كانت الدبلوماسية والقوة العسكرية الأمريكية في خدمة المصالح الخاصة للولايات المتحدة ، باستثناء بعض الأحوال التي تطغى فيها اعتبارات

الأمن السياسية أو العسكرية . ويبدو لي ، على العموم ، أن البلد الذي تعتبره الولايات المتحدة قليل الأهمية من الناحية السياسية ، تفرض عليه سياستها اكثر فأكثر بسبب المصالح الخاصة . وقد لعبت هذه المصالح الخاصة ، بعد الحرب ، بورقة التهديد الشيوعي ، لكي تبقي على امتيازاتها وعلى الوضع الراهن . ان تسامح الولايات المتحدة ازاء بعض الأنظمة التي صادرت ممتلكاتها (بوليفيا، الشيلي) وتدخلها في بلاد اخرى (غواتيمالا ، سان دومنيك) تدل على الأولوية التي تمنحها حكومة الولايات المتحدة للاعتبارات السياسية ـ العقائدية ، رغم حرصها على أن تصان امتيازات شركة و اتحاد الفواكه ، فلما حدث أن تحدى كاسترو الولايات المتحدة ، وربط هذا التحدي بإعلانه عن إيمانه بالشيوعية ، ورافق ذلك فشل « التحالف من أجل التقدم » فإن ذلك كله قد جعل سيطرة الولايات المتحدة على بلاد أمريكا اللاتينية اكثر عنفاً وشراسة ومباشرة ، وذلك عن طريق مقاومة الحركات الثورية . كما شجعت الولايات المتحدة الأحلاف العسكرية ، وزادت من حماية المصالح الخاصة ، ومن الصعب ان يفسر هذا السلوك إلا بتضافر عوامل اقتصادية وتاريخية ونفسية مع بعضها .

أما بالنسبة لفيتنام فالأمر أكثر وضوحاً . فإذا كان هناك من يفسر التدخل العسكري الأمريكي بدوافع اقتصادية ، فخير له ان يبحث عنه لا في المواد الأولية ، بل لدى صانعي المدافع . بل إن هؤلاء يؤثرون العمل في انتاج أجهزة الفضاء ، ويعربون عن غبطتهم لحلول السلام في فيتنام . ذلك أن تدخل الولايات المتحدة العسكري ناشىء عن حرصها على إقامة توازن في المنطقة تجاه كل من الصين والاتحاد السوفييتي ، وناشىء عن تفسيرها الضيق للشيوعية ، وأسلوبها الخاطىء في إيقاف مدها وذلك بواسطة التدخل المحدود . لكنّ ذلك ، في رأيي ، هو الأمبريالية في أخطر وجوهها وأكثرها التصاقاً بالولايات المتحدة ؛ فهي نوع من التصعيد والمأزق ، يتجلى بحركة ثم بعطالة ، ترافقهما أجهزة تقنية تتحرك الى الأمام وتفسد كل شيء في طريقها ، لأن التدخل المحدود يتحول الى تدخل من

أجل حفظ ماء الوجه ، ولأنه كذلك فهو يتجلى تارة بالعجز وطوراً بالانتقام ، ويعتقد تارةبوهنه ووجوب قبول الهزيمة ، وأخرى بامكان إحراز النصر . ومن الممكن أن يؤدي مثل هذا التصرف الى تدخل على مستوى عالمي، أو الى تخل كلي .

هذان الحالان غير واردين بالنسبة لأوروبا ، إذ لا مجال للتفكير في تدخل امريكا عسكرياً بها ، ولكن التضامن الاقتصادي بين الفريقين يضيّق كثيراً من امكانات انفصالهما عن بعضها . وفي تقديري أنــه غير صحيح القول ان الولايات المتحدة تستهدف احتلال أو استعباد اوروبا ، عسكرياً ، او سياسياً او اقتصادياً . فهي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تميل الى فك التزامها العسكري تجاه اوروبا ، وفي سبيل ذلك حرصت كلياً على دفع اوروبا الغربيــة في طريق الاتحاد ، كي تتفرغ هي الى مسؤوليات اخرى . ثم ان الولايات المتحدة قد أسهمت ، بفضل مشروع مارشال ، في انشاء المنافس الاقتصادي وقبلت ان تقوم دولة كفرنسا بطرد القوات الامريكية من اراضيها وان ترفض هذه المشاريع والمنظمات .

ولكن الولايات المتحدة ، بواسطة التحالف الاطلسي ، تمارس نوعاً من امبريالية الزعامة على اوروبا ، إذ تعتبر نفسها أكثر قوة و كفاءة لتفسير المصلحة المشتركة في اغلب الأحيان ، بصورة تنطبق ومصالحها الخاصة ، وفي رأيي أن أعظم أخطار الامبريالية الامريكية ستقع ،في المدى البعيد ، على اوربا بالذات .

إن ظاهرات التأخر التكنولوجي لأوروبا ، وهجرة الأدمغة الى الولايات المتحدة ، والاستثارات الامريكية في اوروبا ، ليست تعبيراً عن سياسة امريكية . فظــاهرة الاستثمارات مثلاً لاتشجعها حكومة الولايات المتحدة ، بل تطلبها الحكومات الاوروبية ؛ وهي لاتعبر عن امبريالية الولايات المتحدة بقدر ماتعــبر عن عجز الأوروبيين ، أو بالأحرى هي تعبر عن تفاوت لا عن تسلط . على ان استمرار ذلك ، سيؤدي حتماً الى تسلط واستغلال في المستقبل .

بيير جاله : من وجهة نظر الماركسي الذي يتذكر تحليل لينين لطبيعة الدولة ، ارى أن ثمة علاقة وثيقة ومباشرة بين الامبريالية الاقتصادية والامبريالية السياسية ، خاصة في المرحلة الراهنة التي تشتد فيها الرأسمالية الاحتكارية للدولة .

وبالاجمال ان الدولة هي الاداة والتعبير السياسي للسلطة الاقتصادية للاحتكارات.

سيرج هورتيغ : ان الصلات بين التسلط والتوسع ، سواء سياسياً او اقتصادياً ، ليست بسيطة ، ولا وحيدة الوجه . فالحرص على السلامة ، وهو اساسي في سياسة اكثر الدول ، يفسر في كثير من الاحيان بعض الظاهرات الامبريالية اكثر مما تفسرها المصالح الاقتصادية .

لابيير : أعتقد انه ليس هناك شيء ضروري في الواقع التاريخي والاجتماعي والسياسي، فبعد أن لاحظنا مجموعة من الوقائع ، وحددنا مفهومها - الامبريالية مفهوم نلتقط بواسطته مجموعة وقائع ، وعلاقات بينها - ينبغي ان نتساءل لا ما إذا كانت هذه الوقائع ضرورية أم لا ، بل ماهي الشروط الخاصة التي جعلت هذه الوقائع ممكنة ، وماهي التغيرات الممكنة في مجموعة هذه الوقائع ، وماهو اختلاف الرجحان بين هذه التغيرات الممكنة .

ان تحليلنا للامبريالية ينبغي ألا يحجب عنا ، بل ان ينير لنا تعقد الاختلافات ، والتوترات ، والتناقضات ، والفواصل الزمنية ، في داخل مجموعة الوقائع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي ينطوي عليها مفهوم لامبريالية . اننا ، من وجهة مجردة ، نستطيع ان نتصور الشكل النموذجي للامبريالية بذاتها ، للامبريالية الصرفة ، لمجتمع متماسك كلياً وأمبريالي كلياً ولكن ، من وجهة واقعية مشخصة ، الدولة الامبريالية ليست كتلة وحيدة الشكل ، ولا مدعومة كلياً من جميع القوى الاجتماعية للشعب او الامة . حتى النازية في إبان مجدها لم تنجح في جعل ألمانيا دولة ذات سلطان شامل ، تعبىء كلياً جميع الطاقات في سبيل السيطرة على اوربا . ان الولايات المتحدة ليست دولة ذات سلطان شامل . ومحاولتنا لفهم الامبريالية الامريكية تملي علينا ان نرفض الاسطورة المنسوجة عليها ، والدعاية التي تطوقها . ليست الامبريالية الامريكية هي الشيطان فرانكنشتاين ولا القديس ميشيل وهو يسحق التنين الأحمر . ان تحليل الامبريالية

الامريكية يعني ابراز تناقضاتها ، وانقساماتها ، وضعفها ، كما يعني اظهار تعقدها وتنوع اشكال السيطرة التي تمارسها ، وعدم اخفاء القوى الاجتماعية غير الامبريالية او المناهضة للامبريالية ، الموجودة في داخل المجتمع الامريكي ذاته ، وعدم رد هذا الواقع المتحرك الى بعض الهياكل والصيغ الساذجة المبسطة عن الرأسمالية الاحتكارية او عن علاقات توازن القوى بين الامم .

ومن ناحية أخرى ، ان لكل مشروع امبريالي خياراً بين عدة استراتيجيات ، ويمكنه ان يبدل استراتيجيته في بعض الأحيان . كما أن له ، في مجال استراتيجية معينة ، وفي ظرف معين ، ان يختار بين عدة وسائل . ان القوى الاجتماعية التي تدعم في دولة متسلطة نزعاتها الامبريالية ، ليست جميعها دوماً متفقة فيما بينها على الاستراتيجية والوسيلة المناسبتين . فمثلاً قد تكون هذه الاستراتيجية أو تلك الوسيلة مكلفة (تتطلب تضحيات كثيرة) لهذه الجماعة أو الفئة أكثر مما تكون بالنسبة لجماعة أخرى . ان الطغمة المالية الفرنسية مثلاً قد قضت زمناً طويلاً حتى أدركت أن التدرج في تحرير أفريقيا من الاستعمار الفرنسي يسمح بضمان سلامة « المصالح الفرنسية » أكثر مما يفعل أي مجهود عسكري لحماية هذه المصالح ، مثلما حدث في الهند الصينية والجزائر . ومن المحقق أن حربي الهند الصينية والجزائر لم تكونا « ضروريتين » للرأسمالية الفرنسية ، بالرغم من أن كثيرين من الفرنسيين كانوا يعتقدون العكس . ثم ان ثمة فارقاً كبيراً في الأبعاد بين امبريالية الولايات المتحدة اليوم ، والامبريالية الفرنسية بالأمس (علماً بأنها موجودة اليوم ، إلا أن استراتيجيتها قد تبدلت) . ان لأبعاد حرب فيتنام خطورة في العلاقات الدولية تختلف عن خطورة حرب الجزائر . ولكن لم يكن « ضرورياً » للولايات المتحدة أن تشن الحرب على فيتنام ولا أن تدعم في البرازيل أو في اليونان أنظمة ديكتاتورية رجعية . ولو ان الولايات المتحدة لم تفعل ذلك ، فلن يصاب المجتمع الأمريكي بتفسخ ، ولن ينهار الاقتصاد الأمريكي . ومع ذلك فمن الراجح أنه لو حدث تبدل حقيقي في استراتيجية الامبريالية الأمريكية (لا في وسائلها فقط) في جنوب شرق آسيا وفي أمريكا اللاتينية ، لأدى ذلك ، مع مرور الزمن ، الى تبدلات هامة في النظام السياسي الداخلي للولايات المتحدة وفي العلاقات الدولية . طبعاً لن ينهدم الاقتصاد الأمريكي بنتيجة ذلك ، ولكنه سيتأثر منه تأثراً بالغاً . وما ترى يحدث آنذاك « بالنظام النقدي الدولي » ؟ لو طرحنا هذا السؤال على الاختصاصيين لأجابوا : « لا شيء على

الاطـلاق ! » ولو افترضنا أن الولايات المتحدة قد تخلت عن الامبريالية ، لتعود الى عزلتها السابقة ، أو لتنصرف الى الاسهام في تنمية العالم الثالث (دون شروط سياسية ، ولا فرض تبعية) ، وهذه فرضية حظها من الاحتمال الواقعي ضعيف جداً ، لكان من نتيجة ذلك حتماً تحول عميق في النظام الاقتصادي الأمريكي .

والواقع أن حرب فيتنام لا تزال مستمرة حتى اليوم ، رغم أن ثمـة اتجاهاً متعاظماً داخـل الرأي العام الأمريكي الى انهاء الحرب . ثم ان العسكريين اليونان والبرازيليين لايبدو عليهم أنهم يخافون من توقف دعم الولايات المتحدة لهم ، وإن تكن الديبلوماسية الأمريكية تفرض عليهم الاعتدال في استعمال « العنف المشروع » . ومعنى ذلك أنـه ما زال هناك قطاع قوي ونافذ في الولايات المتحدة يدعم الاتجاه الامبريالي . واذا نحن لم نر أية علاقة بين القرارات السياسية والمصالح الاقتصادية والقوى الاجتماعية، فلا يبقى ثمـة تفسير النشاط الامبريالي سوى بعض الأفكار الغامضة الوعظية ، كإرادة القوة ، والتعطش الى السيطرة ، والنزعة العدوانية الداخلة في طبيعة الانسان ، أو بعض الأفكار القاتمة ، كجبرية القوة ، والمشيئة الامبريالية الحتمية ، وسواها .

واذا أعدنا النظر في الصورة الهيكلية الماركسية ، ونقحناها ، (وذلك بإبدال حتمية الضرورة بحتمية الرجحان ، وبتقدير تطور الرأسمالية منذ أيام لينين ، وباستبعاد أسطورة التنبؤ بقرب انهيار الرأسمالية بصورة فاجعة) فانها تسهم بتوضيح الامبريالية في دولة يقوم نظامها الاقتصادي على الرأسمالية . غير أنها لا تفسر كل الامبريالية الأمريكية بل تترك طائفة من الوقائع دون تفسير ، لأنها من ميدان علم الاجتماع ، لا علم الاقتصاد ان العلاقة بين « الامبريالية الاقتصادية » و « الامبريالية السياسية » هي علاقة تبادل لا علاقة سببية ضرورية .

ان النظرية السوسيولوجية للامبريالية يجب أن تعنى بأوجه الشبه وأوجه الاختلاف معاً ، بين مختلف الظاهرات التاريخية المشخصة لهذا النموذج من النشاط السياسي. وينبغي لها أن تكون بمنأى تجاه التبريرات والفضائح الايديولوجية ، وتجاه النزعات الطوباوية التي تحلم بانسانية متحررة من كل امبريالية ، في عالم أزيلت منه نهائيا جميع التناقضات الاجتماعية . ان نهاية كل امبريالية تشترط زوال جميع أشكال التفاوت في النمو والقوة بين الدول ، أو تشترط قيام دولة عالمية غير توسعية ، او انحلال كل الدول وانشاء جماعة فوضوية عالمية . من الممكن دوماً ان نحلم ، ولكن أمس ليس غداً كما يقول الحكيم أستريكس .

٥ ـ اذا كانت الظاهرات المسماة بالامبريالية ، في مثال الولايات المتحدة ، ليست في رأيكم ضرورية ، فأي نوع من الارتباط ترون بين هذه الظاهرات ، وبين المطالب الخاصة بمجتمع الولايات المتحدة واقتصادها ؟

بيير جاله : في مثال الولايات المتحدة ، كما في مثال الامبريالية عامة ، نقول ان الظاهرات التي نطلق عليها اسم امبريالية هي في مفهوم الماركسيين نتاج الضرورة . وقد أشار لينين منذ أكثر من نصف قرن الى أن الرأسماليين آنذاك كانوا يسيطرون على العالم ويقتسمونه « لا بسبب نذالتهم الخاصة ، ولكن لأن درجة التمركز التي بلغوها كانت تفرض عليهم أن يسيروا في هذا الاتجاه . » ان هذا ما زال صحيحاً لانه من جوهر الرأسمالية .

ولكن ألا يجب ان نضيف بأن ظاهرة الامبريالية ، اذا كانت ناجمة عن ضرورة داخلية للرأسمالية ، فينبغي الا نكف عن محاربتها باسم ضرورة نقيض لهـا : تحرر الشعوب المستعبدة ؟

سيرج هورتيغ : إنني لأرى من الروابط بين المظاهر الامبريالية للسياسة الأمريكية وبين المطالب الخاصة بالمجتمع والاقتصاد الامريكيين ، أكثر مما أرى من الروابط المماثلة لدى الاتحاد السوفييتي ، أو لدى فرنسا . هل كان التوسع الاستعماري ، وبقاء السيطرة الاستعمارية « ضروريين » لكلا الجمهوريتين الثالثة والرابعة ؟ وهل كان فقد المستعمرات ، او التخلي عنها « ضرورياً » لفرنسا الديغولية ، أو بالعكس ؟ ان الاحتفاظ بمراكز ممتازة في بعض المناطق ، هو بالنسبة للمجتمع الفرنسي ، كما هو بالنسبة للمجتمع الامريكي ، أمر هامشي ، ثانوي . ان لدى النظام الامريكي حظاً ممتازاً من البقاء ، حتى بعد تصفية المشاريع الامريكية في أمريكا الوسطى ، وحتى بعد انتهاء حرب فيتنام .

ان مشكلات الولايات المتحدة الداخلية هي من الضخامة ، وتتطلب نفقات عامة هي من الارتفاع ، بحيث لايمكننا أن نقبل بالفكرة التي تقول ان الرخاء الامريكي لايتحقق دون انفاق عسكري كبير .

بيير هاسنر : ان الظاهرة الأساسية في الولايات المتحدة هي تداخل حركي يفرضها التقدم التقني، مع ظرف دولي، ومع نظام داخلي متعدد الأشكال ومعقد وغير منظم. من هنا نلاحظ تعدداً في السياسات المتناقضة، متآنية أو متتابعة، تجاه الخارج. ومع ذلك فان حدود التغير تظلّ محدودة بثلاثة أطر: توازن القوى بين الدول، توازن العلاقات المتبادلة اقتصادياً واجتماعياً في العالم الحديث، الخصائص الفرعية للنظام الاجتماعي والسياسي والايديولوجي الامريكي. في هذه الأطر الثلاثة تظل ابعاد الولايات المتحدة وقوتها تلعبان دوراً جوهرياً. ان الولايات المتحدة، بوصفها دولة نووية عظمى، لاتستطيع أن تهمل النظام الدولي ولا أن تتخلى عن تفضيلها للوضع الراهن وعن ميلها الى نظام الكتل واقتسام مناطق النفوذ. إلا ان هذا لايفرض عليها ان تكرر الاخطاء المدمرة اللامنطقية، التي ارتكبتها في حرب فيتنام، وأن تهمل حدود نفوذها وتأثيرها على حلفائها. ستظل الولايات المتحدة، بحكم كونها عملاقاً في الاقتصاد والتقنية الحديثة، حاضرة في العالم، ومرتبطة بصورة خاصة مع البلاد الصناعية بمختلف العلاقات المتبادلة التي ستلعب هي فيها دوراً بارزاً وأساسياً، إلا أن هذا لايفرض عليها ايضاً ان تساند النظام الحرّ وان تستمر في خفض أسعار المواد الأولية. ان مايبدو لنا منها الآن هو نزوعها نحو الانكفاء، والعودة الى الداخل. وستكون لهذا مشكلات في عالم اصبحت فيه العلاقات الدولية المتبادلة في الاقتصاد والسياسة معاً سائرتين في طريق الزيادة لا في طريق النقصان.

ان الولايات المتحدة ستظلّ في هذه الفترة دولة دفاعية من الناحية السياسية، هجومية من الناحيتين الاقتصادية والتقنية، حائرة ومترددة من الناحيتين الاجتماعية والروحية. من هنا فان ثمة احتمالات لتطورات متناقضة وأزمات لن يكون مجراها ونتائجها غير امبريالية، إلا اذا عرفت الدول العظمى الأخرى كيف تسهم في وضع بنى توازن وتعاون، وتقلل بذلك من الزامات هذا العملاق وتصرفاته المنفردة، فهي محكوم عليها أن تتعايش معه في السراء والضراء.

دور الأديب العربي
في بناء المجتمع العربي العصري [١]

حيدر حيدر

في هذه المرحلة الخطرة من تاريخ هذا الوطن ، وفي هذا الزمن الضيق ، وأرض العرب تنزف بالدم والالم والصمود، ورياح الغزو تهب من الجهات الأربع في محاولة لاقتـــلاع جذر الانسان العربي وقذفه الى الصحارى . في هذا الوقت العصيب واحذية جنود الاحتلال تدق الأرض العربية وحضارة الانسان العربي ، ينعقـــد مؤتمركم ليجيب على سؤال : هل للأديب العربي دور تاريخي في هذا الوطن الممزق المحتل ؟

— وما هو هذا الدور ؟

— والى أي مدى يستطيع هذا الأديب أن يؤثر؟

---

(١) القي هذا البحث في مؤتمر الادباء العرب السابع في بغداد (نيسان — ابريل ١٩٦٩) .

وقبل الاجابة على هذه الأسئلة، لعلنا مضطرون لأن نحدد سمة المجتمع الذي يحيا فيه هذا الأديب . ومن خلال معطيات واقع هذا المجتمع يمكن الاجابة على جميع الاسئلة .

لكن شيئاً أساسياً لا يمكن اغفاله هو : هوية ذلك الأديب . فالهوية هي التي تحدد الدور والتأثير . وهذه الهوية لابد أن تحتاز صفتين أساسيتين : القدرة على التحليل والكشف ، وهذه مرتبطة بالوعي ؛ والتقدمية ، وهذه مرتبطة اساساً بالتغير المستقبلي من أجل عالم أفضل .

ان السمة الأولى الواضحة والموضوعية للمجتمع العربي ، هي انه مجتمع متخلف اقتصادياً وثقافياً ونفسياً .

والسمة الثانية انه مجتمع مجزأ في الارض والنفس .

والسمة الثالثة انه مجتمع مستعبد من الداخل والخارج

وهذه السمات الثلاث مرتبطة بالتاريخ والنفس والعلاقات القائمة .

ان التغيير يفترض مباشرة نقل المجتمع الى حالة جديدة : موحدة ، حرّة ، معاصرة .

ان سمات المعاصرة لبنية المجتمع العربي مستقبلاً ، بالاضافة الى انها نقيض التخلف والتجزئة ، ونقيض الاضطهاد والارهاب ، هي أساساً تكوين أخلاق وقيم وعلاقات جديدة، يمكن ابراز بعض ملامحها بأنها علاقات وقيم معادية للغيبية ، معادية للسكونية والكسل ، تستهلك الزمن في الانتاج والابداع ، تمجد العمل الخلاّق وتنطلق منه أساساً للقيمة الانسانية .

في عملية التغيير الجذرية للبنى الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والنفسية ، لماذا علينا أن نختار بالضرورة التيار الاشتراكي والفلسفة الاشتراكية ؟

ولماذا، بالضرورة ذاتها، نقول ونربط الوحدة العربية بالاشتراكية مضموناً اجتماعياً لهذه الوحدة ؟

بعيداً عن أي جدل فلسفي ، أو مغالطة متعسفة ، سنقول : ان الوحدة تعني كامل وجودنا، ونقيضها كامل انقراضنا من التاريخ . واسرائيل والصهيونية هما الشاهد على ذلك .

وهذه الوحدة بدون مضمون اجتماعي تقدمي ، وحدة فارغة تقوم على أساس من ملح .

ولهذا فنحن ملتزمون حتماً بالاشتراكية لأنها نقيضة الاستغلال ، ولأنها فلسفة ساحقية جماهير الشعب المسحوقة عبر التاريخ . وهذه الجماهير ستدافع عن الوحدة في حالة الخطر ، عندما تكون لها مصلحة مباشرة بها .

من هنا نلمح السمة الأساسية لمجتمع العرب المعاصر :

دولة عربيــة موحدة اشتراكية ، قائمة على العلم لا على الغيبيات والميتافيزيك تعتمد العمل نقيضاً للبطالة والكسل ، تقيم وزناً للانسان كأكبر قيمة جوهرية في الوجود ، تمنح هذا الانسان الحرية الواعية المسؤولة ، وتؤسس علاقات وقيماً جديدة من خلال فهم التاريخ وحاجات النفس الانسانية . وهذه الدولة العصرية مفتوحة على العالم والحضارات الأخرى .

ان هذا التصور المستقبلي للمجتمع العربي ، قد يكون امنية ، لوحــة رائعة تزدهر في نفوسنا جميعاً ، وهذه اللوحة لايمكن اخراجها الى حيز الوجود بالادعية والكلمات التي نرسمها في الفراغ أو على الورق ، كما أن انتظار ولادتها على أيدي الحكام والولاة ، لن يأتينا الا بمزيد من الجراح والخيبات ، ومزيد من التمزق واقتطاع الأراضي ، كما حدث في أزمنة الهزائم التي نعرفها جميعاً .

لهذا سوف أقول مباشرة: إن الدور الحقيقي والفعال للأديب العربي هو دور ثوري اولاً وأخيراً . ولذا فهذا الأديب ملتزم بالثورة العربيـــة ، لأنها ثورته وقدره التاريخي .

فلو أخذنا الأدب مرآة للعصر ، وانعكاساً لواقع تاريخي بحياه الانسان ، لرأينـــا ، عبر جميع العصور ، أن الأديب كان صوت ذلك الواقع في السلب والايجاب ، يصدر عنه بطريقته الخاصة ورؤياه الذاتية التي ترصد وتحلل وتستشرف الأحداث والعلاقات والمستقبل .

وفي مجمل العملية الأدبيـــة ، كان يتأكد باستمرار انخراط الأديب وتغلغله في أحداث عالمه وعصره وامته .

وهذه هي القاعدة المبدئية ، أما الاستثناء في مايسمى بالعزلة داخل برج عاجي مفصول عن العالم ، فشيء آخر يستطيع أن يخلق أدباً خيالياً أو تصوّفياً من خلال التأمل الفلسفي والوحدة الذاتية مع الكون والطبيعة . وهذا النمط من الأدب ، ينضوي تحت راية الأدب السكوني الجامد الميتافيزيكي النزعة .

ان الأدب الفعال الذي ننتمي اليه في هذا العصر الثوري المنفجر ، هو الادب المتحرك الغضب . الأدب الممتزج بدم وعرق الانسان . بأمله وفرحه ، بحريته واضطهاده . الادب الذي ينذر ، ويحزن ، ويبشر ، ويحتج ، ويفجع ، ويهدد . مرهصاً بالعدل والحرية والحب لبسطاء النـــاس الذين علّمهم التاريخ والطغاة والشرائع العتيقة مادياً ونفسياً على حد سواء .

وحتى يستطيع هـــذا الأدب أن يكون كذلك ، لابد للأديب من الانخراط في صميم عالمه والتحامه بالواقع والتاريخ بعطيه امكانية فهم هذا العالم

المحيط به . ولأن الأديب وعي متقدم بالضرورة ، فسيدرك بدهياً ان عليه مهمة تغيير هذا الواقع الى الأفضل .

ان هذه الرغبة في التغيير من أجل التقدم ، تضع الاديب والثوري في في خط المجابهة الأول ، فهما يشكلان فريق صدام لقيام دولة الانسان العادلة مادياً ونفسياً ، وهذا الفريق الصدامي سيبني الدولة بالثورة .

فالظلم والقهر وانتفاء العدل الاجتماعي ، دوافع أساسية تقود الى التمرد والثورة ، والفرق الذي يمكن أن يكون بين الأديب والثوري ، هو في الممارسة بتحويل الافكار الى فعل مادي مباشر يحقق الثورة . والاديب الذي يمارس الثورة مادياً يمكن تسميته بحق : النموذج الثوري .

والشعراء الفرسان في تاريخ الأدب العربي ، من عنترة إلى عروة ، والصعاليك الى أبي فراس كانوا نماذج فريدة يمكن الاستشهاد بها في هذا المجال بالنسبة لمعطيات عصورهم .

إذا كانت قضية الثورة تطرح قضية الحرية مباشرة ، لأن الثورة بالأساس هي مجابهة فعليـــة حاسمة للاضطهاد والاستغلال والارهاب ، بأشكالها الجماعية والفردية ، وإذ عرفنا الثورة: بأنها حرية يباشرها المضطهَدون ضد قوى مضطهِدة تحاول سحق حرية الأمة والانسان ، فهـــذه الفرضية – اذا صحت – تطرح نتيجة صحيحة نسبياً وهي : ان أي أديب حقيقي مبدع لابد أن يكون ملتزماً ثورياً

فالأديب والثوري ملتقيان لابد في فكرة إعادة بناء التاريخ من جديد على أسس تقدمية ، عادلة ، حرّة . وهذه الاعادة الجديدة هي الثورة .

فمع إدراكنا لحالة النزوع الفردي في نفس الأديب ، وميله الداخلي إلى

الاستقلالية ، وشغفه اللامحدود بالحرية ، إلا أن هذا النزوع وهذه الحالة الخاصة ، لاتعني المحايدة .

فالأديب بحكم وضعه الثقافي الذي يسمح له بوعي ، دراسة واقعه ، وتحليل التناقضات القائمة بين طبقات المجتمع ، والعلاقات الانسانية . والأديب العربي الذي يدرك فاجعية تجزئة الأمة العربية ، والذي يشهد يومياً تاريخ وحضارة وكرامة الإنسان العربي والأمة العربية ، تداس بأحذية الغزاةالصهاينة في القدس وسيناء والجولان ، وقبل ذلك في حيفا وعكا وصفد ، والذي عرف شراسة وحقد المستعمرين منذالفرس والرومان الى الغزو الأوروبي . هذا الأديب العربي عندما يكون محايداً في هذا الصراع المصيري ، ينبغي ان نسميه باسمه : انه خائن .

ان وراء كل واقع نظاماً معيناً يرسخه ، ويحاول جاهداً إدامته وتغيير هذا الواقع لن يتم الا بتغيير النظام القائم .

وعندما يكون هذا النظام معادياً لأكثرية الشعب ، يستغل طاقات الأمة بشراً ومصالح مادية لصالح فئة أو طبقة من المستغلين ، دون ان يبالي برفع مستوى المجتمع اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً . فالأديب وعياً متقدماً ، وانساناً تقدمياً ، ليس بوسعه موالاة نظام يشع هذه هويته . انه عفوياً ضده ، وضد كل القيم والأخلاقيات ، والمؤسسات القمعية التي يرفعها هذا النظام .

إن هذا يلقي على عاتق الأديب مسؤولية التصدي لهدم هذا النظام من جذوره ، وبلا مهادنة ، ولو أدت المجابهة إلى التسريح ، أو السجن ، أوحتى القتل .

هل دخلنا الآن في مفازة ضيقة لأننا اقتربنا من السياسة ؟ ربما . ينبغي توضيح موضوعة أساسية قد تكون في حكم البدهيات وهي : ان الأديب ، ثورياً

ملتزماً كان ، أم غير ثوري ، ليس باستطاعته ان يغيّر منحى التاريخ ، أو يبدل بنية مجتمع من حالة الى أخرى .

فمع انه قد يكون سابقاً في الوعي ، وتقدمياً ، إلا أن التبديل الحاسم لبنية المجتمع هو أولاً وأخيراً مهمة الثورة السياسية .

إن الأديب يبشر ويؤثر . حدث ذلك في تاريخ الثورات : فولتير وروسو وديدرو في الثورة الفرنسية . توم بين وفرانكلين في الثورة الامريكية . تولستوي ، وديستويفسكي ، وتشيخوف ، وغوركي في الثورة الاشتراكية السوفياتية .

والأديب قد يشترك في الثورة: لوركا ، ومالرو ، وهمنجواي ، وشولوخوف.

فلسبب أو لآخر قد لا ينخرط الأديب في التنظيم السياسي الذي أخذ على عاتقه مهمة نسف النظام القائم ، لكن عدم الانخراط في التنظيم ينبغي الا يعزله عن احداث وقضايا شعبه المصيرية . فالأديب يمارس ، عبر نضاله الأدبي ، سياسة أدبية يعبر عنها بطريقته الخاصة . وهذه السياسة ترتكز على أرضية فلسفية في فهم التاريخ والناس والمجتمع ، ومن هذه الأرضية تنبع نظريته الخاصة في الأدب .

فمن خلال قراءاته وتجاربه وتماسه الداخلي والخارجي مع العالم ومع عصره وواقعه ، يبني الأديب عالمه الخاصّ ، وهذا العالم المشاد ليس الا انعكاساً مبدعاً للعالم المحيط به ، يرتسم على شاشته الداخلية التي ينسجها الوعي والذاكرة.

إن الحاحات الابداع تتولد في نفس الأديب بحرية داخلية مطلقة ، واللحظة الحرجة هي بداية خروج هذه الحرية من النفس الى الخارج .

والسؤال ملحّ وأساسي : هـل سيتاح للاديب ان يعبر عن احساساته ويخرجها الى العالم والبشر بالحرية ذاتها التي تولدت فيها .

هذه النقطة ربمـــا كانت نقطة الخلاف ، وهي تثير دائماً اكثر من إشارة استفهام .

لقد أخذت في تاريخ الأدب منحنيين : اقصى الحرية في الأدب الأوروبي الغربي ، واضيقها في الأدب الاشتراكي الموجّه ، قبل ظهور لموجة التحررية الجديدة في الأدب الاشتراكي المعاصر .

ولعل الافتراق بين الأديب والثورة قد يعود الى عدم تحديد هذه المسألة بالذات : الى أي مدى نسمح بحرية التعبير في الأدب ؟

لأن التماس بين الأديب والحرية ، تماس وجودي حيوي ، كالماء بالنسبة للسمك ، ولأن الأديب يحس بالتجاوز والتخطي الدائمين ، لهـذا تشكل الحرية بالنسبة له حجر الأساس في عملية الخلق والتغيير ، ومن الطبيعي أن يختنق ويصمت عندما يُتصدى لحريته وتصادر .

ثمة فرق بين الفوضى والتسيّب ، وبين الحرية المسؤولة المبدعة . وفي سبيل الحرية المبدعة والمسؤولة ينبغي ان يقاتل الأديب ، ومن هـــذه الزاوية يكتسب صفته كأديب ثوري ، ومن هذا الموقع يمكن أن يناضل من اجـــل التغيير : المادي والنفسي .

لنحاول ان نقترب أكثر من هذه النقطة الحساسة والتي يحدد على ضوئها دور الأديب العربي كانسان ثوري ملتزم بقضية التقدم ، وكانسان فاعل في سبيل قضيته وقضية شعبه .

عندما افترضنا التزام الأديب لا إلزامـــه ، بالقضايا المصيرية للمجتمع

واسهامه فيها ، وضعنا الخطوط الرئيسية لموقف الأديب العربي من أنه : مع التيار التقدمي ضد التيار الرجعي ، مع الأمة والشعب ضد الغزو والاحتلال ، مع الفقراء والمضطهدين والمقهورين ضد المستغلين والناهبين ، مع الحرية ضد الارهاب ، وضد كل القوى الحمقاء التي تحاول سحق انسانية الانسان .

ان هذا الموقف ينبغي ان يكون في حكم المسلمات ، وبهذا المعنى يكتسب الأديب صفته كمناضل سلبي وايجابي ، يهدم ويبني ، ضد ومع في آن . ضد الطغيان والاذلال والتخلف والتحجر الغيبي ، كيفما تبدى وتحت أي قناع ، ومع كل المقهورين والمنهوبين ليس في وطنه فحسب ، وانما في العالم ايضاً . وتظل اللغة التي يعبر بها ، في حالتي السلب والايجاب ، شيئاً خاصاً به وحده .

وهكذا يتبدى لنا أن محتوى الالتزام الثوري بالمسائل الرئيسية يظل قائماً ، وربما كمن الخلاف في الشكل فقط .

ينبغي ان ننبه بحذر الى أن أسوأ طرح للالتزام ، هو تحميله معاني القسر والالزام ، وهذا في رأينا يساوي الارهاب بمعنى من المعاني .

ان الأدب العربي الثوري عدو بطبيعته ، التي تنزع الى الحرية ، لكل نظام ارهابي ، ولأنه وعي متقدم بالضرورة ، فالتزامه ينبثق منه على نحو طوعي ، وبهذا المعنى يصبح الالتزام حالة اختيار محضة .

لقد مضت الى الأبد تلك العصور التي كان الأدباء فيها يساقون الى القصور وبلاط الامراء لينشدوا للملك والوزراء والحاشية ، أناشيد الاطراء والثناء المتخمة بالكذب والمبالغات والزلفى ، كما ان عهود المكارثية والجدانوفية الستالينية ، التي كانت تضطهد الكتاب والمفكرين ، وتقسر الشعراء على كتابة الأناشيد المفرحة للعمال والفلاحين ليرقصوا على ايقاعها وهم في طريقهم الى معاملهم

وحقولهم ، هذه العصور قد انقرضت . ان عمليات القسر تلك ، كانت من أكبر عمليات التزوير والارهاب في تاريخ الأدب ، ذلك لأن أدباً يولد تحت الضغط والارهاب والتهديد ، لن يكون أكثر من عملية قيصرية لوليد سيأتي ميتاً أو مشوّهاً .

وفي هذا المجال ينبغي التفريق بلا تحفظ أو تردد بين أدب ثوري مبدع ، وبين أدب هش ، فارغ ، دعائي ، مهما احتوى هذا الاخير من بالونات وهتافات وشعارات ، ظاهرها ربما خدعنا بأنه ثوري .

ان الثورة في الفهم الاساسي لها ، ابداع مستمر ، والادب الهش المنافق الذي ينفخ في مزامير فارغة ليخرج أصواتاً ثورية فقط ، لا يختلف أبداً عن السياسي الانتهازي الملوّن بأصباغ ثورية . ان كلاً من هذين المخلوقين المشوّهين ، طحلب يتسلق جذع الثورة لامتصاص نسغها .

وعند هذه النقطة بالذات ربما كان علينا أن نتوقف قليلا ، لنفصل بين أدب الدعاية والطبول ، وبين الادب المبدع الذي يوقع في النفس الانسانية اسمى المشاعر وأرهفها وأعمقها تأثيراً بخفوت مشحون ، متحرك ، خصب ، بعيداً عن أي ضجيج وهتاف مرحلي كاذب .

من الغباوة والسطحية أن نقيس الأدب الثوري بالكلمات الصاخبة المرنانة ، التي تحاول أن تسوّغ نفسها بأنها قريبة الى أذهان الجماهير وفهمها .

فنسمّي أدباً كهذا بالأدب الثوري الشعبي المفهوم ، بينما نتهم أدباً لا يحوي مفردات ثورية صريحة ، لكنه يحكي بهدوء وحزن وعمق مأساة الانسان وكفاحه في وجه القوى الشريرة والعلائق العتيقة المنحطة ، ونسميه أدباً غامضاً غير مفهوم وليس ملتزماً بقضايا الجماهير .

ان تثقيف الجماهير لا يتم بخطابات شعرية ، أو محاضرات قصصية ، أو بيانات مسرحية . وهذا النوع من الأدب بالاضافة الى كونه فاقد القيمة من الناحية الفنية ، ليس أكثر من عملية تزلف وتدليس للجماهير أو السلطة الحاكمة أحياناً . وربما تحول الى عملية تسطيح وتشويه لوعي الجماهير ، هذا الوعي الذي ينبغي أن يعمق ويخصب ، وتفتح أمامه كشوفات جديدة حضارية وانسانية ، أبعد وأغنى من الشعارات السياسية المطروحة .

ان هذه المهمة الابداعية ــ الحضارية ، لرفع مستوى الجماهير وتربية ذوقها وتطهير حسّها الفني والجمالي بأدب مبدع خلاق له صفة الشمول والخارد ، هي من المهمات الرئيسية للأديب الثوري المبدع ، المحتاز للوعي والتقدمية ، والذي يكتشف روح وضمير الشعب فيطلق هذه الروح ويحررها بلا وصاية ، موغلاً بجرأة وصدق نحو الحقائق العارية ، ونحو جذور الأشياء .

كيف يمكن أن يكون الاديب العربي فاعلاً ومؤثراً في وضع لبنة من لبنات التقدم في حضارته الجديدة ؟ وكيف يسهم عملياً في تهيئة الانسان الجديد ، غاية الثورة أولاً وأخيراً ؟

في البدء تحدثنا عن العزلة وغياب الاديب وانفصاله عن الشعب والمجتمع ، وهذا قد يحدده ردّ فعل الاديب أمام النظام والسلطة .

في مجتمع متخلف مجزأ ، السلطة فيه غير ثورية ، غبية ، حمقاء ، وخائفة ، قد يحدث ردّ الفعل من السلطة إياها ضد الاديب ، وبذلك يعدم أي مناخ لتحرك الاديب ، وبالتالي يصبح الاديب شيئاً ثانوياً على هامش حركة التاريخ .

وفي كلا الحالتين ، نرى أن الاديب مصادم بالسلطة اليوم أو غداً .

وهذه مسألة حساسة وخطيرة .

فالنظام والدولة التي لا تثق بأدبائها ، هي بالتالي لا تثق بنفسها ، وهي بذلك انما تنبيء عن نفسها بانها أداة قمع وارهاب ، لا اداة تقدم وحضارة .

ولكي يكون الاديب فاعلاً ومؤثراً ، لا بد من الثقة المتبادلة بين الاديب والنظام ، بل لا بد للنظام من احترام أدبائه واعطائهم الحرية والمناخ الحيوي لكي يبدعوا ويقدموا كل طاقاتهم وامكاناتهم .

ان تهيئة الوسائل المادية والمعنوية للأديب ، قضية أساسية في عملية الخلق الفني والعطاء الحضاري ، ومن التجني القاء المسؤولية على عاتق الأديب وتبرئة الدولة .

فقضية النشر وحرية الكلمة المسؤولة وتبني الاعمال والآثار الأدبية في مؤسسات الدولة ، في التربية والاعلام والثقافة ، تقع بالدرجة الأولى على عاتق الدولة . وهذه المؤسسات مطالبة بالتفاعل مع الاديب ، وتشجيعه وانزال آثاره وأعماله المنزلة الاولى واللائقة في المدارس والمسارح والسينما والاذاعة والتلفزيون والصحف والمجلات . والدولة التي لا تقيم كبير وزن للأثر الأدبي ، فتنظر إليه باستخفاف وعامشية ، إنما هي دولة قاصرة ، عاجزة عن فهم روح الفن وروح التغيير الجذري للتاريخ ، مصابة بفقدان الذاكرة ، ليس بمقدورها استيعاب المفهوم الحضاري لتقدم الشعوب .

في الوطن العربي المتخلف والمجزأ ، حيث ترتفع رايات الاقليمية فوق تراب الأرض وتراب النفس ، يتحرك الادب العربي ببطء وذاتية وضمن نطاق قطري محدود .

ان هذا نتيجة طبيعية للتجزئة التي ترسخت ، فصارت لها قوانين وتشريعات ومؤسسات. فالكتاب والمجلة والصحيفة ، مصادمة بالعوائق والحدود

الاقليمية ، والكتاب والمجلة والصحيفة مهددة بالمصادرة والمنع ، وحتى مضمون الأثر الادبي اكتسب مع الزمن معنى اقليمياً ضيقاً . ودور النشر التجارية تلعب دور اللص المحترف في استلاب المواهب والتصرّف بالادباء كما تشاء ، في الوقت الذي يقف الأديب فيه أعزل من كل الأسلحة أمام عملية النهب هـذه ، ودور النشر الرسمية غارقة في البيروقراطية والاقليمية والخوف وممارسة الوصاية ، تلعب دور شرطي الاخلاق على الادب .

ان مؤتمركم هذا لكي يكون جادّاً وفاعلاً ، وحتى لا تكون توصياته ومقرراته حبراً على ورق ، وحتى يختتم أعماله بروح مسؤولة وتنفيذية ، منطلقة من روح هذه المرحلة الخطرة ومسؤولية الاديب والدولة ، وكي يسهم فعلاً في بناء مجتمع عربي اشتراكي معاصر مطالب :

١ - بتحديد الدور التاريخي الذي يمكن أن يقوم به الأديب العربي في المرحلة الراهنة من حياة الانسان العربي والأمة العربية المهددين بالانقراض .

٢ - بتهيئة مناخ الحرية الواعية للأديب العربي لكي يبدع ويقول كلمته المسؤولة دونما خوف من منع أو مصادرة .

٣ - بأن تفتح الأنظمة العربية التقدمية خاصة صدرها للنقد البنّاء المؤسس على روح واعية مسؤولة بغية خلق مناخ ايجابي حرّ وثقة متبادلة بين الأديب والدولة التقدمية نواة الدولة العربية المعاصرة .

٤ - بأن يؤكد في توصياته على ايجاد آلية صيغة عملية وحدوية بين الأنظمة التقدمية لمواجهة الغزو الصهيوني النازي الذي يهدد وجود الانسان العربي وحضارة العرب الثقافية .

٥ - بفتح الحدود العربية أمام الكتاب والمجلة والصحيفة العربية التي تهتم

بالأدب والثقافة والفكر الجادّ العميق الهادف ، وأن تكون الاتحادات الفرعية مسؤولة عن تنفيذ ذلك .

٦ ـ بأن يعلن المؤتمر رفضه الحاسم للحلول السلمية المطروحة التي تكرس هزيمة الأمة العربية والانسان العربي ، وان يقف بحزم مع الثورة الفدائية المسلحة التي يخوضها الفدائيون ضد الغزاة الصهاينة الفاشيين .

٧ ـ باتاحة المجال بشكل عملي لنشر الأعمال الادبية في أقطار عربيـــة امكانات النشر غير التجارية متوافرة فيها ، وتكون الاتحادات الفرعية مسؤولة عن ذلك .

٨ ـ بانشاء دار نشر مركزية خاصة باتحاد الأدباء العرب مسؤولة عن نشر الآثار والأعمال الأدبية للأدباء العرب في جميع أقطارهم .

٩ ـ بتشجيع أدب الأطفال لأهميته التربوية ، وذلك باصدار مجلة للأطفال يشرف عليها الاتحاد المركزي للأدباء العرب .

١٠ ـ باتخاذ توصية لوزارات التربية في الاقطار العربية ، لتدريس آثار الأدباء العرب في الكتب التي تطبعها هذه الوزارات بشكل قومي غير اقليمي .

مؤتمر للأدباء نعم..

ولكن كيف؟

حنامينه

الذين كانوا يتوقعون من مؤتمر الأدباء العرب السابع في بغداد نتائج غير التي أعطاها صنعوا خيبتهم بأنفسهم. كتبوا، مثلاً: المؤتمر سيسفر عن مقررات خطيرة! وفي مانشيتات، على عرض سبعة اعمدة، قرأنا هذا العنوان: وثائق أدبية تاريخية يصدرها غداً المؤتمر! وكل يوم، طوال انعقاده، ظل الذين يحاربون بالمنظار على الجبهة الأدبية، يرفعون منسوب المزايدات: كلمات الأدباء تتحول الى رصاصات! وزاد بعضهم وهو معجب باكتشافه: الى قذائف! ولكي لايفوت القطار، تعلق آخرون بذيله، واعلنوا وهم يقوّصون في الفراغ: الى قنابل! ولما لم يبق ما يقال، عمد المتأخرون الى الوصف فقالوا: قنابل ذرية!

لماذا ، ياسادتي ، هذه المزايدات ؟ لاجواب .. هكذا جرت العادة ، واكثر الناس ، في عالمنا العربي ، يتمسكون بالعادات ، تمسكهم بشجرات النسب ، وبالاوقاف الذرية ، وبالعقلية « الحميدية » التي يتوارثونها أباً عن جد .

وانتهى المؤتمر .. كما تنتهي كل المؤتمرات ، انتهى المؤتمر .. لامقررات خطيرة ، ولا وثائق تاريخية او قنابل ذرية . بيان ، ونداء ، وتوصيات معقولة ، وتأكيد – وهذا هو المهم – على الخط التحرري ، التقدمي ، للأدب العربي ، هذا الخط المسئول ، الذي اصبح تأكيده تقليداً ، نطوره عاماً بعد عام ، ونعمقه في ذواتنا أولاً ، وفي انتاجنا ثانياً ، ثم نبحث ، في اطار اللقاءات والحوارات ، على هامش المؤتمر وفي رحاب صداقاته ، بين ادباء نعرفهم ، وادباء نتعرف اليهم ، عن آخر ما احدثنا من شعر وقصة ، واحدث ماصدر من رواية او مسرحية ، واجد مافي النقد والبحث والمفاهيم والاشكال الادبية ، وندشن ، في هذا الجو من عيد الكلمة ، صداقات جديدة ، ونجدد صداقات قديمة ، ونطلع على حياة البلد المضيف : مدنه ، ريفه ، آثاره ، معاهده ، منجزاته الاجتماعية ، حياته الفكرية ، ونتعرف ، عن كثب ، الى قضاياه ، ونشرح لأبنائه قضايانا ، ونعقد العزم ، جميعاً ، على العمل بمزيد من الجدية ، ومزيد من الاصالة ، لخدمة القضية الكبرى ، التي تقرع اسماعنا قرع النواقيس في ليالي الخطر .

هذه الحصيلة – وليست قليلة في رأيي – قد كانت واضحة للأدباء قبل سفرهم الى المؤتمر وخلاله ، وقد تحققت في المؤتمر السابع كما تحققت في المؤتمر السادس وما قبله ، واذن فلا خيبة ولا شكوى بالنسبة للذين يعانون الكلمة خلقاً ، ويعيشونها فعلا ، ويؤمنون بها وسيلة تعبيرية تأخذ حيزها الكبير ، وتعطي اثرها الكبير ، حين تستعمل في مكانها ، في الجملة التي تحيلها من صمم

الى نغم ، من جهاد على الورق الى حياة في النفس ، نحن الذين نمد الكلمات بها ، ونحن الذين ننفخها فيها ، فتستحيل حفنة التراب الى آدم وحواء وزهر وثمر ، من خلقنا هذه المادة ، نحن آلهة الخلق الأدبي ، الذين نقول للكلمات كوني كائنات فتكون .

الكمان ، في حقيقتها ، قطعـــة خشب ، والناي عقلة قصب ، والقلم مجوف للحبر أو الرصاص ، والمبضع اداة حادة من فولاذ ، والسلاح حديد ميت ، كل هذه الآلات التي تبدع اللحن وتخلق الشعر وتنقذ القلب وتقاتل العدو ، جمادات في الجمادات ، نحن الذين نعطيها من حياتنا حياة ، ومن حرارتنا حرارة ، ومن ارادتنا ارادة ، وعظمتها ، فيما تعطي من اثر ، موصولة باليد التي تحملها ، متوقفة على القدرة التي تستعملها ، فاذا لم يكن الابداع فينا ، موهبة ووعياً ، فلن ينتقل منا الى اشيائنا ، ولن تنفع المواعظ والمعلقات في اذكاء النار في صدور آلهة الخلق اذا لم يكونوا آلهة في الأصل .

ولو فهم السادة المؤتمرون هذه الحقيقة - او لو عملوا بها في حالة الفهم - لكانت جرار المؤتمر أشهى خمراً ، واوفى امتلاء ، ولكانت الغلال ، في مجال الدراسات ، بيادر حنطة لا زؤان ، أو كانت بيادر حنطة لا يخالطها الكثير من الزؤان ، وكنا عدنا من مؤتمرنا ، كما يعود الزارعون الحاصدون من الحقول ، بثمر كثير ، هو زادنا بين مؤتمرين ، وهو شهادتنا امام الذين ارسلونا ، وامام الذين استقبلونا ، وامام ضمائرنا التي لا ينفع معها تمويه ولا مداجاة .

اما الذي حدث ، بداية ووسطاً ونهاية ، فقد كان شيئاً آخر ، جعل حصيلة المؤتمر كما كانت متوقعة : محدودة ، تقليدية ، متناسبة ، لا مع المعركة التي عقد تحت شعارها ، بل مع فهم خاطىء لـ « كل شيء لأجلها » ، هـــذا

« الكل مني » الذي استغله بعضهم ليجعلوا نهر الكفاح العظيم وادياً للسيل ، يحمل مع الماء الحجارة القاتلة ، ورأى فيه بعضهم « الكل في خيره وشره » وانه ، مع قليل من التنظيم ، الكثير من الفوضى ، والارتجال ، والخطب ، و كأن لانكسة حزيران ولا دروس ، و كأن المؤتمر باحة فخر جاهلية ، وأن الكلمات تتحول الى رصاصات لمجرد النطق بها ، بل أن كلماتهم ذاتها هي الرصاصات المجدية ، وقد اطلقوها في دونكيشوتية مضحكة ، واقنعوا انفسهم أنهم أدوا دورهم في المعركة ، وان « العدو الجرذ » قد سحق بالاعقاب الحديدية لخطاباتهم العنترية .

• • •

في الأوائل من نيسان المنصرم ، تردد ان وفد سورية الى مؤتمر الأدباء السابع في بغداد قد تم تشكيله . ولم نعلم شيئاً عن تشكيلة الوفد وعلى أي أساس كانت ، او ربما لم يعلم اعضاء الوفد انفسهم الا حين نشرت الاسماء في الصحف . ثمة من يبرر هذا التصرف بانه نتيجة لعدم وجود اتحاد للكتاب حتى الآن ، ولكن تأخر وجود اتحاد للكتاب حتى الآن هو نفسه يحتاج الى تبرير ، وقد يصعب هذا التبرير اذا ظل الادباء يجدون انفسهم امام واقع من صنع غيرهم ، سواء في التهيئة لانشاء الاتحاد ، او في كيفية انشاء هـــذا الاتحاد ، في تشكيل الوفد ، او المهمات التي انيطت باعضاء الوفد .

الدعوة الموجهة الى سورية لارسال وفد لمؤتمر الادباء السابع في بغداد تشترط تقديم الابحاث قبل الاول من نيسان ، والوفد لم يتم اختياره الا بعد هذا التاريخ ، ولم يعلن الا في منتصف نيسان ، وكان الوقت قـــد مضى لا لاعداد أي بحث ، بل للتفكير باي بحث ، ولم يعقد الوفد ، بكامل اعضائه ، أي اجتماع قبل سفره ، وكل ماجرى أن اجتماعاً ضم بعض الاعضاء الموجودين في

دمشق عقد على عجل ، تقرر فيه ان يتولى بعض الاعضاء اعداد بحوث ، ولم يبلغ الاعضاء المكلفون بذلك ، لأن زميلاً من حمص كلف باعداد بحث عن الصهيونية والاستعمار ، وهو الموضوع الرئيسي في جدول الاعمال ، ولم يبلغ ، وفوجىء ان الصحف العراقية نشرت اسمه ، والموضوع المكلف به ، ولم يكن يعلم شيئاً عن ذلك ، ولم يعد شيئاً لذلك ، لأن المؤتمر كان قد بدأ حين علم بتكليفه عن طريق صحيفة المؤتمر .

هذا الارتجال عانت منه جميع الوفود ، وانسحب على الأبحاث بالتالي ، وقد كان طريفاً أن ينزوي المكلفون ، في أركان فنادقهم ، ليكتبوا بحوثهم ، دون أن تكون لديهم مراجع أو دراسات ، ودون أن يجدوا الوقت للتفكير والتمحيص والاعداد الكافي للابحاث ، والذين كتبوا بحوثهم قبل حضورهم الى المؤتمر ، لم يجدوا ، في ترتيبات الاجتماعات ، مجالاً لالقائها ، فقد أعطي للباحث خمس عشرة دقيقة لتلخيص بحثه ، والتلخيص كان ارتجالاً ، فلا يكاد المتكلم يمهد لموضوعه حتى ينتهي الوقت ، فلا يفهم المؤتمرون مما قال شيئاً ، ولا يجدون نص بحثه بين أيديهم ليتابعوه في فترات الراحة ، وليس من وقت مخصص للمناقشة حتى لو اطلعوا على النص ، وكثير من الباحثين تكلموا في الخطوط العريضة ، ووعدوا بكتابة بحوثهم فيما بعد وتسليمها الى رئاسة المؤتمر ليصار الى طبعها ، ثم لم يجدوا الوقت لكتابتها ، وحتى البحوث التي سلمت مكتوبة تأخرت طباعتها ، ووضعت النسخ في بهو قاعة الخلد التي عقد المؤتمر فيها ، وكثيراً ما كانت النسخ تنفد قبل أن تصل الى أيدي المؤتمرين ، وهذا الارتجال في « كل شيء » ، قدم تحت شعار « كل شيء » .. للمعركة ، وكان الله في عون المعركة !

من يحمل المسئولية في كل هذا ؟ ان تحديد المسئولية ، ومحاسبة أصحابها

جانها ، والتشدد في ذلك ، هو الذي يخدم المعركة اذا كنا جادين في الاعداد لها .
وفي رأيي أن المكتب الدائم لاتحاد الأدباء العرب هو الذي تقع عليه تبعة كل هذا ، والمكتب موجود وغير موجود ، فهو كائن منذ كانت المؤتمرات الأدبية العربية ، وهو عاجز منذ أن كانت هذه المؤتمرات ، لأن أمينه العام الذي يشغل وظائف لاحصر لها ، هو كل شيء في هذا المكتب ، وهو ، في الوقت نفسه ، لاشيء في هذا المكتب ، لأنه لايستطيع أن ينهض بمهام وظائفه كلها ، لايستطيع أن يتجزأ لها ، باعتباره الجوهر الفرد الذي لايتجزأ ، وباعتباره الواحد الأحد في عالم الادب ، الذي لايشرك في المسئوليات سواه .

لنتعلم من الاونيسكو ، مادمنا ، في الثقافة ، على تماس بها . أية حلقة دراسية تعدها الاونيسكو يتم الاعداد لها قبل ستة أشهر من انعقادها . يحدد الباحثون ، وتعد الأبحاث ، وتكون مطبوعة جاهزة ، وتكون منسقة ومحددة ، ويكون الوقت المخصص لالقائها ومناقشتها كافياً ، وهذا أبسط جانب في العقلية العلمية لعصرنا .

من هنا كان الوفد اللبناني على حق في أنه لم يتقدم بأي بحث ، بل رفض ، بادىء الأمر ، المشاركة في المؤتمر ، لولا أنه وضع في دائرة الاعتبارات المصيرية ، فوجد نفسه مضطراً الى انقاذ الشكل ، على حساب التضحية بالمضمون : بالفعالية الأدبية التي كان يقدر أنه سيسهم بها لو جرى الاعداد للمؤتمر كما يجب ، بل في الحدود المعقولة لما يجب .

. . .

..ودخلنا المؤتمر ونحن نمضغ مرارة هذا الارتجال في اعداد البحوث ، وفي تشكيل الوفود (بعضها ضم عدداً كبيراً من غير الادباء) وفي الاسماء التي نشرتها جريدة

المؤتمر (وهي صحيفة مؤقتة لتغطية اخباره) مغلوطة بشكل مؤسف جداً .فقد وزع علينا عددها الثاني فور وصولنا الى فندق « العراق » الذي نزل وفدنا فيه ، وبادرنا ، بلهفة المشتاق ، الى قراءة أسماء الوفود لنتعرف الى زملائنا ، فكانت الفجيعة أن بعضنا لم يتعرف الى اسمه ذاته إلا بصعوبة . سليمان الحش ، وزير التربية ورئيس الوفد (سليمان الحشن) قمر كيلاني (نمر كيلاني) نصوح فاخوري (نوح فاخوري) حنا مينه (حنا مسبته) وهناك اسم بيننا لم نكتشف صاحبه ، هو (محمد عبد الوارث) . ونظرنا في أسماء الوفود الاخرى فرأينا عجباً : عبدالله الطوخي (عبد الله الطوقي) محمد الحوفي (محمد الجوفي) .. الخ .. وفي زاوية الصفحة الأولى من نفس العـــدد ، ملاحظة من جريدة « المؤتمر » الى الصحف العراقية الأخرى ، تنبهها الى الخطأ في اسماء الوفود التي تنشرها ، وتطلب منها ان تصحح الاسماء عليها ، باعتبارها (مختصة) وتأخذ الاسماء من سجلات المؤتمر ، فتأمل ! وازدد تأملاً في واقع ان هذه الصحف اضطرت الى التصحيح ، فأبدلت الصح بالخطأ ، وأصبحت الاسماء المغلوطة هي المعتمدة ، لان لجنة استقبال مهرجان الشعر في البصرة أصدرت كتيباً أنيقاً وزعته على أعضاء الوفود ، وفيه الاسماء بالخطأ الذي كرسته جريدة « المؤتمر » ومهرته بطابعها الرسمي ! وكان من نتيجته ان العراقيين الذين هم خارج المؤتمر لم يكتشفوا الحقيقة ، ولم يعرفوا ان عبد الله الطوقي هو عبد الله الطوخي وان نمر كيلاني هي قمر كيلاني .

هذه العينات من ثمرات الارتجال ستنسى بعد حفلة الافتتاح مباشرة . هذه الحفلة ، في وقائعها الغريبة ، المهينة للكاتب ، والباعثة ، منذ اليوم الأول ، شعور التخمة والملل ، ستسحب غشيانها على كل جلسات المؤتمر ، وسيزداد هذا الغثيان في جلسات التعذيب الشعرية ، حتى يبلغ درجة القرف ، ويدفع بالمؤتمرين الى مغادرة القاعة ولما يمض الا وقت قصير على دخولها .

حفلة الافتتاح هذه ،تضمن جدول اعمالها تسع عشرة كلمة ! أربع عشرة كلمة للدول العربية ، وكلمة للبلد المضيف ، وكلمة للجامعة العربية ، واخرى لأمانة الاتحاد العام ، وثالثة لوفد فلسطين .. ورابعة .. وبدأت الخطابات ،وبعد كل منها ، حزمة من الفواصل : برقيات من الأدباء في الخارج ، بيانات من المنظمات ، مذكرات من مكاتب الهيئات والجبهات (مكتب امامة عمان،مكتب ارتيريا ..) وتقرير من أمانة الاتحاد العام للأدباء العرب ،عن الأعمال والمنجزات !

هكذا انقضت أربع ساعات ،ونحن على تخوم الكلمة السابعة بعد ، والباقي اثنتا عشرة كلمة ، دع عنك الفواصل ، واسقط من حسابك الهواية المحببة لدى العراقيين ، وهي وقوف الحاضرين منهم لإلقاء أبيات من الشعر ، يقاطعون بها الخطيب ، أو يجعلونه يستريح قليلا . وقد تدخلت رئاسة المؤتمر ، مرات ، لوقف ممارسة هذه الهواية ، ونجحت .

وقد حضر حفلة الافتتاح رئيس الجمهورية والقى كلمة موجزة ، وبقي ، مراعاة لرؤساء الوفود، حتى تنتهي كلماتهم ، وبقي اعضاء السلك الدبلوماسي العربي والاجنبي تقيداً بالبروتوكول ما دام رئيس الجمهورية باقياً ، وكثيرا ما كان هؤلاء الدبلوماسيون - وقد شجعهم تصرف المؤتمرين - يغادرون القاعة،فيدخنون ويقضون فترات طويلة في البهو او الحديقة، ويعودون اليها بعد ان خرجوا منها بعد ساعة او اكثر او اقل . وكان الداخل الى القاعة يسأل الباقين فيها ، الى أين وصلنا ؟ ويأتي الجواب : الكلمة التاسعة ، الكلمة العاشرة ، وتتعالى نفخات الضيق : بقي عشر او تسع كلمات !يعني عشر او تسع ساعات،الرحمة ! الرحمة !

سؤال : أما كان كافياً ،والدول العربية هذا عددها ، ان يتكلم مندوب

واحد باسمها ، ما دامت الكلمات تقليدية ، والحفلة رسمية ، مخصصة لافتتاح المؤتمر؟ ولماذا لم يعهد بذلك الى مندوب الجامعة العربية ، باعتبارها الممثلة الشرعية لكل الدول العربية المشتركة في المؤتمر ؟ واذا كان ضرورياً ان تتلى البرقيات ، فلماذا لم تطبع المذكرات والبيانات الطويلة وتوزع على المؤتمرين ويكتفى بالتنويه بها من على منصة المؤتمر ؟ وهذا الكشف بالاعمال والمنجزات يا امانة اتحاد الكتاب ، اما كان الأفضل ان يكون مستقلا عن حفلة الافتتاح وان يطبع ويوزع على الأعضاء ؟

للانصاف ، ينبغي ان نذكر ان بعض رؤساء الوفود ، وكانت الساعة قد قاربت منتصف الليل (الحفلة بدأت في الخامسة) اختصروا كلماتهم ، اما لأنهم ملوا الجلوس على منصة الرئاسة ، او لأنهم احسوا بملل المؤتمرين والمستمعين ، او لأن القاعة اصبحت شبه فارغة . وهكذا اسهموا - مشكورين - بالتخفيف من عذاب الناس ، وعجلوا باختتام الحفلة . وقد هنأ المؤتمرون بعضهم بعضا في ختامها ، وحمدوا الله ان المدعوين من الأدباء والمستشرقين في العالم ، امثال البرتو مورافيا وجاك بيرك وغيرهما لم يحضروا المؤتمر ولم يشهدوا حفلة افتتاحه !

نقطة جوهرية : ما هو محتوى كلمات الافتتاح التسع عشرة ؟ عند بعضهم كانت بروتوكولية ، خفيفة ، لطيفة ، فيها من الادب توشيحات او ظلال . ولكنها ، عند البعض الآخر ، كانت خطابات طويلة مجلجلة ، مستهلكة ،نفخت في صور المزايدات التي ستقوم سوقها منذ الآن ،وتستمر حتى نهاية المؤتمر فالمهرجان . واذا كانت قضية فلسطين - كما لاحظ نقاد ومسئولون عرب اكثر من مرة - قد كانت في الماضي تكأة لبعض العجزة ومتجراً لبعض الساسة وستارة اخفى العراة وراءها عوراتهم ، والمشعوذون عدتهم ، والحواة أفاعيهم ، فان الخطر ،بعد

نكسة حزيران ، ان يستطيع هؤلاء جميعـــا ان يجعلوا من الحركة الصاعدة : المقاومة ، ومن الاسم الكريم : الفداء ، معبراً الى غايات لا تمت الى المقـاومة والفداء بصلة .

ذلك ان الجميع تكلموا في المؤتمر والمهرجان عن المقاومة والعمل الفدائي ، بعضهم كان صادقاً ، طرح القضية طرحاً صحيحاً ، وبعضهم كان طيباً طرحها بسذاجة واسلوب عاطفي رغبي ، وفريق ، ولم يكن قليلاً ، اتخذمنها جواز مرور ليقول كلاماً في صالح الرجعيـــة والاستعمار وضد القضية الفلسطينية والتحرر والتقدم العربيين : المعصراني ، من الوفد الليبي ، خرج من بين الصفوف ، في انفعال مسرحي ، ليحتج على كلمة الرجعية التي وردت في بحث الزميل حيدر حيدر من الوفد السوري ، ذلك ان المعصراني وبعضاً من أمثاله ، كانوا حريصين في ابحاثهم وكلماتهم الكثيرة على التعميم والتجريد ، على تبرير مواقف الرجعية وتمييع وتبهيم كل القضايا المعروضة للبحث . وعيسى الناعوري – الذي جاء باسم الوفد الأردني – وكان شاذاً بين اعضاء هذا الوفد ومنتقداً منهم – لطم خدوده وتباكى على قضية فلسطين ، وهاجم الصهيونية ، ولكنه في نقلة سريعة ، صار الى جانب المنطق المعادي للقضية الفلسطينية . فقد اعلن ، مع التشديد على الكلمات ، ان الشرق والغرب – انتبه ! – ايدا ، ولا يزالان يؤيدان ، الصهيونية . ولأنه لا يستطيع الدفاع عن امريكا وبريطانيـــا ، فقد هاجم امريكا ، وهاجم معها الاتحاد السوفياتي ، واضعاً اصدقاءنا واعداءنا في كيس واحد ، ونزل وهو يتصبب عرقاً لفرط حماسته وجهاده !

وفي مدينة الزبير ، خلال مهرجان الشعر ، القى شاعر من هـذه المدينة قصيدة طويلة كليالي الهم ، جعلت الناس ، وهم في حمارة القيظ ، يخرجون من

السرادق ويهيمون على وجوههم فوق الرمال . القصيدة هذه لا علاقة لها بالشعر الا من ناحية النظم ، وهذا غير سليم ايضاً ، ومن ناحية القافية ، وهذه متنافرة ، لأن حيفا صارت (حيفاني) ويافا (يافاني) وقس على ذلك . والقصيدة «حديقة حيوانات » بالمعنى الحرفي للكلمة ، لان صاحبها لم يدع حيواناً الا حشره فيها ، ثم هي في المطولات بحيث استغرق ، ما القى منها فقط ، ساعتين كاملتين تقريباً وهي في الحماسة من القنابل الخلبية ، وربا للطبول ! وفي الفهم تحريف ، وفي السياسة استفزاز ضد الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفياتي ، وفي اللياقة .. وهل بقيت لياقة ! ؟

وكان الشاعر قد مهد لعصمائه بخطاب وصفنا فيه بالبهائم ، وقال عن ادب الحاضر بانه جعجعة وكلمات فارغة ، ونصحنا بترك هذه « الحيونة » لنكون بشراً ، وأمرنا بتحويل الأقلام الى بنادق ومدافع وصواريخ ، وناشدنا ان ننفر الى المعركة مسلحين بالسيوف والعصي والنبال ، لان اجدادنا قاتلوا بها وانتصروا !!

في النصف ساعة الأول ، وكان الخطاب قد انتهى ، ظن المؤتمرون (الذين وصلوا الزبير بعد رحلة طولها ١٥٠ كيلو متراً ، تحت وطأة حر لاهب ، وتناولوا الغداء – وبعضهم اكتفى بالفواكه خوفاً من الحر – وجلسوا تحت السرادق لالتقاط انفاسهم) ان الرجل تكلم نثراً ، وانه غشيم ، او ارعن ، وتقبلوه بين الامتعاض والسخرية ، بين الجد ، لياقة ، والهزل ، كفراً باللياقة ، لكنه ما ان بدأ الشعر حتى اغمي عليهم ، وانقلب الجو ، مع التخبيص الشعري والفكري ، الى التنكيت ، ثم الى الضحك ، فالضجيج ، فالصراخ ، واراد بعضهم اثبات غفلة الشاعر فصاح به : أعد ، والعادة في العراق ان يعيد الشاعر المورد كله – مهما تبلغ أبياته – بمجرد سماع هذه الكلمة ، ولم يشذ عنها هو ، فعمد بعضهم الى

التصفيق تسلية وهزءاً ، واعتبر ذلك اعجاباً فازداد حماسة وترديداً ، وانقلبت الجلسة كلها الى مهزلة ، وتدخل وزير الثقافة العراقي للتهدئة ، وراحت الرسل تغمز الشاعر ، وتلمزه ، وتشده ، وتنعره ، لكنه ثبت قدمه وراء الميكرفون وقال لها: « من تحت اخمصك الشعر » .

يقال ان القصيدة كانت سبع مئة بيت قرأ منهـا النصف . في رواية اخرى ان القصيدة ٥٠٠ بيت قرأمنها الثلثين. المهم ان الحاضرين ضجوا وقاطعوا فاضطر الى التوقف ، وقام وزير الثقافة العراقي ليعتذر الى الناس عن كل ما قاله شاعر الزبير المصقع ، وخاصة من الناحية السياسية .

هذه النماذج من اعتلاء صهوة فرس الفـداء ، وتمرير الدس من تحت سرجها ، ستكرر في مؤتمر الأدباء ولجانه ومهرجان الشعر جميعاً . وهذا التهويل والانفعال ، والحماسة الزبدية ، وبكلمة : هذه المستهلكات ، ستتكرر ايضاً ، وستلاحقنا في الوثائق التي يطبعها المؤتمر ، لأنها دخلت في التراث الأدبي لمؤتمراتنا الأدبية !

* * *

بعد حفلة الافتتاح ، وباستثناء بعض الابحاث الجيدة : بحث غالي شكري من مصر ، وبحث حيدر حيدرمن سورية ، وبحث الدكتور صلاح خالص (من الناحية الفكرية) من العراق ، وبحث حسن الجشي من البحرين ، وبعض الابحاث التي لم يتسع الوقت المحدد لتلخيصها ولم تطبع لأنها ليست مكتوبة ، مثل بحث الدكتور انطون مقدسي (من سورية) عن التراث وغيره ، اقول : بعد حفلة الافتتاح ، وباستثناء هذه البحوث ، لم يثر المؤتمر الا أقـل الاهتمام لدى

المؤتمرين . ان ملاحظة اديب خضور في جريدة « البعث » السورية عن « عدم جدية العدد الكبير من اعضاء الوفود .. الذين كانوا لا يحضرون الجلسات او يحضرون الدقائق الأولى ثم ينسحبون ، ويهتمون بكل شيء الا بالمؤتمر » تجد تفسيرها في واقع ان ابحاث المؤتمر لم تكن تجتذب المؤتمرين . فقد وقع الأدباء والمفكرون – وكانوا قلة بين الحاضرين – تحت منخفض الغثاثة اللفظية للضفادع الهرمة ، وترنحوا تحت مطارق السادة الحدادين الذين جاءوا المؤتمر بعضلات جلدية وشوارب نابليونية ، فشدوا وثاق الأدباء الى سنداناتهم ، ووضعوا رؤوسهم على مطـارقها ، وشرعوا بالهرس ، ناسبين الى الأدب كل اسباب النكسة ، كما نسب احدهم ، في لجنة دور الاديب في بناء المجتمع العصري ، اسباب النكسة الى « الميني جوب » وقـدم اقتراحاً بذلك طلب التصويت عليه !

في لجان المؤتمر ، كان على الاعضاء ، دون أن يعرف بعضهم بعضاً ، ودون أن يقرأوا الابحاث أو يناقشوها ، ان يعالجوا القضايا التالية ، ويصدروا بهـا قرارات : ١ – دور الادب في مكافحة الصهيونية والاستعمار ٢ – دور الاديب العربي في بناء المجتمع العربي ٣ – أدب ما بعد الخامس من حزيران ٤ – الاديب والتراث ٥ – مشكلات النشر والتفرغ .

واجتمعت لجنة « دور الاديب العربي في بناء المجتمع العصري » – وكنت عضواً فيها – في القاعة الخلفية الواسعة لمكان المؤتمر ، حيث اجتمعت اللجان الخمس الاخرى . خلية النحل ، في الطنين العام ، تحولت الى مباءة زنابير ، الى ضجة حمام عثماني : « ماذا تقول ؟ ارفع صوتك ! دور الأديب ! مشكلة النشر !

لا ، التراث ! التراث ! قبل حزيران لم يكن الادب على مستوى المعركة ! أيها الزملاء ، لتتحول كلماتكم الى رصاصات ! » واتضح ان التداخل الصوتي لن يسمح بالفهم أو التفاهم ، وتلفتنا نبحث عن مخرج ، واقترح بعضهم الخروج الى المرج الواسع المحيط بالقاعة ، وفوراً حمل الاعضاء كراسيهم واوراقهم ، وتحلقوا فوق العشب الاخضر ، واضعين اجسادهم على المقاعد وادواتهم على الارض ، وبدأت المناقشات ، وبدأت اللجان تقتفي خطانا .

لا أريد أن ارسم صورة كاريكاتورية لما حدث . ولكن ماذا افعل ولكم علي - أنتم الذين دفعتم نفقات سفري - ان اصارحكم واحدثكم ؟ حسناً ! قال رئيس اللجنة - وهو زميل من ليبيا - ان الامور اصبحت واضحة ، ولا تحتـــاج الى المزيد من الكلام . قدموا اقتراحاتكم فقط . وجاءت اصوات التأييد : صحيح ! صحيح ! وللفور انبرت الاقلام تخط على الورق . ثلاثة من الدكاترة - لا أدري بأي اختصاص - تقدموا باقتراح فوري للتصويت وانهاء عمل اللجنة . الاقتراح يقول : « بناء المجتمع العربي العصري يتم باحترام القيم الروحية الرفيعة الازلية .. » جميل ! جيد ! هذا هو !..

- كيف هذا هو ؟

- أية قيم رفيعة ازلية هذه ؟

وصاح الدكاترة بغضب :

- ماذا ؟ هرطقة ؟ اتنكرون أزلية القيم ؟

وقال زميل :

- طبعاً ننكر .. ليست هناك قيم أزلية لا تتبدل !

- وحتى قيمنا العربية ؟

ـ حتى قيمنا العربية !

ـ اعوذ بالله !

ـ لا تقاطعوا .. الكلام بالدور ..

ـ سجل إذن يادكتور ! سجل هذا الكلام .. انتبه .. اعطي حق الكلام يا سيدي الرئيس .. هذا لا يجوز .. هذا لا يجوز !

وتابع الزميل الكلام :

ـ يجوز .. اسمحوا لي .. نحن نبحث في بناء المجتمع العصري ، لايمكن التصويت على أي اقتراح قبل المناقشة .. نحن نعلم ونؤمن ان القيم تتبدل ، والعادات تتبدل ، والاخلاق تتبدل .

ـ اعوذ بالله ! اعوذ بالله ..

ـ لا تقاطعوا ..

ـ اعوذ بالله .. القيم الرفيعة الأزلية تتبدل !؟

ـ نعم تتبدل .. وقد ادرك عمر بن الخطاب ، قبل قرن ونصف تقريباً ، الحقيقة التي لاتدركونها إنتم ، فقال : لا تقسروا اولادكم على عاداتكم ـ والعادات قيم من القيم ـ فقد خلقوا لزمان غير زمانكم ، القيم تتبدل ، والقوانين تتبدل ، والعادات تتبدل ، ومن الخير ان تتبدل ، وإلا لاحتفظنا بعادة وأد البنات أو عادة العصبية الجاهلية وكل العادات السيئة .. أنا اقترح

ـ قدم اقتراحك مكتوباً ..

ـ سنرد على اقتراحه ..

ـ حسناً .. قدموا اقتراحكم .

وتقـــدم الزميل باقتراح يعرف المجتمع العربي العصري بأنه المجتمع المتحرر ، الموحد ، الديمقراطي ، المتطور صناعياً وزراعياً .. وان دور الاديب في بنائه يقوم على الاسهام في نشر العقلية العلمية ، وفي الكفاح للتحرر من الاستعمار والصهيونية والرجعية ، وفي تأييد المنجزات التقدمية التي تتم في الاقطار العربية والسعي لتخليص الانسان العربي من الاوهام والخرافات والعادات البالية المعيقة لمسيرته .. الخ ..

وقال زميل آخر :

– اقترح ان ينص على تعرية الانسان العربي من الزيف ..

وصاح دكتور مقاطعاً :

– ارجوك ! نحن بحاجة الى أن نكسو الانسان العربي لا أن نعريه .

– أنا لم اتعرض للباس ..

– ولكنك قلت نعريه .

– لا تقاطعوا .. اطلبوا الكلام من الرئاسة .

– ارجوكم .. أنا لا أوافق على عبـارة العقلية العلميـــة .. العلم شيء والادب شيء .. نحن ادباء لا علمـــاء ، لا تحشروا العلم والسياسة والمذاهب في الادب .

– وكيف نبني المجتمع العصري ؟

– بالقيم الروحية الرفيعة ؟

– والعوامل المادية ؟

– لسنا ماديين ! !

- مبروك فهمكم !!

- ومبروك « علمك »

ثلاث ساعات انقضت والنقاش في هذا المستوى .. جبهـة الدكاترة - العقالات التي كانت متماسكة تزعزعت . وجدت ان منطقها رهيب الى درجة انني اعف عن ذكر الاسماء .. وكان الليل قد هبط ، وزميلنا ممدوح عدوان - مقرر اللجنة - قد تعب من الكتابة ، وتكدست لديه اقتراحات تحتاج الى يوم كامل للتنسيق .. ولأنه لا يمكن الاستمرار في الظلام - ولدينا حفلة حان ميعادها - فقد تأجلت صياغة المقترحات الى اليوم التالي .. وصدرت بعد مخاض صعب ، بعد تمييع جعلها مقبولة في خطها العريض ليس إلا ..

. . .

هذه الوقائع ، لو أحسن تشكيل الوفود ، واختصر بعضهـا ، لكانت في صورة أخرى ، اقرب الى جو الفكر والأدب. في بداية الكلام انتقدت طريقة تشكيل وفدنا ، ولكن هذا الوفد - الذي حجب عن رؤوس الجلسات واللجان وضعفت فعاليته بسبب من ذلك - كان منسجماً فكرياً على الأقل ، كان - في الحد المعقول - لا ينسى انه وفد أدبي ، وانه يمثل بلداً متحرراً تقدمياً ، بخلاف وفود أخرى ، ومنها وفد مصر الكبير ، الذي ضم عدداً ملحوظاً من غير الأدباء ، أو من الذين مارسوا الأدب عن طريق شهادة الدكتوراه او التدريس الجامعي ، وحملوا عقلية الماضي ، وعبدوها « قيماً روحية رفيعة أزلية ثابتة » .. ولقد كان مفهوماً ان يأتي ممثل عن الجامعة العربية ، وان يكون أديباً أو باحثاً ، فهذا رمز ، اما ان يأتي ثلاثة او أربعة باسم الجامعة ، والا يكونوا في الأدباء او الباحثين ، ثم يخطبوا في

الأدب، ويخطبوا في الشعر ، ويخطبوا في المناقشات ، وان تكون ثمـــة وفود رمزية مماثلة في الأدب والخطابة، فهذا تحميل للمؤتمر فوق مايحمل ، سماح للأعشاب ان تعطل نمو الزرع ، ان تضعف سنابله.

أقول هذا لكي نفيد منه في المؤتمرات المقبلة ، وأرجو ـ على ثقة قليلة .. ان نفيد ، فالمؤتمرات الأدبية على الهيئة التي عرفناها بها ، طوال خمسة عشر عاماً، قد إستنفدت أغراضها ، وعلينا ان نبحث عن اسلوب جديد لها ،ينتفي منه الإرتجال، وتتوفر فيه المقومات اللازمة ، وتكون الأبحاث محددة ، موزعة سلفاً على البلدان العربية ، يؤتى بهـــا الى المؤتمر ومطبوعة ، فتوزع فوراً ، ويعطى الوقت الكافي لدراستها ومناقشتها ، والوقت اللازم لصياغتها في مقررات وتوصيات ، اذا ترجمت الى اللغات الأخرى أمكننا القول : هذه وثائقنا .

اقتراح : ان تكون بين المؤتمرات العامة ، كل سنة او سنتين ، ندوات مخصوصة ، للشعر الحديث ، للقصة القصيرة ، الرواية ، النقد الأدبي للأبحاث ، لتسويق الكتاب ـ هذه العلة المزمنة ـ يحضرها العاملون المبدعون في هذه الحقول ، المعترف بهم في أقطارهم وعلى نطاق العالم العربي ، ويتوفر لهم الهدوء لبحث كل موضوع ، والخروج بنتائج اذا نشرت أضافت جـــديداً الى الفرع الذي صدرت فيه .

اقتراح آخر : ان يكون مكتب الاتحاد العام للكتاب العرب هيئة فعلية لا رمزية . ان يضم ممثلين عن بعض الأقطـــار العربية ، يعد للندوات والمؤتمرات ويتحمل المسؤولية ويحاسب عليها . أي ان يحمل هم الأدب العربي ، ويبحث عن سبل شق المجاري أمامه ، والارتقاء به ، ولفت أنظار العالم إليه .

اقتراح ثالث : ألا تكون برامج منوعات خلال المؤتمر . بعده يمكن تنظيم رحلات الاطلاع على المنجزات ، والتعرف الى المدن والآثار ، وحضور امسيات مسرحية أو فنية ، اما خلاله فليس إلا العمل ، على ألا تكون الجلسات متتابعة صباحاً ومساء ، بل تترك فترات كافية للراحة ، لهضم الأبحاث ودراسة المواضيع المطروحة ، وتكوين رأي أو إعداد اقتراح بشأنها .

رابع : ان تلغى المآدب الرسمية . مأدبة واحدة ، اذا لم يكن منها بد ، كافية . المندوبون يأكلون في فنادقهم ، ويتوفرون على اعمالهم . نربح الوقت وصفاء الذهن ونقتصد في النفقات .

خامس : الإقلاع عن إعتبار جميع الأدباء في البلد المضيف – كما جرى في مؤتمري القاهرة وبغداد الأخيرين – أعضاء في وفد ذلك البلد . هذا يضعنا في الزحام والفضفضة . حجم الوفود لاتحدده نفقات السفر والإقامة ، بل متطلبات المواضيع المبحوثة . كذلك لاتحدده سياسة المراضاة والاعتبارات المحلية . هذه يمكن ملاحظتها عند تشكيل الوفد ، وبذلك نظل في الجدية اللائقة .

سادس : تنويع موضوعات المؤتمرات وعدم التكرار فيها. رفع المواضيع السابقة ، وطرح مواضيع جديدة ، يفرضها منطق العصر والتطور اللاحق بالعالم العربي . وهذا يقتضي دراسة شاملة لأعمال المؤتمرات السابقة ، والاتفاق بين البلد المضيف وأمانة الاتحاد العام على جدول أعمال كل مؤتمر قبل إعلان تاريخه .

سابع : تكليف مكتب أمانة الاتحاد العام ، بإصدار كتاب يتضمن أبحاث المؤتمرات السبعة ، أهمها على الأقل ، يوزع في العالم العربي ليكون مرجعاً للدارسين وإضاءة للمؤتمرين .

ثامن : أن يتولى مكتب أمانة الاتحاد العام ، خلال مؤتمرين، مهمة إطلاع الاتحادات والجمعيات الأدبية في العالم العربي والعالم، على أبرز الأحداث الأدبية : قيام اتحادات جديدة ، عقد ندوات ، توجيه بيانات الخ ..

تاسع : أن يتولى مكتب أمانة الاتحاد العام ، خلال مؤتمرين ، الدفاع عن حرية الأدباء العرب ، والمطالبة بتوفير المناخ الضروري لحرية الفكر ، والاحتجاج، أو التدخل ، لدى سلطـــات البلد الذي يضطهد أدباءه بسبب أعمالهم ومواقفهم الأدبية المسئولة .

عاشر : أمانة الاتحاد ليست وقفاً ذرياً . مكتب امانة الاتحاد — اذا كان موجوداً — من هو وماذا يعمل ؟ وإذا لم يكن موجوداً فمن الضروري تشكيله ، وتجديده كل مؤتمر ، ومحاسبته ايضاً .

* * *

وبعد : هل كان مؤتمر الأدباء العرب السابع ، برغم هذا الارتجال وهذه الظواهر التي تذكرنا بتخلفنا وتحفزنا على العمل لإزالته ، ناجحاً بالمستوى المعهود للمؤتمرات الأخرى ؟ بدون تردد أقول : نعم .. نحن غير خائبين به ، لأننا كنا نعرف طبيعـــة إمكانياته ، ونعرف ان اجتماع الأدباء العرب ، لتوكيد خط مسئوليتهم الوطنية والاجتماعية ، هو بحد ذاته إنجـــاز طيب ، ويبقى ان تحويل الكلمات الى أي سلاح من أسلحة المعركة ، هو شيء يعتمد على مدى شعور الأدباء بواجبهم ، ومدى معاناتهم ، وقدرتهم على افراغ هذا الشعور وهـــذه المعاناة في إبداعات أدبيـــة أصيلة تنبع من الذات المتلقية الفاعلة ، لا من التوصيات ولا المواعظ أو الأوامر للسادة الحدادين ..

ولئن كان المؤتمر ، من الداخل ، على هذه الصورة ، وكانت أبحـــاثه

ونتائجه بهذا المستوى ، فهل المؤتمرات بما يدور في قاعاتها الرسمية فقط ؟ لست من هذا الرأي ، اللقاءات ، والمناقشات ، على هامش المؤتمر ، مخصبة ، أحياناً ، أكثر من المؤتمر ذاته ، وقد تم هذا .

ولكي نفي البلد المضيف ، العراق ، بعض واجب الشكر ، ونفي زملاء لنا في العراق بعض حق العرفان والذكرى ، نجد ان الإشارة الى حسن الوفادة ، وكرم الضيافة ، والبرنامج الكبير لإطلاعنا على مدن العراق وآثاره ، والجهد الواسع ، المتلاحق ، للسهر على إنجاز مهمة المؤتمر والمهرجان ، وتأمين الراحة للمؤتمرين والمشتركين ، هي الكلمة التي لا غنى عنها في ختام هذا المقال .

اعلان هام

إلى السادة المشتركين في المجلة

قررت إدارة مجلة « المعرفة » أن توزع هديتها على المشتركين في عام ١٩٦٩ اعتباراً من شهر آذار (مارس) ولغاية شهر حزيران (يونيو) . والهدية هي كتاب من منشورات وزارة الثقافة في القطر العربي السوري .

وتضع المجلة أمام القراء القائمة التالية ، المؤلفة من عشرة كتب ، ليختار المشترك منها كتاباً نقوم بارساله إليه مع العدد القادم . ونرجو أن يتفضل المشترك باعلامنا اختياره بأسرع وقت ممكن ، وأن يبين لنا العنوان الذي يرغب في أن نرسل إليه الكتاب الهدية :

ميمونة : رواية للكاتب السنغالي عبد الله ساجي ترجمة بهجة قنصة ونعيم قداح

الأرض والسماء : بقلم العالم السوفييتي فولكوف ترجمة الدكتور أدهم السمان

بيت الانسانية الكبير : بقلم جماعة من العلماء السوفييت ترجمة عماد حاتم

في انتظار غودوت : مسرحية للكاتب الانكليزي صموئيل بيكيت ترجمة هالة فرح

أنشودة لينينغراد : مسرحية للكاتب السوفييتي إلكسي أربوزوف ترجمة محمد جديد

فلسطين مشكلة ماثلة : نادي كتاب الساعة في الهند ترجمة محمد جديد

في سبيل الثورة العربية : بقلم نخبة من كبار الكتاب الغربيين ترجمة حنين حاصباني وأنطون حمصي

من دفتر الصمت : للشاعر المصري محمد عفيفي مطر

الفن والقومية : بقلم الدكتور عفيف بهنسي

القومية العربية في القرن التاسع عشر : بقلم الدكتور توفيق برو

إن هذه الهدية دعوة للقراء الذين لم يشتركوا بعد في المجلة ، إلى أن يبادروا لتسجيل اشتراكهم فيها وإرسال القيمة حوالة بريدية أو شيكا على أحد المصارف المعتمدة في دمشق باسم محاسب مجلة المعرفة ؛ وسيتلقون هديتهم وفق اختيارهم مع أول عدد يصلهم .

المطر المقدس

د. أحمد سليمان الأحمد

قَطراتٌ مِنْ دمْ
حَمَلَتْها عاصفةٌ تتقدَّمْ
دقّتْ نافذةَ العالَمْ !
مَنْ يفتحُ هذا القمقمْ ؟
مَنْ يفتحُ هذا القلبَ المُظْلِمْ
للحُزَمِ الضوئيّة ، للمطرِ الأحمرْ ؟ !

الحبُّ سَجينٌ كالبِذْرةِ في ارضٍ بُورْ
وحبالُ النورْ
تتسلّقُ ثَلْجَ الأسوارْ
تتقصَّفُ ، تَهْوي في قاعِ الظُلْمَةِ ، كالأحجارْ
مَنْ يهتفُ بالعاصفة : اجتاحي الأشجارْ

هُزّيها تتساقطْ أثمارْ
هُزّيها أكثرْ
تتساقطْ أشعارْ!
قلبي بستانٌ يتجولُ تحتَ الأمطارْ
تتفتَّحُ فيه أزهارْ
تنضج أثمارْ
وتغنّي أطيارْ..
قلبي يسكب، كالمطر الأحمر، أسرارَهْ
يطرق، في ليل التَّذكارْ
أبواباً مِنْ غيْرِ بطاقات زيارَهْ
وبيوتاً لاتحملُ رقما
وشوارع لاتحملُ إسما
يَذْرعُها الإعصارْ
كحصان طُرْوادِيٍّ.. يقتحِمُ الأسوارْ
فليحملني فوق جناح الريح الحمراءْ
فأنا أهبُ الأثمارَ.. إذا شاءْ..
أهبُ العطرَ، وألوانَ الزهرِ، وينبوعَ الماءْ
كي أجتازَ حدودَ الكلمات الميتةِ الشوهاءْ
كي أهربَ مِنْ ريح الأمسِ تهب على الشعراءْ
كي أسبحَ - كالنجمةِ - في نهرِ سماءْ
كي ترْجحَ كفّةَ ميزاني حفنةُ حبٍّ ورجاءْ

كي تَرْجِعَ مِنْ مَنفاها أضرِحَةُ الشهداءْ
كي آتِيَ قومي قَبَساً مِنْ نارِ الطورِ بسيناءْ
وإلَيْها ، مرتعشاً ، أعبرُ ثَلْجَ الظلماءْ
كي لاتَصْمُتَ ، إن هتف الثأرُ ، دماءْ
كي يَغدو المطرُ الأحمرُ بشرى خِصبِ
في الأرض .. وفي القلبِ !

لكنْ قطراتُ الدمْ
ما زالت تَقْرَعُ نافذة العالَمْ

صلاة وثنيّة

محمّد عمران

أيتها العذراءُ الجنيه ،
ياوطناً يطلع في غربة قلبي المهجورِ ،
تعري في شفتي ذوبَ صلاة ،
نشر نباتٍ بريّ ،
نكهةِ شمسٍ وحشيه
عريني في الشفة الوثنيه
وخذيني بين موائدكِ الغابيةِ ، خبزاً ، ملحاً ، قطرة ماء
أيتها العذراء
موقد حزني مشتعل ، وموائديَ احترقت ،
سنجوع معاً . هاتي يدك الزرقاء
نتسول . نعبر أرصفة العمرِ ، غلامين ،
بلا ظلٍ ، لاثوبٍ ، لانعلٍ ،

لاشيء سوى وجهين غريبين ،
سوى قدمين صبيين . سوى أصداءٍ
خطوات هاربة يحكيها الشارع يوماً عن طفلين
جاءا . لايدري من أين
عبرا كالصدفة . سار الفرح الغائب خلفهما ،
اخضرت أجفان الشارع ،
أورقت الأحجار . وغابا
كالصدفة . أيتها العذراء
موقد حزني مشتعل ، والحب رغيف محروق ،
ماذا أطعم عينيك ، أنا المقهور ؟
أيتها العذراء الجنية ، ياوطن القلب المهجور
ياغواً برياً ، مراً ، حلواً ، ياشجراً يرعى نسغ حياتي ،
يازرعاً يمتص ترابي ،
ياشمساً تأكل وجهي ، تمتص خلايا أيامي ،
يافجراً يتنفس من رئتي ،
ياليلاً يذبح عيني ،
وياموتاً يسكنني عينيه ، ويرحل بي في جزر الموت الوردية ،
يا .. يا .. لا أدري
ياجنيه
ياأشهر صلاة وثنية
يوجعني حبك . تدمي شفتي طقوس عبادتك الوثنية

لكني أتقدم نحوكِ قديساً تخطفه الآياتُ ،
نبياً مرتعشاً بالكلمات المزّةِ ،
أخلع في واديك الأقدس نعليّ ، أعري قلبي
منجذباً في ناركِ مغتسلاً باللهب الصوفيّ
أترمَّد . أخرج من نارك طفلاً يسكن فاتحة الأسرارِ
يسكن جفن الأشياءِ المقفلَ ،
يقرأ للأشياء طفولتها ،
يكتب أسماء الأشياءِ
في دفة عينيك
يا نار صلاتي الوثنيه
توجعني . تحرق عيني طقوس عبادتك الوثنيه
لكني أتقدم نحوك ملتذاً بالحرق ، أغامرُ ،
أشهد بدني فيكِ ،
أعيش ولادة موتي ،
أتعثر في وعرِ التكوينِ
تجرحني الأشواكُ ، الأحجار الجسديةُ ،
أصعد في طبقات الحبِ ،
أعانق أبعادي فيكِ ،
أعانق سفر التكوينِ .

قصائد مسبيّة

فايز خضّور

– ١ –

فجيعةُ اليباس في صميمنا ، عشيّةُ الحنين
يامبحراً مع المحار في غيابة الحصى
غلّقْ على عيوننا ستارةَ السنين
واشمتْ بنا
في غربة المصير .
طينيةٌ ، طينيّةٌ هي العصا ،
ياموتنا الأخيرْ . .

– ٢ –

الصمتُ سيدُ القبول حين ينعسُ النهار .
الوحل في العروق .

الوحل والرماد والجريمه :
جبيلتهُ جرية القرار .
يافارس الطبول ، خُط بالحموض وجهنا
لاتنسَ ، مُرْ بالجياع لهفةً ، وحدّث الحجار.
المجد في خيامنا غريبُ .
فَمَنْ هي المدينة
فَمَنْ إذا ارتميتَ بالتساؤل الجريح ، لايجيبُ.
ياخرَسَ الجرار

- ٣ -

قوافل الشتاء تسحق النخيل في العبورْ
وأنت ياغبيّة الحضور
بشاشةً تسوح في مفارق السفرْ
وتمنح الأجراسَ خيبةَ الفصول ..
يانسلنا المقتول
سافرْ على عبّارة البكاء
واترك لنا رخاوةَ الرثاء ..
يارحلةَ الوداعه
« أتعلمين هجرةَ الأصداف حين يعبث المطر
براية الجماعـه ؟ ! »
أشكُ يامُحالةَ المزار
أشكُّ أنّ لي :

لديكِ ، لو ضفيرةٌ تنوس بانتظارْ ..

- ٤ -

أحسّكِ في الرمل موجَهْ
تُغاوي صغارَ النوارس ، تنحر في القاع لُجَّهْ .
ألا زلتِ مسبيّةً من دمي ؟!
تشدّين وجهي إلى الوحل ، تحيين في مقلتيّ ضنى
طفلةٍ نازحه .
متى تُعشبين يباسَ اغترابي ،
تَسحّين ، لو غيمةً جارحه ؟!
لتنقر عصفورةُ الثأر بابي
وتوقظ فيَّ رمادَ اشتهاءْ
تَخشّبَ نسغُ الدوالي
ومل انهزامٌ خطانا رصيفَ البقاء

- ٥ -

أحسّكِ بين الصبيّات شوقاً تخطّى خليجَ الشرورْ .
تصبّ رسيس انطفائي .
فأشعر أنيَّ أرى ماورائي

- ٦ -

أحسّكِ شحّاذةً في دروب الوطنْ
تَطوفين حول الموائد ، تحت العشيّات ، غصّهْ

تغنين للموسم المقبلِ
وفي عري كفيْكِ وشمُ الزمن
توهَّجَ ، يُومي إلى كوخكِ الأولِ .
كأنكِ لازلتِ في البال قصَّةْ !
« فيا ليلُ ما أطوَلكْ ،
ويا حزنُ هل تنجلي ؟! »
عيوني ...

الفدائي والأم المحتضرة

أحمد يوسف داود

- ١ -

أضيئوا القناديل ! قلبي يواعدني آخر الأمسية
وخلوه يحمل حتى السرير
غبار المسافات ! إن ذرة بالوسائد طافت
أقبل فيها فلسطين ! أشتمّ ذاك العبير

أضيئوا القناديل !! قلبي يحدثني عن طريق الاياب
بوحدة ظل المقاتل
وعري انتظار تبوح به تمتمات السنابل
وليمونة في السواحل ظلت
تكابد أشواقها وتناضل

وترقب .. على حنين الرصاص ..
يحيل فلسطين أغنية داميه

أضيئوا القناديل ! ياحزن ماحملته القفار
غباراً عرفناه يوماً طريقاً
تعوج خلف البساتين ثم استدار
حكينا عليه زمان الشباب
حكينا عن الحب والأمسيات العذاب
زرعنا به زرعنا وكبرنا
رحلنا وصارت فلسطين حلماً حزيناً
فلا نحن عدنا ولا الزرع طاب
وحن التراب فهاجر يسأل عنا !!

. . .

- ٢ -

يقولون لي كل يوم : « يعود !
وإن نداء وراء الحدود
يؤخره ! كلما هم .. دوي
فلباه بالقبضة العاريه
يفتح ثغر الميازيب ، يجري المطر
فترشفه رملة في النقب !! »
واغمض عيني على طيفه ..
أرتقب !

صغيري !
أجر الأسابيع محزونة بانتظارك
سترجع يوماً بلا اخلجة
وروحك تطوي فلسطين ، حره
كأن فلسطين ما كبلتها قيود
وأذكر : كفك تحمي الجليل
فتدفق الشمس ملء انطفاء الرحيل
ويرقص قلبي على صوت نارك

يظل يواعدني آخر الأمسيه
وأعرف . !!
يافا التي أشرعت للنسيم الكروم
تعيش برغبة اطلاقة الطلع في الزهرة النائه
وحمى اخضرار تمد من الأرض مخرزها ..
تسكن البرعم المستكين
وتسمع خطو الذين يجوبون ليل الحداد بجرح مكابر
فتفتح أوراقه للندى !!
إذا صفر الموت وارتد وجه الهموم
يظل صغيري يغني رصاصاً ! ويعصر صدر الحقول
بضمة شوق !!..
وأسهر .. إن عاد في آخر الأمسيه

غلبت انتظاري فعانقته
وعانقت فيه التراب المهاجر

- ٣ -

أحس دبيب الثواني غريباً على خيمتي
حلمت بسمائه وانطوت ليلتي
فهيهات إن عاد لم يلقني
طويل .. طويل طريق الرجوع
وموتي على الباب ! قولوا له لاأريد الدموع
ولكنما زهرة من فلسطين ! قولوا له زهرة واحده
تلون قبري الغريب وترفع في الشمس رفض الخنوع

صغيري !
لعل فلسطين ماانهل فيها مطر
ولم تطلع الأرض أخلاطها في ضروع الشجر
ويغصبها الدود ري السوائل
فتسهر في غوبة الصمت ، ترصد جرح المقاتل
صغيري !!
كفاني أني رسمت فلسطين اشراقة في دمائك
فكن فجرها الدموي المروي
وكن ظلها حين يأتي القمر

أحزان بعد الظهيرة

جورج سالم

كانا الى جواره يتحدثان، بينا السيارة الصغيرة تسرع في مشيتها على طول الطريق. والطريق طويلة مملة، ولقد صار يعرفها معرفة تامة لكثرة ما قطعها ذهاباً وإياباً، منذ زمن بعيد، فهي الطريق الوحيدة التي تصل بلدته الصغيرة بالعاصمة.

قال أحدهما لرفيقه، وهو يشير بيده الى الأراضي الشاسعة التي بدت لهما من السيارة:

ـ انظر ! لم ينم العشب ، وظلت عيدان القمح فارغة .

فأجابه صديقه :

ـ هذا طبيعي ، فالمطر لم يتساقط هذا العام ، وكانت الشمس طوال الشتاء حادة حامية . ان آثار الجفاف ظاهرة تصرخ .

التفت الى الرجلين الجالسين الى جانبه يمعن النظر فيهما ، وبدوا له مجهولين، وقدّر أنهما ممن يعملون في زراعة الأرض . وحاول أن يصرف تفكيره عنهما فتركهما لما كانا فيه من حديث يلتقط كلمة أو كلمتين منه بين حين وآخر .

لن تنتهي هذه الرحلة الا بعد ساعات وعليه أن يصبر نفسه ، فهو مكره على ذلك .

وعاد بذاكرته الى ما قبل أسبوع ، يوم تلقى كتاباً عاجلاً من وزارته تدعوه فيه الى المجيء الى العاصمة للقيام بمهمة . انه ليتذكر الآن ذاك اليوم ، فقد سارع آنذاك الى تهيئة حقيبته ، وحجز مكاناً في السيارة ، ولم يشعر بأي انقباض لمغادرته بلدته وأسرته ، اذ وجد في هذه السفرة القصيرة متنفساً له من جو الكآبة والرتابة الذي يحيط به من الصباح الباكر الى أن يأوي الى فراشه . كما زيّن له هذه السفرة انقطاعه الطويل عن المدينة التي عرفها سنوات طويلة وأحبها وعاش فيها أياماً كانت حافلة بلحظات سعيدة ، لم يتذوق ما يماثلها منذ عاد ليباشر عمله في بلدته الصغيرة النائية ، تطحنه رحى الحياة ببطئها وثقلها ودورانها الرتيب الذي ينخر منه العظام ويذر على رأسه البياض .

وفي العاصمة انصرف الى العمل الذي أوكل إليه القيام به ، فغرق في دوامته يوماً بعد يوم . وكان قد قدّر أن المهمة التي سيكلّف بها لن تستغرق أكثر من يوم أو يومين فاذا هي تمتد الى أكثر من أسبوع . كما قدر أن العمل

سيكون قبل الظهر فاذا هو يمتد الى ساعة متأخرة من الليل . واستسلم للعمل ، برفقة بعض من زملائه القدامى ممّن كانوا يقيمون في العاصمة ،أو ممن استدعوا من مدنهم ليشاركوا في المهمة ذاتها . ومضت أيام الاسبوع تلك شاقة بطيئة تجرر أقدامها .

خاطبه أحد الرجلين ، قال له :

ـ ما بك ؟ أأنت نائم ؟

فأجابه :

ـ لا الست نائماً ، ومن يستطيع أن ينام في مثل هـذه السيارة التي تعترضها الحفر طوال الطريق فتقفز مذعورة ؟

قال له الرجل الآخر :

ـ أترى أثر الجفاف في الأراضي التي نقطعها ؟

فهز رأسه ، وعاد الرجلان الى متابعة حديثهما الذي لا نهاية له .

تساءل في قرارة نفسه : وما الذي جعلك تقبل دعوتها ؟ ، ولم يستطع أن يجد جواباً لهذا السؤال .

قال :

ـ ربما لأنني كنت اعتقد أن النار قد انطفأت في نفسي بعد مرور هذه الأعوام كلها ، أو ربما لأنني كنت أبحث في الأعماق عن شيء ماض مجهول ، لا أتبينه .

« لماذا ذهبت الى منزلها أيها الغريب ، بعد أن خمدت العاطفة وتحوّل القلب الى أطلال » .

كان منصرفاً من عمله في ذاك اليوم ، وكان ، مع رفقائه ، قد أنجزوا

معظم ما كان عليهم أن ينجزوه ، وأوشك العمل أن ينتهي ، فأرجؤوا ختامه الى صباح اليوم التالي. وعلى هذا النحو سيتاح له أن يتناول طعام الغداء ويستريح طويلا بعد الظهر ، اذ كان يشعر بحاجة الى الراحة والنوم .

من بعيد رآها وهو في طريقه الى المطعم ، وما أسرع ما تعرّفها . انها ما تزال كما عرفها من قبل ، منــذ سنوات عديدة جدا . كانت تسير وحدها في الطرف الآخر من الطريق ، وحار ماذا يفعل . أيتجاهلها ؟ أم يمضي اليهـــا مسلما ؟ أتتعرفه أم تتجاهله ؟ في ثانية واحدة ومضت كل هذه الخواطر في ذهنه . وآثر أن يتابع طريقه دون أن يختار تصرفا محدداً . وحين قصرت المسافة بينها لمحها تشير اليه وتناديه ، وهي واقفة على الطوار الآخر ، فقطع الشارع الصغير مرغماً نفسه على السير بتؤدة . ووقف يسلّم عليها .

ضغط سائق السيارة مفتاح المذياع فانبعث صوت حاد عال وانطلقت أغنية تجلجل في جو السيارة ، فأصغى اليها مكرها . وصمت الرجلان اللذان كانا بجواره ، ثم ردد واحد منهما جملة من الأغنية ، واحتمى كل من الركاب بصمته .

كان الحديث الذي دار بينهما تافها باردا ، ومع ذلك فقد كانت عيناها تلتمعان ببريق يعرفه فيها . ولم يتوقفا الا دقائق قليلة ، قال لها بعدها :

ـ فرصة طيبة ، سأمضي الى هذا المطعم القريب .

والتفتت تنظر الى حيث أشار ، ثم قالت له :

ـ وأنا أيضاً أريد أن أصل الى المنزل بسرعة .

وتريثت هنيهة صامتة ثم أضافت :

ـ ألا تستطيع أن تزورنا في المنزل ؟

دهش لهذه الدعوة المفاجئة . قال لها :

ـ لا أدري هل يتيح لي عملي شيئاً من فراغ .

واستدرك يقول :

ـ هل ترين في ذلك فائدة ما ؟

فابتسمت ابتسامة شاحبة وقالت :

ـ أجل، سأريك منزلي وأعرفك على زوجي وأسرتي ، ونتحدث قليلا .

قال لها :

ـ سأسعى أن آتي ، هذا إن لم أسافر . فالعمل قد انتهى فيما يبدو .

قالت له بصوتها القديم الذي يعرفه بين آلاف الأصوات :

ـ حسن ، لن أخرج اليوم من المنزل ، وستجدني حين يخطر لك أن تمر بنا . وحددت له موقع منزلها وسمّت له الشارع . وسألته :

ـ هل عرفت المكان بدقة ؟

قال : نعم .

واتجه توا الى المطعم إذ كان على بعد خطوات منه .

لم يعد يتبيّن كلام الأغنية بعد أن عاد الرجلان الى متابعة حديثهما عن الجفاف . ولكم تمنى أن يصمتا ، وأن يصمت هذا المذياع اللعين . أنّى لك الصمت وأنت تعيش في العالم ، عد الى قوقعتك واحتم بها .

أكب على الطعام يأكله دونما شهية . كان كمن يأكل في نومه . ولم يشعر بالوقت يمر . وحين خرج من المطعم قاصداً الفندق كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر . تمدد في غرفته في الفندق على أصوات شتى من الضجيج والصياح، وحاول أن يغفو .

ليس يدري لماذا آثر أن يعود الى بلدته بالطائرة وهو يعلم أن ليس فيها

مطار أو خط جوي . ومع ذلك فقد قالوا له في الشركة ان الطائرة ستهبط في الأرض الترابية الحمراء حول البلدة قبل أن تتابع رحلتها . فالهبوط في تلك الأرض ممكن ، وستقله سيارة خاصة الى منزله . وبهذا يختصر الوقت ويتلخص من مشاق السفر . فقبل . وانطلق في الصباح الباكر فصعد الى الطائرة، ولم يكن المسافرون قد وصلوا بعد . شدّ الحزام حول خصره بمشقة ، ولم ير ربان الطائرة أو المضيفة، ومع ذلك فقد أخذت الطائرة تتحرك ثم انطلقت على باحة المطار وصعدت تدريجياً في الجو . فرأى المباني تصغر وتصغر ، والسيارات الكبيرة تتحول الى قطع من اللعب الصغيرة تتحرك فوق الشوارع الضيقة . وبعد لحظات قصار دوّى جرس الاطفاء فاشتعلت النيران في الطائرة . ووجد نفسه ملقى على أرض خضراء وحيداً لايستطيع أن يتحرك أو يمشي . وسمع الطبيب والممرضة يتحدثان عنه . قال الطبيب : أوعزي اليهم أن يدفنوا هذا الميت وأراد أن يحتج ، أن يقول إنه لم يمت ، انه مايزال يسمع ، ولكن صوته خانه . ولم يشعر متى أخذوه ولا كيف حملوه . وبذل أقصى جهده ليدق على الخشب المحيط به . وانطلق يكرر المحاولة حتى تمكن من أن يدق على الخشب بقسوة وعنف ، ولسانه لايقوى على الكلام، وشفتاه لاتنفرجان عن صرخة . واستمرّ يقرع ويقرع . وتكرر القرع ففتح عينيه ، كان خادم الفندق بالباب ، قال له :

ـ هناك مخابرة لك .

ففرك عينيه ونظر الى ساعته. كانت قد تجاوزت الخامسة . وأخبره أحد زملائه ، على الهاتف ، أنهم مدعوون الى مقابلة المسؤولين في السابعة مساء. سارع الى ارتداء سترته ومضى . . .

« فيم ذهابك ، وما الفائدة منه ؟ ما الغاية من رؤية الأطـــلال وزيارة

المتاحف، وعلام اثارة الشجن ؟ هل تستطيع أن تعيد الاناء المهشم الى سابق عهده؟ وهل تستطيع الشجرة التي تحطمت واجتثت جذورها وتحولت الى قطع من الحطب أن تعود فتورق اليوم ؟ » .

قال الرجل لجاره :

– أما هنا فالجفاف يبلغ أوجه ، أترى الأرض ؟ إنها تكاد تحترق وتستحيل جمراً .

تدخل في حديثها فقال :

– لو أنكما ذهبتما الى المتحف لوجدتما جفافا أقسى وأشد .

فلم يفهما مايقول .

نزل من السيارة فواجهه المنزل وامتدت اصبعه ، بعد أن صعد السلم بخفة ، تلتمس موقع الجرس .

– هذا هو منزلي !

وحين جلس على الأريكة قالت له :

– أما زوجي فقد كلفني أن أنقل اليك اعتذاره ، فقد دعي على عجل الى اجتماع خاص مع عدد من التجار .

وجلس صامتا مطرقاً يتأمل ما حوله .

فاجأته وهي تقول له :

– وانت أيضاً تزوجت .

قال لها :

– أجل ، لم أكن أملك أن أفعل غير ما فعلت .

– وهل رزقت أولاداً ؟

رفع رأسه بداري غصة لا يعرف كيف استحوذت عليه :

ـ كلا ، فامرأتي عقيم !

ـ كم وددت أن أرى زوجتك .

ثم أضافت في شيء من الخجل والارتباك :

ـ وهل تحبك ؟

تردد قليلا ثم قال :

ـ انها لا تعرف الحب ، هي امرأة طيبة القلب وديعة مخلصة رقيقة . وأنا أحترمها كثيراً .

ـ أنت طيب منذ عرفتك .

ـ وأنت ، كيف ترين زوجك ؟

ـ أنت تعرف كل شيء ، فلماذا السؤال ؟ لقد كنا معاً في السنة الأخيرة من دراستنا الجامعية حين تم الزواج ، و كنت على علم بكل التفاصيل ، أتراك نسيت ذلك ؟

ـ كلا ، لم أنس شيئاً .

سألها بلا مبالاة :

ـ أما يزال غنياً ؟

والتفت ينظر ، للمرة الأولى ، الى المنزل وما فيه .

قالت له :

ـ كل ما حولك يتحدث عن ذلك ، ولكن ...

ـ ماذا ؟

ـ لا تتجاهل ! أنت تعرف أنني ما أحببته قط . ان له قلبا أصم كالجدار . وانني ما أردت الزواج منه ، ففيم العودة الى الماضي ؟ ؟

أطل ولداها من غرفتها فنادتها :

ـ تعالا سلما على صديق قديم .

فاقترب الصبي وهربت البنت الصغيرة . صافح ابنها فاحس بيد ضخمة في قبضة يده ، ولم يلبث أن انصرف .

قالت له :

ـ هذا هو البكر ، وانه لكسول بليد ، أما الفتاة فلطيفة ذكية .

وداری ضحكة كادت تنبعث من فمه .

ـ أعرف ما دار في خلدك ، انه يشبه أباه ، أليس كذلك ؟

قال لها : ولكنني لم أعرف أباه .

نادت الخادمة وطلبت اليها أن تعد لهما فنجانين من القهوة ، وأضافت دون أن تسأله :

ـ قهوة مرة . انك كنت تحب القهوة مرّة ، أما تزال تؤثرها كذلك؟

هزّ رأسه .

ينبعث الماضي فجأة ، ينبعث الماضي السعيد على كلمة من كلماتها ، ومن نبرة من نبرات صوتها . لقد كان طردك من الفردوس يسيراً أيها الشاب . والأحلام التي بنيت وأنت على مقعد الدراسة انهارت وذهبت بددا ، ولحظات السعادة القصيرة ذهبت في مهب الرياح . والأيام الماضيات البعيدات أين هي ؟ ساعات الانتظار العذبة ، والمخابرات الهاتفية ، والصوت الانساني الذي يمر من الأذن ليقر في القلب . أين سكرات المشي في ممرات الجامعة . أوقف الزمن ، عد به الى الوراء ، حارب الهواء واطعن الغيوم فلن تنبجس الدماء الا من قلبك . الدماء ؟ لن تجد في قلبك الا الصديد ، ولن تجد في عينيك إلا دموعاً تأبى الانفلات .

قال لها :

ـ لقد خطر لي أمس أن أمضي فأتناول الغداء في المطعم الذي كنا نذهب اليه معاً .

ـ الله ! أما يزال قائماً ؟

ـ نعم ، وجلست حيث كنا نجلس . المائدة نفسها ، والخدم أنفسهم لم يتغيروا ، وصاحب المطعم النحيل ما يزال في مكانه . لم يتغير في المطعم شيء ، وتغير كل شيء . كانت جلستنا تمتد ساعات وساعات ، أتذكرين ؟ ونحن نتحادث دقائق ، لنصمت زمنا أطول ، والناس يدخلون ويخرجون ، والخدم يذهبون ويجيئون ، ونحن في مكاننا لا نتحرك . كنا نملك القدرة على أن نعطل الزمان .. وشرب فنجان القهوة .

ـ لقد صحوت الآن . انني مرهق جداً من العمل ومن قلة النوم .

قالت تستفسر :

ـ أرى أنك شاحب الوجه ، لماذا لا تنام ؟

ـ لم أذق النوم في الفندق طوال اليومين الماضيين .

ـ ولماذا ؟

ـ بجوار الفندق امرأة تتألم ، يبدو أن ولادتها قد تعسّرت فهي تصيح وتصرخ طوال الليل .

ـ وماذا حدث لها من بعد ؟

ـ لا أدري . ولكنني سمعت الناس يعولون ويبكون ، لعلها ماتت هي وجنينها . نظر الى ساعته فوجد أن موعد الاجتماع قد أزف .. قالت له :

ـ أما تزال تحتفظ بهذه الساعة ؟

فأطرق مبتسما .

قال الرجل الذي بجانبه لصديقه :

- لو كانت مياه النهر تصل الى تلك البقعة لأعشبت واخضرت .

فضحك صديقه وأجابه :

- ولكن النهر لايصعد الى الأعلى .

وسرّا بهذه النكتة فراحا يقهقهان .

قم فودّع زميلتك القديمة ، فقد حان وقت الاجتماع ، مالك وكرونوس الآن ؟

قال لها :

- أتذكرين أسطورة كرونوس التي قرأتها لك ذات يوم ؟

أجابته في هدوء :

- أذكر كل شيء قلته لي، ولكني لم انتفع بأي شيء مما قرأت أو سمعت. لم يكن لدراستي أي جدوى .

- كان كرونوس اله الزمان عند الأغريق يأكل أبناءه .

فقاطعته :

- أترانا نشعر بوقع أضراسه في أجسامنا ؟

- في بعض الأحيان .

قال السائق بصوت عال :

- لقد تعطّل الدولاب وسنصل الى البلدة متأخرين بعض الشيء .

ونزل لاصلاحه .

وصل الى مقر الاجتماع متأخراً . كان كل رفقائه هناك جالسين الى طاولة كبيرة واسعة .

وكان المسؤول الكبير يتابع كلامه :

- أما الأعمال التي قمتم بها فسنحتفظ بها في اضبارات الوزارة مرجئين النظر فيها الآن . فقد جدت أمور طارئة جعلتنا نغيّر خطتنا التي دفعتنا الى دعوتكم ، وسنتخذ خطة جديدة . أشكركم على كل حال فلقد قمتم بالعمل على خير وجه .

قال يسأل زميله الجالس بجانبه :

- هل يعني ذلك أن كل ماقمنا به لانفع فيه .

- هكذا يبدو .

وأضاف المسؤول :

- سيعود الغرباء منكم الى مقر عملهم في أقرب وقت . وسنستدعيكم حين نجد حاجة الى ذلك .

وقام يصافحهم مودعاً شاكراً ، فانصرفوا .

قال السائق وهو يخفف من سرعة سيارته قبل أن يتوقف في مرآبه البلدة بعد أن انتهى الى الشارع الرئيسي :

- الحمد لله على السلامة !!

مفتّش التأمينات

قصة المشاهدة

المكان : مورد رزق في إحدى المدن العربية

الزمان : بعد أحداث النكسة . وهو زمان مايزال مستمراً

اكرم شريم

جدار من الخشب يفصل مكتب المشغل عن قاعة العمل حيث الماكينات والعمال والضوضاء العامة . وثمة ستارة عريضة مسدلة في بداية الجدار الخشبي ، تقوم كباب واصل بين المكتب والقاعة .

* * *

تظهر على رفوف المكتب عينات من البضائع المشغولة الجاهزة .. داخليات وجوارب لجميع الأعمار ، وملابس أطفال متنوعة القياسات والأشكال . والى اليمين ، تتكوم أكياس بالات قطنية تأخذ طول الجدار ، حتى طاولة المكتب الصغيرة ، في زاوية الصدارة .

وعلى الطاولة أقلام واقعة وابريق ماء .

وخلفها يجلس المعلم أبو أحمد ، يحدث ضيفاً في شؤون العمل ، بينما أصوات ماكينات الخياطة ، وضوضاء العمل عامة ، تصل الأسماع من القاعة المجاورة .

ويدخل من الباب الخارجي شاب أسمر فوضوي الهندام ، وهائج لاهث ، ويصيح في أبي أحمد :

– أبا أحمد .. اسمع .. مفتش التأمينات الاجتماعية قد حضر . إنه الآن في بداية السوق . يقول لك معلمي تدبر نفسك بسرعة .

يتحرك المعلم مأخوذاً وهو يسأل :

– هل هو مفتش جديد ؟

– لست أدري .. معلمي قال لي أن أخبرك .

ويستفسر المعلم في صوت خفيض :

– هل دفع له معلمك شيئاً ؟

الشاب بحيرة :

– لست أدري .

وتعود قوة الصوت للمعلم :

– وهل أخبرت أصحاب المشاغل ؟

– معلمي عين لي من سأخبرهم ، وأحذرهم من وصول المفتش .

– الا تعرف مشغل أبي سعيد ؟!

– بلى .

– إليه فوراً .. قل له إن مفتش التأمينات الاجتماعية قد حضر ، ولك مني ليرتان .. بسرعة .

ويدخل المعلم إلى قاعة مشغله من الستارة ،
ويخرج الضيف دون وداع .

• • •

تركز الكاميرا في الداخل ، على ارتباك العمال والعاملات ، وهم قرابة العشرة . وخلال ذلك نرى الماكينات بأنواعها ، والمقص الكهربائي ، وأكوام البضائع المقصوصة والأخرى المعدة للخياطة ، وشبكات الخيطان المعقودة فوق كل ماكينة : وملابس الشغيلة المعلقة ، وبقية الأشياء الموجودة عادة في قاعة مشغل . وبين الفترة والأخرى ، تعود الكاميرا إلى وجه المعلم المنفعل ، المسترسل في الكلام مع التأشيرات اللازمة :

ـ بسرعة ياجماعة .. اتركوا العمل .. اتركوا الشغل .. اتركوا الماكينات . وأنت يافاطمة دعي كل شيء مكانه . لقد حضر مفتش التأمينات الاجتماعية ، وسيغريكم بالانتساب الى التأمينات . سيجبركم على ذلك . وانتم تعلمون طبعاً ، أنهم سيأخذون من أجوركم القليلة قسطاً غير قليل . وتعرفون أنهم لايدفعون التأمينات الابطلوع الروح ، وبألف شرط ، وبعد مئة عام . عليكم أن تخرجوا بسرعة . لاتقفوا في الشوارع والحارات ، وحاذروا أن ينتبه اليكم أحد . لاتحادثوا أحداً ، ولا تخبروا أحداً بما حدث . اذهبوا بعيداً . اذا سألكم أحد ، فقولوا له نحن لسنا من هنا ، وعودوا بعد ذهاب المفتش .. بسرعة بسرعة « الى أحد العمال » اسمع .. ستبقى أنت وحدك طبعاً ، فأنت الوحيد هنا ، المسجل في التأمينات .. ستقول للمفتش إنني أنا وأنت وحدنا ندير العمل هنا . ولا خوف منك طبعاً ، فأنت مسجل عندهم ، وتعرف كيف تجيب .. أليس كذلك ؟!

ـ أمرك معلمي .

ـ اسمعوا .. أنتم تعلمون انني اجزل العطاء لمن يطيعني . ومن سيشتري لنفسه المتاعب ، فالايام بيننا !.. مفهوم ؟!

يخرج المعلم الى المكتب . فيسألهم العامل المسجل في التأمينات ، والذي تعين عليه أن يبقى ويكذب :

ـ هل ستذهبون حقاً ؟!

تجيبه امرأة ترتدي ملاءتها السوداء بهزة كتف يائسة ، وتقول أخرى تلبس حذاءها على عجل :

ـ ولم لا .. إنها عطلة بالصدفة !

ويضيف عامل يرتدي معطفه :

ـ تريدنا أن نغامر فنفسد على المعلم ؟!

* * *

ترى المعلم خلف طاولة المكتب مشغولاً بمجموعة الدفاتر .

تخرج من الستارة امرأة تصلح وضع منديلها الأسود على رأسها ووجهها :

ـ اللهم اجعله خيراً .. وفقك الله معلمي .

ويجيب المعلم دون أن يرفع رأسه :

ـ مع السلامة .. بسرعة بسرعة .

ثم شابة تذهب وهي تخفي شعر رأسها تحت الاشارب :

ـ أية خدمة معلمي ؟

وباشارة من يده فقط :

ـ مع السلامة .. لاتقفي في الطريق .

يذهب الآن شاب بصفر بمرح ، ويتبعه بضعة شغيلة يتحدثون .

تظهر من الستارة أخيراً ، امرأة سمينة وقصيرة ، والزي الشمي الاسود يغطيها كاملة ، باستثناء وجهها الهرم المدهون بالمساحيق الرخيصة . تنظر ناحيــة المعلم المشغول ، وتناجيه :

ـ لاأراك الله مكروهاً يامعلمي . والله انني ادعو لك بالتوفيق من كل قلبي . « داعية ورافعة يديها » : ليحمك الله ويرفع من شأنك بين الناس ، ويعزّ مكانتك .. من فمي إلى بابك يا كريم !

ويردد المعلم ، كأنما يحدث نفسه :

ـ شكراً ، شكراً ، مع السلامة .

تتابع الكاميرا الآن دخول العامل الذي تعين عليــه ان يبقى ويكذب ، وهدوءه عند كوم البالات القطنية قليلاً ، ثم جلوسه قبالة المعلم المنشغل بحسابات تبدو كثيرة ومعقدة . ويسأل وهو يدخن :

ـ هل ستدفع للمفتش رشوة ؟

- مادخلك بالأمر أنت ؟! قم إلى عملك .. ارفع الشغل عن الماكينات ، ورتبه على الرفوف ، كي لاينتبه المفتش الى وجود عمال غيرك عندي .

- وأي مفتش لاينتبه الى ذلك ؟!

- قلت لك قم الى عملك .. هذا ليس من شأنك . رتب المكان بحيث تخفي المعالم عنه ، فربما كان مفتشاً جديداً وصعباً .

يدخل فجأة واحد من عمال المشغل الذاهبين قبل قليل مهتاجاً صائحاً :

- معلمي .. العمال بالأون الطرقات . لقد خرجوا من المشاغل خوفاً من المفتش . لو أنك تراهم .. الرجال والنساء والاولاد لو أنك تراهم .. كلهم في الطرقات . أصحاب المشاغل يقولون لهم اذهبوا بعيداً وعودوا بعد ذهاب المفتش ولكنهم كثيرون ولا يذهبون . إنهم بالمئات .. لم أتصور أن المشاغل فيها كل هؤلاء العمال .

يصل صوت العمال من قاعة العمل الى المعلم في مكتبه وخلف طاولته :

- اذا كان المفتش جديداً ، ماذا تظن سيحدث ؟

- سيعود غداً وبعد غـــد وبعد غد حتى تنكشف المسألة ، ويسجل جميع الشغيلة .

ويرتفع صوت العامل من جديد :

- وما هذا الامر الخطير الذي سيحدث اذا سجل الشغيلة ؟

- كل ما سيحدث ان جميع الشغيلة سيصبحون اصحاب ألسنة طويلة مثل حضرتك . انهم باختصار يريدون أن يوقعوا بين المعلم والعامل .. فكيف تتصور ان عاملا يشتغل بالرغم عن معلمه ؟! يشتغل عنده بالرغم من انفه ؟ ! ولضمان

العامل ، لا تصدق أن أحداً يهتم بمصالح العامل أكثر من معلمه .. ان رعاية العمال جزء من رعاية العمل . وعلى اية حال ، تستطيع ان تكون مطمئناً ، فليست هذه اول مرة أتعامل بها مع مفتش للتأمينات .

يحس المعلم بوجود نية غير سليمة لدى عامله حسين حين يسمعه يقول :

ـ لكن المفتش سيجعلكم تدفعون للشغيلة أجوراً مناسبة .

ـ ألا تأخذ أنت أجراً مناسباً ؟

ـ بلى .. لانني مسجل في التأمينات .

يترك المعلم طاولته بانفعال ظاهر وغيظ خفيف . يمد رأسه من الستارة الفاصلة ، ونرى قفاه العريض الساحل ، وعلى جانبيه تتدلى مجموعة مفاتيح ، والقفا والمفاتيح في اهتزاز مستمر مع الحديث :

ـ والبقية ؟! ألا يأخذون اجوراً مناسبة ؟!.. ألا تعلم ان كثرة العمال عندي تعني في جداول التأمينات ، كثرة مالي وسلطاني ، وبالتالي كثرة الضرائب والمسؤوليات والتعويضات ، وهات وخذ وخذ وهات ؟! ألا تعلم انهم يحسبون رأسمالي بعدد عمالي ، وبعدد الماكينات العاملة عندي ، ولا يدرون كم يكسب هذا الرأسمال وكم يخسر ؟! ان كل ما يهمهم ان هات هات هات !

ويعود المعلم الى طاولته . وبعد لحظات يرتفع صوته :

ـ انت تعلم انني احترمك اكثر من الجميع ، بدليل انني سمحت لك وحدك بأن تتسجل في التأمينات الاجتماعية .

ـ ولكن لم يكن باستطاعتك ألا تسمح لي .

ـ كيف ؟!

ويتأفف المعلم في غضب مكتوم وهو يستمع الى صوت العامل الآتي من القاعة المجاورة :

ـ لأنه لايعقل أن يكون مشغلك هذا بدون أي عامل . حتى المفتش الذي يأخذ رشوة ، يطلب من صاحب المشغل أن يسجل عاملا أو عاملين على الأقل .

ـ آه ! هكذا إذن !

يهمسها لنفسه ، ثم يقول وقد اختار جانب اللين ، لامكات هذا الوغد بينما يذهب المفتش :

ـ المهم الآن ألا تكون ذكياً هكذا أمام المفتش .. مفهوم ؟! .. انت تعلم انني احترمك اكثر في غيرك . « صمت » . اسمع .. ولكي أثبت لك أنني أحترمك اكثر من غيرك ، فإنني سأضيف الى أجرك نصف ليرة . تستطيع أن تخبر المفتش بمقدار أجرتك الجديدة .. هيه ! الا يعجبك هذا ؟! عليك اذن أن تحفظ من الآن ما ستقوله للمفتش .

ـ وهل سيسألني المفتش كثيراً ؟

ـ لست ادري ماذا يدور في ذهن المفتش . لكنك تعرف طبعاً كيف تجيبه عن أي سؤال طارىء ، هذا اذا كان جديداً وصعباً ومحرجاً .

وسأحسب لك نصف الليرة عن كل الايام التي مضت منذ بداية هذا الشهر ، ما رأيك الآن ؟!

ـ شكراً معلمي .

ويطمئن المعلم ، وهو يفتح دفتراً عريضاً وطويلاً ، ويستغبي نفسه اذ كيف لم يفعل ذلك من قبل .

* * *

يدخل الشاب « المخبر » الى المكتب مسرعاً متعرقاً ولاهثاً ، ويقول :

ـ أبا أحمد .. لقد أخبرت أبا سعيد كما أمرتني .. أعطني الليرتين .

- هذا ما يهمك الآن .. خذ « يخرج رزمة نقود ورقية ويناوله منها »

خذ .. قل ماذا حصل ؟

- عمال المشاغل يملأون الطرقات . انهم يتجولون هنـــا وهناك غير عابئين بالمفتش .

- والمفتش ؟

- إنه ينتقل من مشغل إلى مشغل وكأنه لا يرام .

- وهل تحدث أحدهم معه ؟

- لست أدري .. يقولون إنه جديد ويثير المتاعب .

- يثير ماذا ؟

- يثير المتاعب .

- وكيف عرفت ذلك ؟

- لست أدري .. هم يقولون ذلك .

- ماذا يقولون ؟

الشاب بيأس :

- يقولون انه يثير المتاعب

ويصرخ المعلم منفجراً :

- من هم هؤلاء الذين يقولون ذلك ؟

- العمال .

ويفرغ غضب المعلم فجأة :

- العمال ؟! .. هه ! .. دع العمال يقولون ما يريدون . اذهب أنت مع السلامة .

ويرى العامل الحديث الذي تعين عليه أن يبقى ويكذب ، وهو في قاعة المشغل يستمع الى الحديث بوجوم المهان .

. . .

يصل صوت العامل من القاعة بطيئاً راعشاً :

- ألا تصدق العمال يا معلمي ؟

- هذا لا يهمك .

- إذا تحدثت بصراحة .. ألا تغضب ؟

- ماذا تريد أن تقول ؟

- لا شيء .. لكنك عندما يزورك تاجر كبير ، فانــك تعرضنا عليه لكي يرانا ويعدنا ويحصينا جيداً ، ثم تكذب فتدعي أن لديك مشغلاً آخر في مكان آخر ، وكل هذا لكي يعتقد الرجل أنك صاحب رأسمال وفير . أما اذا زارك مفتش التأمينات ، فانك تطرد العمال ، لكي لا يعرف أحد كم عندك من الأجراء ومن رأس المال حقيقة . إنك بهذا تأكل حقوق العمال وتتهرب من دفع الضرائب .

يصل صوت أبي أحمد الى القاعة عالياً وساخراً :

- جميل حقاً أن يدافع العمال عن الضرائب . العمال الذين هم في حد ذاتهم مجموعة ضرائب ، يدافعون مع ذلك عن الضرائب .

بر صمت يحس فيه المعلم أن الجو الذي أعده لاستقبال المفتش ، ليس طبيعياً ، ويسمع صوت العامل كأنما يأتي من مغارة .

- حتى أنك أمس ، قد منعت عاملاً من دخول المشغل ، عندمـــا جاء يحمل البندقية متطوعاً .. ألا تذكر ؟!

- ما رأيك إذن .. لم أنا فعلت ذلك ؟!

ـ لست أدري . ربما لأنك تقرف من منظر البندقية في مشغلك . وإذا كنت لا تقرف منها يا معلمي فلا شك أنك تخاف منها ، ومن عواقبها .

ينتفض العامل لرؤية معلمه يدخل اليه مغتاظاً ، تركز الكاميرا على وجه المعلم الذي يمتاز غيظاً وقرفاً وحقداً . ولا يكون صوته هنا صراخاً ، وانما بطيئاً مشدد الحروف واللفظات .

ـ هكذا إذن ؟ ! عليك في دقائق أن تلم أشياءك من عندي وتنصرف الى غير رجعة . إنك مطرود . اذهب الى التأمينات الاجتماعية .. اذهب الى حكومتك .. افعل ما تريد .. لن أعيدك ولن أعطيك أي تعويض .

البس بسرعة ، وخذ أشياءك ، وتعال أحاسبك انني أطردك . .. هل تفهم . ؟! إني اطردك اطردك .

وبعد دقائق من الصمت المتوتر الجاثم في المكتب والقاعة ، وبعد لملمة الاشياء ، والمحاسبة على الايام الماضية من الشهر ، يخرج العامل حاملاً صرة ملابس العمل تحت إبطه وحذاء عتيقا في كيس ورق : كسير الخاطر هندامه فوضوي ، وشعره مشعث غير مسرح .

يبدو المعلم بعد ذلك مشغولا بحسابات كبيرة وكثيرة . ويظل هكذا .. يقلب الورق ، ويتمتم بالأرقام ، ويعيد وينقل ويشطب ، الى أن يدخل شاب طويل وأسمر وغليظ القسمات وفي يد الشاب المرتدي بذة بكرافة ، محفظة جلدية سوداء . وقال المعلم مرحباً :

ـ أهلا وسهلا . .

وقال مفتش التأمينات وهو يدخل :

ـ السلام عليكم

ويتبادلان التحيات ، ويتعارفان ، ونفهم أنه مفتش جديد .

يرفع المفتش طرف الستارة ، فيرى الماكينات والشغل كله في القاعة بدون عمال. يسأل مبتسما بخبث :

ـ وأين العمال ؟

يجيب المعلم باستحياء جسور :

ـ انني أدير العمل وحدي ، ونادراً ما يساعدني أحد العمال .

وتتوضح المعاني في ابتسامة المعلم ..

ويتلاشى الخبث من عيون المفتش ... ويتفاهمان !

* * *

إسرائيل وجمهورية ألمانيا الاتحادية (١)

د. تاديوش ڤاليشنوڤسكي

عرض وتحليل : جورج جبّور

الدكتور تاديوش فاليشنوفسكي ، حقوقي ومؤرخ بولوني ، يهتم بالقضايا الدولية المعاصرة . وقد نشر الى الآن عدداً من الكتب منها ، كتاب عن التحريفية الالمانية الغربية (١٩٦١) ،وآخر عن النظرية الصهيونية (١٩٦٨) ، وثالث بعنوان « محور تل ابيب - بون وبولونيا » (١٩٦٨) ، كما ساهم في تأليف كتاب بعنوان « ملاحظات حول العدوان الاسرائيلي » (١٩٦٨) . أما الكتاب الذي سنعرضه الآن فهو أساساً أطروحة دكتوراه قدمت الى

(١) Tadeusz Walichnowski, Israel and the Federal Republic of Germany
الناشر : انتربرس Interpress . فارسوفيا ١٩٦٨ عدد الصفحات : ٢٠٠ صفحة ، تحتوي ثبتاً بالمراجع

جامعة نيكولاس كوبرنيك في تورون ببولونيا (حزيران ١٩٦٧) وقد حازت هذه الأطروحة التي نشرت بعدئذ ككتاب طبع مرتين بالبولونية عام ١٩٦٧ ومرة ثالثة بشكل موسع عام ١٩٦٨ ، على الجائزة الأولى للمعهد البولوني للشؤون الدولية لعام ١٩٦٧ . وقام بترجمة هذا الكتاب الى الانجليزية السيد الكسندر تروب كرنيسكي . أما المصادر التي يعتمدها المؤلف فأغلبها مصادر اسرائيلية وألمانية غربية .

* * *

يتألف الكتاب : من ستة فصول تتبعها نتيجة وخاتمة . وبينما يركز الفصل الأول على تاريخ قيام اسرائيل والفصل السادس على دور الصهيونية في المعركة ضد الشيوعية وفي اعادة الاعتبار لجمهورية المانيا الاتحادية ، فان الفصول الأربعة الباقية (من الفصل الثاني وحتى نهاية الفصل الخامس) انما هي استعراض وتحليل تاريخيان للعلاقات بين اسرائيل وجمهورية المانيا الاتحادية منذ عام ١٩٤٩ وحتى أواخر عام ١٩٦٧ .

* * *

الفصل الأول : وهو تاريخ مختصر لتأسيس اسرائيل حتى ايلول ١٩٤٩ ، يستعرض بايجاز تاريخ فلسطين وتاريخ الحركة الصهيونية و كيفية تأسيس اسرائيل. ليس في هذا الفصل ما يمكن وصفه حقاً بالجدة بالنسبة للمهتمين بالموضوع ، وان كان من الممكن الاشارة الى نقطتين : الأولى هي القاء المؤلف لبعض الضوء على محاولات هرتزل التحالف مع روسيا القيصرية في صيف عام ١٩٠٣ ، حين زار مؤسس الحركة الصهيونية وزير داخلية روسيا . فبمقابل موقف روسي مؤيد للاطماع الصهيونية رغب هرتزل الى يهود روسيا القيصرية « عدم الاهتمام بالمسائل

السياسية في روسيا وخاصة عدم الاسهام في الحركة الثورية » (ص٦) . أما النقطة الثانية فهي شرح المؤلف للموقف البولوني من قضية فلسطين حين بحثت في الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ . ويتلخص ذلك الموقف كما هو معروف في انهاء الانتداب البريطاني و « انشاء دولة فلسطينية ديموقراطية يمكنها أن تشتمل وطناً قومياً لليهود بنفس الوقت الذي ترضي به الآمال العربية »(ص ١٦ مقتطفة من خطاب المندوب البولوني في الأمم المتحدة عام ١٩٤٧) .

* * *

الفصل الثاني : بعنوان « العلاقات بين المانيا الاتحادية واسرائيل قبل توقيع وابرام اتفاقية لوكسمبرغ : ايلول سبتمبر ١٩٤٩ آذار مارس ١٩٥٣ » يبتدىء بايضاح حالة الشك والقلق في العلاقات بين المانيا الاتحادية واسرائيل ، تلك الحالة التي طغت في السنوات الأولى لقيامها . ولا ريب أن التركيب البشري لاسرائيل في ذلك الوقت كان مواتياً لحالة الشك والقلق هذه ، إذ أن نسبة كبيرة من المستعمرين الصهاينة في فلسطين انما قدموا هرباً من المانيا أو من مناطق كانت تحت الحكم الالماني ابان الحرب الأخيرة . وهكذا ففي ١٠ كانون ثاني ١٩٥١ وجهت الحكومة الاسرائيلية مذكرة الى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا عارضت بها المحاولات الجارية آنذاك لإنهاء حالة الحرب مع المانيا .

ولكن الحالة الاقتصادية السيئة التي سادت اسرائيل منذ أيامها الأولى حدت بالصهاينة الى التفكير بالمانيا الاتحادية كمصدر للمساعدة المالية بحجة التعويض عن المسؤولية الألمانية في اضطهاد اليهود . وكان حكام المانيا الاتحادية قد أبدوا منذ البدء تقبلاً لمثل هذا التفكير . فان اديناور اقترح في مقابلة نشرتها صحيفة

يهودية المانية في ١٩٤٩/١١/٢٥ منح اسرائيل مبلغ (١٠) ملايين مارك كتعبير اولي عن حسن نية المانيا . ولكن اسرائيل التي كانت تعارض فكرة انهاء الحرب مع المانيا وتعارض الاعتراف بها، احجمت عن تقديم طلب مباشر الى المانيا الاتحادية بالتعويضات، مكتفية بطلب التعويضات عن طريق دول الاحتلال الغربية الثلاث ، حتى ربيع عام ١٩٥١ ، حين قبلت حكومة الصهاينة تحت ضغط الولايات المتحدة باجراء مفاوضات مباشرة مع المانيا الاتحادية بشأن التعويضات . وفي هـذا المجال يحلل الدكتور فاليشنوفسكي بشكل جيد سليم مصلحة الولايات المتحدة بقوله : «ان الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة رغبت في القاء عبء المساعدة المالية لاسرائيل على عاتق جمهورية المانيا الاتحادية لكي تطوق عـدم الرضى العربي على السياسة الأمريكية المنحازة للصهيونية ، بنفس الوقت الذي تستمر به هذه الدوائر الحاكمة في استخدام اسرائيل لغاياتها العسكرية السياسية في محاربة حركة التحرير الوطني العربية» (ص ٣٢) .

في ربيع عام ١٩٥١ بدأت الاتصالات شبه رسمية بين ممثلي حكومتي بون وتل ابيب باجتماع جاكوب ألتماير Jacob Altmeier النائب الألماني الاتحادي (من الحزب الاشتراكي) بالقنصل الاسرائيلي في ميونيخ ليفنخ Livnech الذي كان معتمداً لدى سلطات الاحتلال. ولم ينقض وقت كبير بعد ذلك حتى انتقلت الاتصالات الى أعلى مستوى حكومي حين اجتمع اديناور بناحوم غولدمان (رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ، الذي خولته اسرائيل الكلام باسمها) في فندق بلندن يوم ٦ كانون اول ١٩٥١ . هذه الاتصالات انتهت بموافقة الطرفين على اجراء مفاوضات رسمية بدىء بهـا في ٢٠ آذار ١٩٥٢ قرب لاهاي بهولندا . ولكن المفاوضات تعثرت ، إذ أن ممثلي اسرائيل طالبوا بمبالغ لا قبل لألمانيا بها ، وتحفظوا بقبول

بضائع المانية كتعويضات . وأثناء فترة تعثر المفاوضات هذه شكت اسرائيل ـ أمرها الى الولايات المتحدة ، بينما هددت مجلة جويش اوبزرفر الصهيونية اللندنية بأن كل الثقل المالي لليهود في العالم سيحشد ضد الألمان ، إذا لم تكن مقترحاتهم مرضية بالنسبة للتعويضات (ص ٤٠) . وحين استؤنفت المفاوضات في حزيران ١٩٥٢ استطاع الطرفان في النهاية التوصل الى اتفاق حول التعويضات على أساس أن تحدد قيمة التعويضات الاجمالية بمبلغ ٣٠٠٠ مليون مارك تدفع خلال (١٢) سنة كبضائع تزيد من امكانية الاستيطان اليهودي في فلسطين، ولا يشترط أن تكون كلها من صنع الماني . كذلك حصل « مؤتمر الطلبات المادية اليهودية ضد المانيا » على مبلغ ٤٥٠ مليون مارك. وفي احتفال رسمي بلوكسمبرغ وقع الاتفاقية كل من اديناور وموشي شاريت الذي كان آنئذ وزيراً لخارجية اسرائيـــل . وفي آذار ١٩٥٣ أبرمت الاتفاقية من قبل المجلس الاتحادي الألماني والكنيست الاسرائيلي .

يلاحظ المؤلف في تعليقه على اتفــاقية لوكسمبرغ أن الطرفين ، اسرائيل والمانيا الاتحادية ، قد تبادلا المنافع نتيجة لتسوية مشكلة التعويضات . فاسرائيل حصلت على معونة اقتصادية ضخمة ،بينما كان كسب المانيا الاتحادية كبيراً على الصعيد المعنوي (ص ٤٦) . كذلك أحسن المؤلف إذ ذكر بشكل خاص أن مندوبي الاحتكارات الالمانية الكبرى قد ساهموا في المفاوضات في عداد الوفد الألماني .إذ ضم هذا الوفــد مثلاً السيد ك . غتز K. Getz المرتبط بمصرف درسدن والذي كان مستشاراً مالياً لهتلر ، والدكتور ميرتون Merton رئيس شركة معادن الدولة (ميتال غيزيل شافت) وغيرهما .

* * *

الفصل الثالث : وعنوانه : «من اتفاقية لوكسمبرغ الى الاجتماع الأول بين رئيسي حكومتي المانيا الاتحادية واسرائيل» آذار ١٩٥٣ – آذار ١٩٦٠ » يستعرض المؤلف تأثير ابرام الاتفاقية في اسرائيل وفي المانيا الاتحادية . ففي اسرائيل رغم اصرار شاريت على ان الاتفاقية لاتعني انشاء علاقات دبلوماسية وتجارية طبيعية مع المانيا الاتحادية ، ظهرت بعض بوادر تحسن في تفهم اسرائيل لالمانيا الغربية ومصالحها . اذ سمح الكنيست للسفن الالمانية الغربية برفع اعلامها في المرافىء الاسرائيلية ، كذلك وافق على اضفاء الحماية القانونية للشارات الصناعية الالمانية . اما في ألمانيا الاتحادية فقد صور المسؤولون ورجال الاعلام الاتفاقية على أنها واجب معنوي وعلى انها ليست فقط اتفاقية مع اسرائيل، بل «انها صلح مع الذات ايضاً » . رغم هذا فقد دل استفتاء للرأي العام الالماني الغربي اجري في كانون أول ١٩٥٢ ان ٤٩٪ ممن أدلوا بآرائهم عارضوا ابرام الاتفاقية، بينما لم يوافق على ابرامها سوى ٣٨٪ ، وعلى أية حال ، ومع تضاؤل احتمال مقاطعة عربية مجدية للبضائع الالمانية الغربية (ص ٥٢) فان الدوائر الصناعية في المانيا الاتحادية اخذت تنظر الى السوق الاسرائيلية بمزيد من الرغبة . وفي نيسان ١٩٥٣ بدأت العمل في مدينة كولون بالمانيا بعثة تجارية اسرائيلية مهمتها عقد الصفقات التجارية لشحنها الى اسرائيل كتعويضات . وأجرت البعثة عقوداً مع حوالي (٥٠٠٠) مؤسسة اقتصادية المانية غربية ، تراوحت قيمة كل عقدمنها بين ٢٥ و ١٠٠ مليون مارك . اما بضائع التعويضات بحسب اصنافها فقد اتفق على ان يكون ٧٠٪ منها منتجات صناعية فولاذية او مواد أخرى معدنية و ١٥٪ منها منتجات كيماوية، اما الباقي فاتفق على ان يدفع كمنتجات غذائية وخدمات .

أما رد الفعل العربي المعادي لاتفاقية لوكسمبرغ فقد حاولت ألمانيا

الاتحادية تهدئته بالتعهد بعدم شحن المواد الاستراتيجية لاسرائيل، وبعقد اتفاقيات تجارية مع الاقطار العربية . ويستعرض المؤلف في هذا العرض الحجج العربية ضد اتفاقية التعويضات ويؤيدها (اسرائيل ليست ممثلة لليهود ولايحق لها ان تعوّض رسمياً دون ان تدفع هي نفسها تعويضاً للفلسطينيين . ثم ان مبلغ التعويضات عال وان منها مايخل بالحياد الالماني الغربي المعلن من قضية فلسطين . كان التعويضات تساعد اسرائيل في خططها العدوانية) . ويعلق على اثر هذه التعويضات على الاقتصاد الاسرائيلي بقوله: انها ساعدت على تطوير الاقتصاد الرأسمالي في اسرائيل (ص ٥٦) .

يفرد المؤلف بعد ذلك بحثاً خاصاً للعدوان الثلاثي على قناة السويس وتأثيره على العلاقات بين اسرائيل والمانيا الاتحادية . في هذا المجال يضع المؤلف كيف ان المانيا الاتحادية استمرت في شحن البضاعة والاسلحة الى اسرائيل رغم وصم هذه الاخيرة كمعتدية من قبل الأمم المتحدة . ويستعرض محاولات اسرائيل عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٨ انشاء علاقات دبلوماسية مع المانية الاتحادية كنتيجة للعزلة السياسية التي وجدت اسرائيل نفسها محاطة بها بعد مغامرة السويس ، وكيف ان المانيا الاتحادية تحفظت تجاه هذه المحاولات خوفاً من اعتراف الاقطار العربية بالمانيا الديمقراطية . ويشرح المؤلف أنه في الوقت الذي اوقفت فيه الولايات المتحدة مساعداتها الاقتصادية والعسكرية لاسرائيل اثر العدوان الاسرائيلي على سيناء، دفعت واشنطن حكومة بون الى أخذ مكانها في مساعدة اسرائيل ، بحجة ان المانيا الاتحادية ليست عضواً في هيئة الامم ولا يقع عليها أي التزام أدبي تجاه الهيئة الدولية .

إن الأثر العسكري لاتفاقية التعويضات واضح في ان المساعدة الالمانية

لإسرائيل أسهمت في انشاء عدة مصانع للاسلحة في اسرائيل . وقد كان الانتاج العسكري لهذه المنشآت كبيراً ، بحيث ان اسرائيل أصبح بامكانها بيع عدد من أنواع الأسلحة الى البلدان الأعضاء في معاهدة حلف شمال الاطلسي ، بما فيها المانيا الاتحادية نفسها . كذلك يكشف المؤلف عن ان اتفاقاً سرياً ضمن اطار اتفاقية التعويضات عقد عام ١٩٥٦ بشأن شحن بعض انواع الأسلحة الثقيلة إلى اسرائيل بمبلغ حوالي ٦٠ مليون مارك سنوياً . كذلك نصت هذه الاتفاقية على تدريب الضباط الاسرائيليين في المانيا الاتحادية . ويستشهد المؤلف في هذا المجال بما ذكرته جريدة دي فيلت Die Welt الألمانية الغربية من ان (٥٠) ضابطاً اسرائيلياً كانوا يتدربون في المانيا الاتحادية قبيل عدوان السويس ، وان الخبراء الألمان اسهموا في بناء محطات لإطلاق الصواريخ في اسرائيل (ص ٦٧) . ويكشف المؤلف أيضاً أنه في أواخر عام ١٩٥٧ تم الاتفاق بين بون وتل أبيب على ان يستعمل خمس قيمة التعويضات في تغطية ثمن شحنات الأسلحة الألمانية الغربية لإسرائيل . ولا شك ان هذا الاتفاق كان خرقاً فاضحاً لاتفاقية لوكسمبورغ التي نصت على أن التعويضات تدفع كبضائع ذات استعمال مدني .

وقد تطور بعد ذلك الاتجار بالاسلحة بين المانيا الغربية واسرائيل ، لاسيما بعد ان تم اجتماع اديناور وبن غوريون في نيويورك (آذار ١٩٦٠) ، فقد تعهد اديناور في ذلك الاجتماع بامداد اسرائيل سراً باسلحة ثقيلة تبلغ قيمتها ٣٢٠ مليون مارك الماني غربي . وقد اشتملت هذه الصفقة ، التي لا تعرف تفاصيلها بالضبط الى الآن ، على مائتي دبابة وخمس قوارب طوربيد ، وعدد من الطائرات والسيارات المصفحة وغيرها . وقد اهتم شتراوس (من الجانب الالماني) وشمعون بيرس (من الجانب الاسرائيلي ، الذي كان آنذاك نائباً لوزير الدفاع) بوضع التفاصيل

التنفيذية للاتفاق السري . كذلك وعد اديناور بن غوريون بمنح اسرائيل قرضاً بحوالي (٢٠٠٠) مليون مارك . اما اسرائيل فقد تعهدت مقابل ذالــك بأن لاتجعل من محاكمة ايخمان مناسبة لشن هجوم اعلامي على المانيا الاتحادية ، وان لايقوم القضاء الاسرائيلي بطلب هانز غلوبكه Hans Globke أحد المقربين إلى اديناور ،ممن كان لهم ارتباط بالنازية ،لتقديم شهادته في محاكمة ايخمان كما طالب بذلك محامو الدفاع (ص ٧٠) . ومنذ اجتماع اديناور-بن غوريون اخذت اجهزة الاعلام الاسرائيلية والصهيونية تركز على أن المانيا الاتحادية لايربطها أي رباط بالمانيا النازية .. انها « المانيا أخرى تقوم على القانون والعدالة » (ص ٧١ - نقلاً عن تصريح لبن غوريون) .

ومع أن قضية انشاء علاقات دبلوماسية بين بون وتل ابيب كانت ماتزال مؤجلة في تلك الفترة ،الا ان الدكتور فاليشنوفسكي يرى ان اجتماع نيويورك كان خطوة مفيدة جداً للطرفين : اسرائيل افادت منه عسكرياً واقتصادياً ،بينما تمتعت بنتيجته المانيا الاتحادية باعادة اعتبار كاملة تقريباً من قبل اسرائيل والصهيونية العالمية .

• • •

الفصل الرابع : « السياسة الخارجية لالمانيا الاتحادية تجاه اسرائيل منذ الاجتماع الأول لرئيسي الحكومتين حتى انشاء علاقات دبلوماسية بينها آذار ١٩٦٠ - ايار ١٩٦٥ » .

يبحث المؤلف اولاً طبيعة المساعدات الاقتصادية الالمانية لاسرائيل ، ويرى ان اتفاقية التعويضات كانت بالنتيجة لمصلحة المانيا الاتحادية ومؤسساتها المالية ،اذ استطاعت عن طريقها منافسة البضائع الغربية الاخرى في اسرائيل ، واصبحت تحتل المرتبة الثالثة في التجارة الخارجية بعد امريكا وبريطانيا . كذلك

قامت كثير من المؤسسات المالية الاسرائيلية والالمانية الغربية بمشاريع مشتركة في حقل المصارف والتصنيع والتجارة البحرية . وقد امتدت آثار بعض هذه المشاريع فشملت عدداً من دول افريقيا وآسيا . واسهمت المانيا الاتحادية ايضاً اسهاماً جدياً في مشاريع اسرائيل الذرية . وعرفت هذه الحقيقة بشكل عاصف في خريف عام ١٩٦٤ . ويتم اسهام المانيا الاتحادية في المشاريع الذرية الاسرائيلية عن طريق مؤسسة وايزمان للبحوث التي عمل فيها بانتظام عدد من علماء الذرة الألمان .

واذا كانت المعلومات التي وردت في القسم الأول من هذا الفصل مجزأة احياناً ومشتتة ، فان العرض التاريخي في الأقسام التالية من هذا الفصل ، الذي يقدمه المؤلف لتطور العلاقات الاقتصادية والسياسية بين المانيا الاتحادية والأقطار العربية لاسيا للجمهورية العربية المتحدة منذ عام ١٩٦٠ حتى تدهور هذه العلاقات في مطلع عام ١٩٦٥ ، يمكن وصفه بأنه من خير ما كتب عن تلك الفترة. وكان أهم عامل في تدهور العلاقات ، هو انفضاح التعاون العسكري السري بين بون وتل أبيب . ولم يكن في حوزة بون لتهدئة الرأي العام العربي سوى وسيلتين : التلويح بمعونات اقتصادية ، وتأكيد إحجامها المؤقت عن إقامة علاقات دبلوماسية مع اسرائيل . ومن جهة اخرى كانت بون تخشى اعتراف الاقطار العربية (او بعضها على الأقل) بحكومة المانيا الديمقراطية بعد ان دعت الجمهورية العربية المتحدة السيد والتر البرشت لزيارتها في مطلع عام ١٩٦٥ . وفي محاولة للضغط على ج.ع.م لإلغاء دعوة البرشت ، اوقفت بون شحنات الاسلحة الى اسرائيل . وهكذا حين لم ترضخ ج . ع . م لضغط بون ، واستقبلت البرشت يوم ٢٤ شباط ١٩٦٥ استقبال رئيس دولة ذات سيادة ، اقترحت بون على تل ابيب في آذار انشاء

علاقات دبلوماسية بينها كتعويض عن إيقاف شحن الاسلحة الالمانية لاسرائيل (ص ٩٢) . ورغم احتجاجات الدول العربية وتهديداتها لم تعدل حكومة بون عن موقفها بشأن انشاء علاقات دبلوماسية مع تل أبيب . وفي أيار ١٩٦٥ صدر في بون وتل ابيب تصريح مشترك بأن الحكومتين اتفقتا على تبادل التمثيل الدبلوماسي فيما بينهما . على ان تبادل التمثيل الدبلوماسي لم يعد كافياً بحد ذاته في نظر اسرائيل التي الحت في طلب المزيد من المساعدات الاقتصادية ، وفي طلب إلغاء قرار ايقاف شحن الاسلحة . ومع انه ليس ثمة من وثيقة علنية صريحة تثبت ان اسرائيل قد اجيبت الى طلباتها لاسيما بالنسبة لالغاء قرار ايقاف شحن الاسلحة ، الا ان المؤلف يعتقد ، ولا شك انه مصيب في اعتقاده ، ان اتفاقاً ما قد تم بين بون وتل ابيب يتضمن الموافقة على المطالب الاسرائيلية (ص ٩٨ - ٩٩) . وفي آب ١٩٦٥ وصل الى تل ابيب سفير المانيا الاتحادية الدكتور رولف باولز Pauls الذي كان ضابطاً سابقاً في جيش المانيا الاتحادية ، بينما غادر اسرائيل الى بون بن ناتان Nathan ليشغل منصب اول سفير اسرائيلي هناك .

• • •

الفصل الخامس : « تطور العلاقات بين جمهورية المانيا الاتحادية واسرائيل منذ تبادل السفراء أيار ١٩٦٥ - حزيران ١٩٦٧ » (ص ٩٩ - ١١٧) . يبتدىء ببحث حول تطور العلاقات الاقتصادية بين الطرفين . يكشف المؤلف هنا أنه، حسب الارقام الالمانية الغربية ، تسلمت اسرائيل حتى تاريخ ١٩٦٦/٤/١ مبلغ ٣٤٥٠ مليون مارك ، منها ٢٤٠٠ مليون مارك بشكل بضائع وخدمات ، و ١٠٥٠ مليون مارك قيمة نفط خام نقلته الى اسرائيل شركات النفط البريطانية . كذلك دفعت حكومة بون لمواطنين اسرائيليين بصفة تعويضات فردية عن

اضرارهم اثناء الحكم النازي مبلغاً يزيد على ٧٠٠ مليون دولار اي حوالي ٣٠٠٠ مليون مارك الماني غربي . ويرى المؤلف انه منذ ذلك التاريخ (اوائل عام ١٩٦٦) يمكن القول ان المانيا الاتحادية شعرت بان اعتبارها أعيد اليهـــا بشكل كامل يؤهلها لمعاملة اسرائيل معاملة الند للند فترفض او تقبل شروط التعاون الاقتصادي مع اسرائيل كما يحلو لها ، وتفاوض مفاوضة مجدية في هذا الشأن (ص ١٠٢ – ١٠٣) . وقد اظهرت المانيا الاتحادية قدرتهـا على المفاوضة المجدية مع اسرائيل بصدد تنفيذ ما تعهد به اديناور عام ١٩٦٠ بشأن تقديم قرض كبير لاسرائيل .

ويستعرض في عدة صفحات بعد ذلك فعاليات المنظمات المعادية لبولونيا في اسرائيل ، كاتحاد مواطني سيليزيا في اسرائيل ، وكاتحاد يهود اوربا الوسطى وغيرهما . ويظهر اهمية هـذه المنظمات بالنسبة لحكومة بون المعروفة بمطامعها التوسعية في اوربا الوسطى والشرقية . أما البحث الاخير في هذا الفصل فهو حول مساعدة المانيا الاتحادية لاسرائيل في عدوان حزيران ١٩٦٧ . ويذكر المؤلف في هذا انه رغم اعلان المانيا الاتحادية حيادها الرسمي بالنسبة للنزاع ، الا أن كل احزاب المجلس الاتحادي ، وكل أجهزة الاعلام الالمانية الغربية وقفت الى جانب المعتدي . ويستشهد المؤلف بالعديد من تصريحات المسؤولين الالمان والاسرائيليين ، وبالعديد من مقتطفات الصحف ليبرهن على جدية الدعم الالماني الغربي للعدوان الاسرائيلي . من ذلك مثلا ما ذكرته مجلة **بيلد تسايتونغ Bild Zeitung** في ١٠ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ من أن الأسلحة التي ساهمت في نصر اسرائيل العسكري انما زودتها بها المانيا الاتحادية في نطاق اتفاقية التعويضات (ص ١١٢) ، وما ذكرته **ها آرتس** في ١٩٦٧/٦/٢٠ من أن اسرائيل لم تعامل سياسياً أجنبياً بمثل الترحيب وروح الاخوة اللذين عاملت بها فرانز جوزف شتراوس وزير دفاع المانيا الاتحادية

السابق . وقد اكد هذا ما اذيع بعد ذلك في المانيا الاتحادية من انه بين عامي ١٩٥٧ – ١٩٦٠ قابل شتراوس وزير الدفاع آنذاك نده الاسرائيلي مالا يقل عن (١٢) مرة ، واشرف بنفسه على إحكام فعالية بعض المعدات الحربيـــة الاسرائيلية (ص ١١٢ – ١١٣) . كذلك يورد المؤلف بعض المقارنات المفيدة ذات الدلالة بعيدة المدى بين التوسعية الصهيونية وبين التوسعية النازية ، من مثل ما ذكره راديو كولونيا من ان النصر العسكري الاسرائيلي انما يمكن مقارنته فقط مع نصر الجيش الالماني (النازي) في هجومه على بولونيا في ايلول ١٩٣٩ . ومن مثل أن التصريح الاسرائيلي بالحاق القدس المحتلة باسرائيل انما يشبه الى حد بعيد التصريح الهتلري بالحاق النمسا بالمانيا النازية عام ١٩٣٨ . ومن مثل أن الصحف الاسرائيلية كانت تستعمل التعبير الهتلري المعروف « المدى الحيوي » في معرض الحديث عن الاطماع الصهيونية التوسعية (ص ١١٢ – ١١٥) . كذلك يوضح المؤلف تطابق أساليب اسرائيل مع أساليب النازية في معـــاملة مواطني الأراضي المحتلة ، وكيف أن نازيين سابقين أعضاء في فرقة القمصان السوداء (S . S .) وغيرها من المنظمات النازية ، كانوا في طليعة المبتهجين بالعدوان الصهيوني . ويخلص المؤلف من كل ذلك الى القول : « ان اولئك الذين أعلنوا دائماً مواقف متطرفة في عدائهم لليهود وساعدوا النازيين بفعالية في افناء اليهود ، أظهروا تأييدهم ودعمهم الكاملين للعدوان الاسرائيـــلي » (١١٥) . كذلك يتقصى المؤلف اشارات ذات مغزى ظهرت في عدد من الصحف الالمانية تقارن بين وضعية القدس قبل عدوان حزيران وبين وضعية برلين الآن : ان برلين الشرق الأدنى لم تعد تباعد الحدود بين شقيها الآن . ذلك هو أحد تيارات الرأي في المانيا الاتحادية الذي ظهر إثر عـــدوان حزيران ، والذي عبر عنه بشكل اكثر وضوحاً شلام Schlamm الصحفي الالماني الغربي المعروف بميوله الصهيونيـــة حين كتب في

بيلد آم سونتاغ Bild am Sonntag الاسبوعية : « لا احد يمكنه أن يتعلم من اسرائيل كالمانيا الاتحادية . ان تل ابيب لم تلتفت الى الرأي العام الدولي . انها اتبعت نداء ضميرها القومي ، ولم تدع نفسها فريسة للشلل والوهم ، بل خلقت واقعا منجزاً بالقوة الصارخة . ان النتيجة الاولى لهذه المعركة الاستثنائية هي انها تحذف كليا النظرية السائدة من أن الحروب لم تعد وسيلة سياسية » (ص ١١٣ – ١١٤) .

وما يستخلصه الدكتور فاليشنوفسكي من كل ذلك انما هو نتيجة حق لاريب فيها . اذ يقول : « ان تلاقي أهداف بون وتل ابيب في نطاق السياسة الامبريالية للولايات المتحدة انما هو تعبير عن وحدة القوى المعادية للسلام . ان تطبيق الطرق النازية في معاملة المواطنين العرب في المناطق المحتلة بدعم وتأييد نازيين يجدون مرتعاً لانفسهم الان في المانيا الاتحادية ، انما هو أمر مخيف » (ص ١١٧) .

الفصل السادس : « دور الحركة الصهيونية في المعركة ضد الشيوعية وفي إعادة الاعتبار لجمهورية المانيا الاتحادية » .

يتعرض المؤلف في مطلع هذا الفصل إلى أهداف وخطط عمل الصهيونية المعاصرة كما حددتها المؤتمرات الصهيونية الأخيرة لينتقل من ذلك الى بحث صفة الحركة الصهيونية كحركة معادية للشيوعية ، وكيف أن ممثلي الصهيونية في البلدان الاشتراكية كانوا في الحقيقة عملاء للجاسوسية الغربية (ص ١٢٣ – ١٢٤) . ويذكر الدكتور فاليشنوفسكي هنا حقائق غير معروفة بشكل واسع عن تعاون بعض زعماء الصهاينة مع النازيين ضد القوى الاشتراكية . من مثل ذلك انه في عامي ١٩٤٤ – ١٩٤٥ عرضت المنظمات الصهيونية العالمية أن تزود بالسلاح قوات النازيين مقابل الافراج عن اليهود الهنغاريين شريطة أن يستعمل هذا السلاح ضد الجيش السوفييتي (ص ١٢٤) . كذلك يذكر المؤلف حادثة اسرائيل كاستنر Israel Kastner الرئيس السابق للوكالة اليهودية في هنغاريا

أثناء الحرب العالمية الثانية، الذي ثبت، أمام القضاء الاسرائيلي عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥ انه تعاون مع فرقة القمصان السوداء النازية لتهريب (٥٠٠٠) يهودي غني، بينهم اقرباؤه وزعماء الصهيونية في هنغاريا، مقابل عدم اعتراضه على قتل ما يقارب نصف مليون هنغاري يهودي ، ولم تكن حياة كاستنر طويلة بعد هذه المحاكمة ، إذ اغتاله البوليس السري الاسرائيلي في مطلع عام ١٩٥٧ (ص١٢٤ - ١٢٥) . أما حملة الصهيونية ضد البلدان الاشتراكية فتتمثل الآن في اتهام هذه البلدان بمعاداة السامية وبمحاولة التأثير على التعاون المشترك الذي تحققه هذه البلدان فيما بينها .

يبحث المؤلف بعد ذلك في العلاقة بين اسرائيل والحركة الصهيونيـــة العالمية ومشكلة الولاء المزدوج التي يعاني منها الصهاينة الذين يقطنون بلاداً غير اسرائيل ، وليس في بحث المؤلف هنا ما هو جديد بالنسبة للقارىء العربي[1] .

يعقد المؤلف بعد ذلك بحثاً طويلاً حول دور الصهيونية العدائي لبولونيا كجزء من المعركة ضد الشيوعية . وفي سبيل اعادة الاعتبار لالمانيا الاتحادية يرى الدكتور فاليشنوفسكي ان الصهاينة بتعهدهم غفران التراث النازي لالمانيا الاتحادية حاولوا أن يلصقوا جرائم النازية بالأمة البولونية ، وشنوا في سبيل ذلك حملة مسعورة من الاكاذيب والتخرصات تجلّت في نشر عدد كبير من المقالات والنشرات والكتب التي يعددها ويلخصها ويفندهــــا المؤلف . فمن أجل اعادة

---

(١) يبحث هذه المشكلة بالتفصيل كتاب صدر مؤخراً عن مركز الابحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية (سلسلة فلسطينية رقم ٥٩) بعنوان **اسرائيل ويهود العالم**، دراسة سياسية وقانونية ، بقلم مصطفى عبد العزيز (نيسان - ابريل ١٩٦٩ - ٢٣٤ ص)

الاعتبار لالمانيا الاتحادية،تهاجم الصهيونية بولونيا،حيث النظام السياسي القانوني للدولة ، وحيث ذهنية الشعب ونشاطات الحكومة كلها ،ترفض العنصرية وتدينها بكل مظاهرها (ص ١٣٩) . ومن الطريف المفيد ما يذكره المؤلف من انه بينما تشهد ألمانيا الاتحادية بزوغاً جديداً في نزعاتها النازية (في عام ١٩٦٥ صدر ما يقرب من ٣٠٠ حكم قضائي ضد معادين للسامية) فان محـــاولات الدعاية الصهيونية الاستعمارية تريد ان تقنع العالم تخرصاً بأنه « في النهاية يمكن للانسان ان يرى امكان المصالحة مع الألمان الذين جرفتهم التيارات البربرية البولونية » ! (ص ١٤٠ – ١٤٢) . في هذا البحث يبرهن المؤلف انه لا يمكن اعتبار الأمة البولونية مسؤولة عن اختيار النازيين للارض البولونية كمكان لمعسكرات التصفية اثناء الحرب العالمية الثانية . كما يبرهن ايضاً على ان الشعب البولوني ساعد اليهود ضد النازيين ما وسعه ذلك .

وكنا نود لو تطرق هذا البحث الى النشاط الصهيوني في بولونيا بعد الحرب العالمية الثانية ،ولا سيما أثناء عدوان حزيران وبعده،والى الحملات الدعائية الصهيونية ضد بولونيا التي اشتدت إثر استنكار الحكومة البولونية لهذا النشاط، وحدّها منه [1] .

في البحث الاخير من هذا الفصل يستعرض المؤلف السياسة الاسرائيلية

---

(١) من مثل هذه الحملات الدعائية التي ظهرت مؤخراً في مجلات فرنسية معروفة المقالان التاليان :

Claudi Briale : « Pologne ; l'antisèmistisme comme instrument politique » les Temps Moderne, Janvier . 1969 P. 1271 — 1289 .

Richard Marienstras , « Sue l'antisemisme en Pologne » Esprit Fevrier 1969 P. 315 - 321

المتحالفة مع بون وتأثيرها على العلاقات البولونية الاسرائيلية . كذلك يستعرض المواقف المختلفة لليهود الاسرائيليين من أصل بولوني تجاه وطنهم الأصلي . ويوضح أن السياسة البولونية لا يمكنها ان تنسجم مع سياسة اسرائيل المرتبطة بالاستعمار والمتحالفة مع بون والتي تتبع سياسة توسع عنصري في منطقة الشرق الأوسط (ص ۱۷۲ - ۱۷۳) .

* * *

النتيجة التي يصل إليها المؤلف (ص ١٧٤ - ١٧٨) هي أن التحالف بين بون وتل أبيب إنما تم بتشجيع الولايات المتحدة ضمن نطاق سياستها الامبريالية، وان قوة اسرائيل والصهيونية التي يعتمد عليها ويدعمها حكام بون إنما تشكل تهديداً للسلم العالمي .

اما الخاتمة : التي كتبت في أواخر عام ١٩٦٧ (ص ١٧٩ - ١٩٥) فانها تركز على مغزى عدوان حزيران ومعناه بالنسبة للتحالف الاسرائيلي الالماني الغربي . وفي هذا المجال يتتبع المؤلف مظاهر ازدياد التعاون العسكري بين الطرفين ، وازدياد عدد ومستوى زيارات المسؤولين السياسيين والعسكريين المتبادلة ، وازدياد الدعم الاقتصادي الألماني الغربي لاسرائيل ، وكيف أن ميزانية وزارة البحث العلمي بألمانيا قد خصصت (٤) ملايين مارك في عام ١٩٦٧ - ١٩٦٨ لمساعدة مؤسسة وايزمان الاسرائيلية للبحوث ، وكيف ان هذه المؤسسة التي تعمل في الحقل الذري أضفت على ايرهارد عضويتها الشرفية أثناء زيارته الأخيرة لاسرائيل بعد عدوان حزيران .

وفي نطاق محاولات اسرائيل والصهيونية اعادة الاعتبار لألمانيا الاتحادية، يورد المؤلف سكوت اسرائيل والصهيونية عن تغلغل نازيين سابقين في مختلف

الادارات ومجالات النشاط العامة في ألمانيا الاتحادية استعراض المطبوعات الصهيونية التي ظهرت مؤخراً والتي تبرىء ألمانيا الاتحادية من تراثها النازي لتلصق هذا التراث بالشعب البولوني .

ويكرر المؤلف أخيراً أطروحته الأساسية التي نوافقه عليها بدون تحفظ، والتي أثبتت صحتها الوقائع والاحـــداث المعاصرة ، من ان التحالف بين ألمانيا الاتحادية واسرائيل والحركة الصهيونية العالمية في نطاق السياسة الامبريالية للولايات المتحدة انما يشكل خطراً على السلم في منطقة الشرق الأوسط وفي العالم أيضاً .

* * *

ملاحظات تقييمية عامة : لا شك ان الكتاب الذي لخصنا محتوياته وعلقنا على بعضها فيما سبق ، يمثل إسهاماً جدياً أصيلاً في دراسة العلاقة التي بدأت غامضة وانتهت بتحالف كامل بين طرفين كان من المتوقع أن يكونا نقيضين في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية . لقد كان من الطبيعي المتوقع ان يكون ثمة تناقض جذري بين نظرة ألمانيا الاتحادية التي تحمل تراثاً نازياً واضحاً، وبين نظرة اسرائيل التي تدعي أنها تمثل يهود العالم الذين اضطهدتهم النازية . ولكن الأمور لم تتطور بالشكل الطبيعي المتوقع بين بون وتل أبيب لا سيما منذ ربيع عام ١٩٥١ ، نتيجة لجهود الولايات المتحدة الامريكية والدور المشترك الذي رسمته مصالحها الامبريالية العالمية لحلفائهـــا في بون وتل أبيب . وتكمن قيمة الكتاب الذي استعرضناه ، بالدرجة الأولى ، في جهد المؤلف في تقصي حقائق لم يكتب لها الى الآن كبير تداول ، ومتابعة تأثير هذه الحقائق في مجال تحقيق وتطوير التحالف الاسرائيلي ـ الألماني الغربي .

وتكمن قيمة الكتاب ثانياً في توضيحه للرأي العام الاشتراكي خاصة وللعالم عامة حقائق معروفة في الوطن العربي عن الارتباط بين اسرائيل من جهة والصهيونية العالمية من جهة ثانية ، وعن الارتباط بين اسرائيل والصهيونية معاً وبين المصالح الامبريالية العالمية للولايات المتحدة ، وما نشأ عن هذا الارتباط من تحالف وثيق بين بون وتل أبيب في نطاق الاستراتيجية السياسية الامريكية في منطقتي الشرق الأوسط وأوروبا الوسطى والشرقية .

وإذا كانت النتيجة التي توصل إليها المؤلف ، وهي أن قوة اسرائيل والصهيونية والتي يعتمد عليها ويدعمها حكام بون إنما تشكل تهديداً للسلم العالمي، إذا كانت هذه النتيجة ليست بالجديدة أو المدهشة ،فانها كسبت من خلال جهد المؤلف حججاً اضافية وبراهين من الصعب المرور بها بشكل سريع ، لا سيما وان الكتاب جاء في مجمله متحلياً بلهجة هادئة علمية موضوعية وعرضت فيه الوثائق والاحداث التاريخية باحترام وامانة .

قد يؤخذ على الكتاب شيء من النقص في المنهجية إذ يغلب عليه أحياناً الاستطراد في بعض المواضع ،وليس بالنادر في الكتاب أن نشهدالمؤلف يشبع احدى النقاط بحثاً ليعود فيبحثها من جديد في موضع لاحق . ولعل السبب في أكثر ذلك يعود الى أن بعض مباحث الكتاب قد وسعت في طبعاته المتكررة.

ومها يكن من أمر هذه المآخذ البسيطة فانها لا تنتقص بحال من قيمة الكتاب وأهميته ، ومن الجهد الكبير المشكور الذي بذله المؤلف في تجميع مواد وفيرة، وفي تحليلهاوتقيمها والخلوص منها الى نتائج أثبتت صحتها الأيام .

مسألة تعريف العدوان

في نطاق أعمال منظمة الأمم المتحدة

عدنان نشابة

في هذه الظروف العصيبة التي يجتازها العالم العربي في جميع أقطاره ، وفي هـذا الوقت الذي يستمر فيه العدوان الصهيوني على الارض العربية ، فتتضافر الجهود وتبذل دماء الشهداء في سبيل ازالة آثاره ، قصدت بهـذا المقال أن انقل الى القارىء العربي ، المتتبع لتطور القانون الدولي والمهتم بشؤونه ، لمة عن الأعمال التي قامت بها وتستمر فيها منظمة الامم المتحدة لوضع تعريف للعدوان يستنير به الرأي العام العالمي ويكون، بفضل تحديد عناصره الاساسية وتوضيحها ، عاملا ايجابياً ، في تحقيق الاتجاه التدريجي للقانون الدولي المعاصر ومصدراً مفيداً يساعد أجهزة الامم المتحدة المختصة وغيرها من المراجع الدولية على تعيين المعتدي في عصر لم تعد فيه الحروب العدوانية الغاصبة لحقوق الشعوب وسيلة مقبولة في ميدان العلاقات الدولية .

وقد قدرت للاحاطة ، في اختصار ، بجوانب الموضوع جميعا أن اقسم هذا البحث الى الاقسام الثلاثة الآتية :

أولاً : لمحة عن المراحل التي مرت بها معالجة الموضوع

ثانياً : نص مشاريع تعريف العدوان المقدمة

ثالثاً : العقبات في سبيل التوصل الى وضع صيغة للتعريف المنشود

أولاً : لمحة عن المراحل التي مرت بها معالجة الموضوع :

١ – ليست هذه هي المحاولة الاولى التي تبذل في نطاق منظمة الامم المتحدة في سبيل **تعريف العدوان** ، فقد سبق وأدرج هذا الموضوع في جدول اعمال الجمعية العامة للامم المتحدة عام (١٩٥٠) بناء على طلب الاتحاد السوفييتي ، وأحيل الى لجنة القانون الدولي آنذاك بناء على اقتراح تقدم به الوفد العربي السوري .

٢ – **انشأت الجمعية العامة لجنتين الأولى** بقرارها رقم (٦٨٨) تاريخ ١٩٥٢/١٢/٢٠ من (١٥) عضواً ومهمتها تقديم مشاريع **لتعريف العدوان أو مشاريع عرض لمفهوم العدوان** ، بينما أوكلت الى **اللجنة الثانية** المشكلة بالقرار رقم (٨٩٥) تاريخ ١٩٥٤/١٢/١٤ من (١٥) عضواً مهمة **تقديم تقرير مفصل عن الموضوع على أن يلحق به مشروع تعريف العدوان** ، وكانت الجمهورية العربية السورية من بين الدول التي تم اختيارها لاشغال عضوية اللجنتين المذكورتين .

٣ – تضمن تقرير كل من اللجنتين المشار اليها الى الجمعية العامة مشاريع تعاريف للعدوان تقدمت بها مجموعات الدول الاعضاء فيها ، وقد تعذر التوفيق بين وجهات النظر المختلفة في كل منها بشأن تعريف العدوان المنشود .

٤ – لدى متابعة دراسة الموضوع من قبل الجمعية العامة عام ١٩٥٧ قررت عدم التصويت على هذه المشاريع ، **وتشكيل لجنة ثالثة** بالقرار رقم (١١٨١) تاريخ ١٩٥٧/١١/٢٩ **أوكلت اليها مهمة تعيين الموعد الذي تراه مناسباً** لمتابعة دراسة موضوع تعريف العدوان . الا أن هذه اللجنة عقب اجتماعات لها متتالية كان

آخرها في نيسان عام ١٩٦٧ لم تتمكن من الاتفاق على هذا الموضوع لمتابعة الاعمال وقد انفضت اجتماعاتها بتاريخ ٢٦/٥/ ١٩٦٧ دون أن تتمكن من تقديم التقرير المطلوب .

٥ – حيال العقبات التي كانت توجدها الولايات المتحدة الامريكية والدول الموالية لها في سبيل متابعة الاعمال في هذا الصدد ، وللخروج من مرحلة التسويف التي استمرت طيلة السنوات العشر الاخيرة ، وعلى اثر العدوان الاسرائيلي الأخير على البلاد العربية ، بادر الاتحاد السوفييتي الى طلب ادراج موضوع « ضرورة التعجيل في وضع تعريف للعدوان بالنظر للاوضاع الدولية الراهنة » في جدول اعمال الدورة الثانية والعشرين للجمعية العامة باعتباره **مسألة هامة ومستعجلة .**

٦ – تقرر مناقشة الموضوع في الجمعية العامة (في الفترة ما بين ٢٨/١٠ و ٤/١٢/ ١٩٦٧ ثم في اللجنة السادسة في الدورة الثانية والعشرين المذكورة ، وعقب هذه المناقشة تقرر تشكيل لجنة خاصة من (٣٥) عضواً من بينها الجمهورية العربية السورية وأوكلت الى هذه اللجنة مهمة **دراسة الموضوع من جميع جوانبه بغية التمكين من اعداد تعريف ملائم للعدوان وأن تقدم اللجنة تقريراً الى الجمعية العامة في دورتها الثالثة والعشرين تعرض فيه جميع الآراء التي أبديت وجميع المقترحات المقدمة .**

٧ – اجتمعت اللجنة المذكورة في جنيف ما بين ٤/٦ و ٦/٧/١٩٦٨ ، وانتهت الى تقديم تقريرها الى الجمعية العامة بهذا الصدد تحت رقم (أ/ ٧١٨٥) تاريخ ٢٩/٨/ ١٩٦٨ . وبعد مناقشة اللجنة السادسة (القانونية) للتقرير المذكور ، قررت الجمعية العامة في دورتها الثالثة والعشرين الماضية الموافقة على دعوة لجنة تعريف العدوان لعقد دورة لها ثانية في اقرب وقت ممكن خلال العام ١٩٦٩ وطلبت منها تقديم تقرير عن اعمالها يدرج في جدول اعمال الدورة الرابعة والعشرين القادمة للجمعية العامة لمتابعة دراسة الموضوع . هذا وقد دعا الامين العام للامم المتحدة ، عملا بالقرار المذكور ، الى عقد اجتماعات لجنة تعريف العدوان في نيويورك ما بين ٢٤ شباط و ٢٨ آذار ١٩٦٩ .

ثانياً : نص مشاريع تعريف العدوان المقدمة :

لن أتطرق في هذا المقال الى نتائج اجتماعات لجنة تعريف العدوان الأخيرة ما بين

٢٤ / ٢ و ٢٨ / ٣ / ١٩٦٩ اذ سأتعرض الى ماأسفرت عنه هذه الاجتماعات في مقال لاحق بعد دراسة كافية لهذه النتائج .وسأكتفي في هذا المقال باستعراض مشاريع تعريف العدوان التي تقدمت بها مجموعات الدول الاعضاء في اللجنة نتيجة اجتماعاتها قبل الاخيرة في جنيف مابين : / ٦ و ٦ / ٧ / ١٩٦٨ .وتعتبرهذه المشاريع حاوية العناصر الاساسية التي ترى الدول الاعضاء تضمينها التعريف المنشود والتي تعطي للقارىء العربي صورة واضحة عن مواقف الدول المختلفة بصدد مضمون هذا التعريف .

واني أورد فيا يلي مشاريع هذا التعريف التي تضمنها تقرير اللجنة المشار اليها أعلاه عن اجتماعاتها في جنيف مابين : / ٦ و ٦ / ٧ / ١٩٦٨ :

آ ـ مشروع الدول الاثني عشرة : المقدم من قبـل الدول الآسيوية والافريقية الآتية :

الجمهورية العربيـــة السورية ، الجزائر ، كونغو (كنشاسا) ، قبرص ، غانا ، غيانا ، اندونيسيا ، مدغشقر ، اوغندة ، الجمهورية العربية المتحدة ، السودان ، يوغوسلافيا ، وهذا نصه :

ان الجمعية العامة

ايماناً منها بأن الحفاظ على السلم والأمن الدوليـين يمكن تعزيزه باقرار تعريف لتعبير « عدوان » كما ورد في ميثاق الامم المتحدة .

ووعيـاً لمسؤوليات مجلس الامن فيما يتعلق بالعـدوان بموجب المادة الاولى (فقرة ١) والفصل السابع من الميثـاق .

مذكرة أيضـاً بالسلطـة التقديرية (pouvoir discrétionnaire) ، التي تمنحها المادة (٣٩) من الميثاق لمجلس الامن في تقريره وجود أي تهديد للسلم أو خرق له أو عمل من أعمال العدوان ،

معتبرة انه لتقرير ماإذا كان قد وقع عدوان ما ، يقتضي أن تراعى الظروف الخاصة بكل حالة ، الا أنه من المناسب مع ذلك صياغة بعض المبادىء الـتي يمكن أن تسترشد بها أجهزة الأمم المتحدة المختصة ،

مقتنعـة بأن اقرار تعريف للعدوان من شأنه عدم التشجيع على وقوع عدوان محتمل ، **مؤكدة بأن أرض أي دولة لايجوز انتهاكها ولايمكن أن تكون**

هدفاً - ولو مؤقتاً - للاحتلال العسكري أو لأي اجراء من اجراءات القوة متخذ من قبل دولة أخرى بأية حجة كانت ، وان مثل هذا الاستيلاء بالقوة على الاراضي لن يعترف به .

مؤكدة كقاعدة آمرة من قواعد القانون الدولي - بأن منظمة الأمم المتحدة هي وحدها صاحبة الاختصاص الاصلي باستخدام القوة في ممارسة مهامها للمحافظة على السلام والأمن الدوليين ، وبالتالي ان استخدام القوة - من قبل دولة أو مجموعة من الدول ضد دولة أخرى أو مجموعة من الدول ، هو عمل غير قانوني ويشكل انتهاكا لأهداف ومبادىء ميثاق منظمة الامم المتحدة والقانون الدولي المعاصر .

مؤكدة أيضاً بأن الحق الطبيعي في الدفاع عن النفس ، الفردي أو الجماعي ، لايمكن ممارسته الا في حالة الهجوم المسلح (العدوان المسلح) وفقاً للمادة ٥١ من الميثاق

تعلن مايلي :

١ - العدوان هو استعمال القوة بأي شكل كان ، من قبل دولة أو مجموعة من الدول ضد شعب أو أرض دولة أخرى أو مجموعة من الدول ، أو بأي شكل يمس السلامة الإقليمية أو السيادة أو الاستقلال السياسي لهذه الدولة الاخرى أو مجموعة الدول الاخرى ، الا في حالة ممارسة الحق الطبيعي المشروع للدفاع الفردي أو الجماعي - عن النفس ، أو عندما يكون هذا الاستخدام من قبل جهاز مختص في الامم المتحدة أو تحت سلطته .

٢ - وفقاً للتعريف آنف الذكر ، وعلى أن لايمس ذلك بامكان وصف أعمال أخرى بأنها أعمال عدوانية ، فان الاعمال التالية هي بخاصة أعمال من اعمال العدوان :

(أ) اعلان الحرب من قبل دولة على دولة أخرى انتهاكاً لميثاق الأمم المتحدة .

(ب) غزو القوات المسلحة لدولة ما ، لاراضي دولة أخرى أو **الاحتلال العسكري أو ضم هذه الاراضي أو جزء منها .**

(ج) الهجوم المسلح ضد الاراضي او المياه الاقليمية او المجال الجوي لدولة من قبل القوات البرية او البحرية أو الجوية أو الفضائية التابعة لدولة أخرى .

(د) حصار شواطىء أو مرافىء احدى الدول من قبل القوات المسلحة لدولة اخرى .

(هـ) القصف ، أو استخدام الصواريخ المقذوفة ، أو أي واسطة تدمير أخرى ضد

شعب أو أرض أو المياه الاقليمية او المجال الجوي لدولة من قبل القوات البرية أو الجوية أو البحرية أو الفضائية لدولة أخرى .

٣ ـ أي استخدام للقوة بغرض منع شعب غير مستقل من ممارسة حقه الطبيعي بتقرير مصيره بنفسه وفقاً لقرار الجمعية العامة رقم ١٥١٤ (الدورة ١٥) ، يشكل خرقاً لميثاق الامم المتحدة .

٤ - لايمكن التذرع بأية اعتبارات سياسية أو اقتصادية او استراتيجيـة أو أمنية أو اجتماعية أو ايديولوجية لهذه الغاية ، أو أية اعتبارات أخرى ، كحجة لتبرير ارتكاب أي من الاعمال المذكورة اعلاه ، وبصورة خاصة ، لايمكن التذرع بالاوضاع الداخلية في دولة ما أو بأية قرارات تتخذها هذه الدولة في مجال التشريع وتمس معاهدات دولية .

ب ـ مشروع الدول الاميركية اللاتينية الاربع الآتية : كولومبيا ، الاكوادور ، المكسيك ، الاورغواي ، وهذا نصه :

١ – ان استخدام القوة من قبل دولة او مجموعة من الدول ضد دولة أخرى أو دول أخرى أو مجموعة من الدول الاخرى هو عمل غير قانوني وانتهاك لاهداف ومبادىء ميثاق الامم المتحدة .

٢ – ان لمنظمة الأمم المتحدة وحدها الامتياز باستخدام القوة وفقاً للميثاق وذلك في ممارسة مهماتها بالمحافظة على السلام والأمن الدوليين .

٣ – وبالتالي ، ان تحريم استخدام القوة لايؤثر على الاستخدام المشروع للقوة من قبل جهاز مختص للأمم المتحدة ، أو من قبل جهاز يقع تحت سلطته ، أو من قبل هيئـة اقليمية ، أو ممارسة حق الدفاع الطبيعي عن النفس ، الفردي او الجماعي ، المعترف به في ميثاق الامم المتحدة .

٤ – ان ممارسة حق الدفاع المشروع عن النفس ، الفردي أو الجماعي ، المعترف به في المادة ٥١ من الميثاق ، لايمكن الادعاء بها الا لمجابهة هجوم مسلح (عدوان مسلح) .

٥ – يجوز للدولة التي تكون عرضة لأعمال تخريبية أو ارهابية مؤيدة من قبل دولة أو دول أخرى ، أن تتخذ خطوات معقولة وملائمة لصيانة وجودها ومؤسساتها .

٦ – ان استخدام القوة من قبل المنظمات الاقليمية ، باستثناء حالة الدفـاع

المشروع عن النفس ، يجب أن يأذن به ، صراحة ، مجلس الامن وفقاً للمادة ٣٠ من ميثاق الامم المتحدة .

٧ - ان استخدام القوة للحيلولة دون ممارسة الشعوب غير المستقلة لحقها الطبيعي في تقرير المصير وفقاً لقرار الجمعية العامة رقم ١٥١٤ (الدورة ١٥) هو خرق لميثاق الامم المتحدة .

٨ - ان الاعمال التالية ، تعتبر ، بصورة خاصة ، أعمال عدوان مباشر :

(أ) اعلان الحرب من قبل دولة على دولة أخرى انتهاكاً لميثاق الامم المتحدة .

(ب) قيام القوات المسلحة لدولة ما بغزو اراضي دولة أخرى .

(ج) الهجوم المسلح ضد اراضي دولة ما من قبل القوات البرية أو البحرية أو الجوية لدولة أخرى .

(د) حصار شواطىء أو موانىء أو أي جزء آخر من أراضي دولة ما ، من قبل القوات البرية أو البحرية أو الجوية لدولة اخرى .

(هـ) قصف أراضي احدى الدول من قبل القوات البرية أو البحرية او الجوية لدولة أخرى او بواسطة الصواريخ المقذوفة .

(و) استخدام الاسلحة الذرية أو الجرثومية أو الكيماوية أو أي سلاح تدميري شامل آخر .

٩ - ان أي اعتبار سياسي أو اقتصادي أو استراتيجي أو اجتماعي أو ايديولوجي لايمكن الادعاء به لتبرير الاعمال المشار اليها في الفقرات الآنفة .

١٠ - ان التعريف المشار اليه اعلاه لايعد بشكل من الاشكال من السلطة المطلقة للاجهزة المختصة بالأمم المتحدة التي قد تدعى لتعيين المعتدي .

ج - مشروع الدول الثلاث عشرة المشترك والمقـــدم من قبل الدول الآتية :

قبرص ، كولومبيا ، الكونغو (كنشاسا) ، الاكوادور ، اسبانيا ، غانا ، غيانا ، اندونيسيا ، ايران ، المكسيك ، اوغنده ، الاوروغواي ، يوغسلافيا ، وهذا نصه :

(١) ان الجمعية العامـــة مقتنعة بأن المحافظة على السلام والأمن الدوليين يمكن تعزيزها بتبني تعريف لتعبير « العدوان » كما جاء في ميثاق الامم المتحدة ،

(٢) واقتناعاً منها بأن الهجوم المسلح (العدوان المسلح) هو أشـــد وأخطر

أشكال العدوان ، وان من المناسب في هذه المرحلة العمل على وضع تعريف لهذا الشكل من العدوان ،

(٣) وإذ تدرك مسؤوليات منظمة الامم المتحدة في المحافظة على السلام والامن وفقاً للمواد الخاصة بذلك في ميثاقها ، وكذلك واجب جميع الدول في القيام بحسن نية بالالتزامات التي يفرضها عليها الميثاق ،

(٤) وإذ تذكر أيضاً السلطات الخاصة التي تخولها المادة ٣٩ من الميثاق لمجلس الامن في تقريره لوجود أي تهديد للسلم أو خرق له أو أي عمل من أعمال العدوان، وفي اقراره الاجراءات الواجب اتخاذها وفقاً للمادتين ٤١ و ٤٢ للمحافظة على الامن والسلام الدوليين أو لاعادتها ،

(٥) وإذ تأخذ في الاعتبار أنه لتقرير ما اذا كان قد وقع عدوان ما ، يقتضي أن تراعى الظروف الخاصة بكل حالة ، إلا أنه من المناسب مع ذلك صياغة بعض المبادىء التي يمكن أن تكون مرشدة في هذا المضمار ،

(٦) وإذ تدرك بأن اقرار تعريف للعدوان من شأنه عدم تشجيع وقوع أي عدوان محتمل ،

(٧) وإذ تؤكد من جديد مبدأ عدم جواز انتهاك السلامة الاقليمية لأي دولة ، تعلن ما يلي :

١ - من أجل أغراض هذا التعريف ، فان العدوان هو استعمال القوة المسلحة ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، من قبل دولة ضد أراضي دولة أخرى - بما في ذلك مياهها الاقليمية ومجالها الجوي - مهما كان أثر ذلك على السلامة الاقليمية لهذه الدولة أو سيادتها أو استقلالها السياسي ، ما لم يجر ذلك من قبل مجلس الامن أو تحت اشرافه ، أو في ممارسة حق الدفاع الطبيعي والمشروع عن النفس ، فردياً كان أو جماعياً .

٢ - للامم المتحدة وحدها - وبالدرجة الأولى لمجلس الأمن - صلاحية استعمال القوة وفقاً للميثاق . وعليه فان استعمال القوة من قبل أي دولة ضد دولة أخرى ، فيما عدا الحالة المنصوص عليها في الفقرة ٣ أدناه ، يعتبر عملاً غير قانوني .

٣ - لا يمكن ممارسة الحق الطبيعي والمشروع في الدفاع الفردي أو الجماعي عن النفس من قبل أي دولة إلا في حالة التعرض لهجوم مسلح (عدوان مسلح) وفقاً للمادة ٥١ من الميثاق .

٤ - لا تستطيع المنظمات الاقليمية اللجوء الى اجراءات قسرية أو الى أي

استخدام للقوة المسلحة إلا في الحالات التي يقرر فيها مجلس الامن ، وفقاً لأحكام المادة ٥٣ من الميثاق ، أن يستخدم المنظمات الاقليمية لهذه الغاية .

٥ – وفقاً لما تقدم ، تكون الأعمال التالية ، بشكل خاص ، أعمال عدوان مسلح:

أولاً – اعلان الحرب من قبل دولة ضد دولة أخرى خرقاً للميثاق .

ثانياً – أي عمل من الأعمال التالية سواء جرى باعلان أو دون اعلان حرب :

(أ) الغزو أو الهجوم من قبل القوات المسلحة لدولة ما ضد أراضي دولة أخرى، وكذلك كل احتلال عسكري ، ولو كان مؤقتاً ، أو أي ضم بالقوة لأراضي أو جزء من أراضي دولة أخرى .

(ب) قصف أراضي أي دولة من قبل القوات المسلحة لدولة أخرى ،أو القيام بهجوم متعمد على سفن أو طائرات تلك الدولة ،أو استعمال الأسلحة ذات التدمير الشامل من قبل دولة ضد أراضي دولة أخرى .

(ج) محاصرة شواطىء أو موانىء دولة ما من قبل القوات المسلحة لدولة أخرى .

٦ – بما أنه يترتب على الدول وفقاً لميثاق الأمم المتحدة أن تسوي خلافاتها بالوسائل السلمية ،وأن تلفت انتباه مجلس الامن أو الجمعية العامة الى هذه الخلافات ، فان أية اعتبارات ، باستثناء الحالات المشار اليها في الفقرة (٣) أعلاه ، لا يمكن أن تتخذ ذريعة لاستعمال القوة من قبل دولة ضد دولة أخرى .

٧ – ليس في الفقرة (٣) أعلاه ما يمكن أن يفسر بأنه يخول الدولة التي تمارس حق الدفاع المشروع الفردي أو الجماعي عن النفس عملاً بالمادة ٥١ من الميثاق ، بأن تتخذ أية اجراءات لاتتناسب بشكل معقول مع الهجوم المسلح الموجه ضدها .

٨ – عندما تكون احدى الدول ضحية على أراضيها لأعمال تخريبية أو ارهابية ترتكبها عصابات غير نظامية أو من المتطوعين أو عصابات مسلحة تنظمها دولة أخرى، فانه يجوز لتلك الدولة اتخاذ الاجراءات المعقولة والملائمة لحماية وجودها ومؤسساتها ، دون أن تدعي بحق الدفاع المشروع الفردي أو الجماعي عن النفس ضد الدولة الأخرى عملاً بالمادة ٥١ من الميثاق .

٩ – ان العدوان المسلح كما هو معرف هنا ، والأعمال المعددة أعلاه ، تشكل جرائم ضد السلام الدولي وتنتج عنها مسؤوليات والتزامات دولية .

١٠ – ان أي عمل آخر غير الأعمال المعددة في الفقرة (٥) أعلاه يمكن اعتباره عملاً عدوانياً مسلحاً أو غير مسلح إذا أعلنه مجلس الأمن كذلك .

ثالثاً : العقبات في سبيل التوصل الى وضع صيغة للتعريف المنشود :

ليست هـذه هي المحاولة الأولى التي تبذل على نطاق عالمي في سبيل وضع صيغة لتعريف العدوان ، فقد أثير في زمن عصبة لأمم. إذ تقدم الاتحاد السوفييتي بتاريخ ٦ شباط ١٩٣٣ وفي احدى اللجان التابعة لمؤتمر نزع السلاح بمشروع تعريف للعدوان لم تتوصل اللجنة الى قرار بشأنه ، كما أن الولايات المتحدة الامريكية،في مؤتمر لندن المعقود بتاريخ ٨ آب، ١٩٤٥ لوضع نظام أساسي لمحكمة عسكرية دولية تتولى محاكمـة مجرمي الحرب ، قد تقدمت بتعريف مفصل لجرم العدوان إلا أنها تراجعت فيما بعد عن مبادرتها هذه بمعارضتها محاولة تعريف العدوان في المناقشات التي دارت حول الموضوع في اللجنة السادسة (القانونية) للجمعية العامة للامم المتحدة عام ١٩٥٢ وما بعده .

وليست هذه هي المحاولة الأولى التي تبذلها منظمة الأمم المتحدة وأجهزتها المختصة في سبيل تقنين وتدوين موضوع من مواضيـع القانون الدولي بغية تحقيق انمائه التدريجي وفقاً لأحكام الفقرة الأولى من المادة الثالثة عشرة لميثاق الأمم المتحدة ، فقد أنجز حتى الآن – تحت اشراف منظمة الأمم المتحـدة تقنين وتدوين (قانون البحار) في مؤتمر جنيف عام ١٩٥٨ ،و (العلاقات الدبلوماسية) في مؤتمر فيينا عام ١٩٦١ ،و (العلاقات القنصلية) في مؤتمر فيينا عـام ١٩٦٣ . وتعقد اليوم في فيينا الدورة الثانية لمؤتمر (قانون المعاهدات) لوضع صيغة معاهدة متعددة الأطراف تصبر في بوتقتها القواعد الناظمة لشؤون المعاهدات .

ولا يخفى ما لأعمال التقنين والتدوين لمواد القانون الدولي من أهمية خاصة ،وعلى الأخص بالنسبة للدول الناشئة .إذ أن قواعد ثابتة ومكتوبة لهذه المواد تشترك في وضعها الدول - كبيرها وصغيرها – متساوية في السيادة وترتبط بها الدول على أساس تعاقدي هو سبيل أفضل لتنظيم التعامل بين الدول في مختلف الميادين وهو خير من اتباع تعاليم قانون دولي جهد الغرب لوضع أصوله في ضوء مصالحـه التقليدية ، وكان ولا يزال في تفسيره دائم التأثر باجتهادات ونظريات الفقهاء في الغرب فضلاً عن قضاء محاكمه ، بحيث أضحى من العسير أن تجد جميع الشعوب في هذا القانون الدولي الضمانات الكافية لإقرار وصيانة حقوقها في عالم سريع التطور كالذي نحياه اليوم ، والذي لابد كي تكون القاعدة القانونية الناظمة لشؤونه ، سليمة وملائمـة ، من أن تتأثر بالاتجاهات الحديثة التي تعكس هذا التطور ، ومن أن يشارك في وضعها جميع أعضاء المجموعة الدولية بدون استثناء أو تمييـز .

ولقد برز اثناء متابعة الجهود لوضع صيغة تعريف للعدوان، كما برز أثناء بذل الجهود الأخرى في سبيل تقنين وتدوين المواضيع الأخرى المشار اليها أعلاه ، اتجاهان أساسيان ما زالا يتصارعان في هذا المضمار :

الاتجاه الأول : وتدين بــه معظم دول العالم الثالث وعلى رأسها الدول التقدمية ، وتؤيدها فيه الكتلة الاشتراكية، ويقول انه لدى وضع القاعدة القانونية المنشودة فانه لابد من أن تؤخذ بعين الاعتبار بعض التغييرات الرئيسية الجارية في العالم لاسيما منذ اقرار ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ ،وبحيث تعكس هذه الصيغ التغييرات الرئيسية التي تحققت لصالح جميع الشعوب وخاصة الشعوب المستضعفة التي هضمت واستغلت حقوقها خلال أحقاب طويلة .

أما الاتجاه الثاني : وتدين به معظم الدول الغربية والدول الموالية لهـا، فانه يعارض في انعكاس هذه التغييرات الرئيسية كاملة بداعي أن هذه التغييرات لم تبلغ بعد في مضمار العلاقات الدولية المرتبة المتقدمة المطلوبة التي تمكن من تكريسها في القاعدة القانونية المزمع وضعها .

لن اتعرض بالتفصيل الى المواقف المختلفة التي اتخذها أنصار الاتجاهين المذكورين في لجنة تعريف العدوان بصدد العناصر الاساسية التي أرادوا أن يتضمنها هذا التعريف، والتي وردت بعضها في مشاريع التعريف المنوه عنها اعلاه ، بل سأقتصر فيما يلي على أهم ما أسفرت عنه الجهود حتى الآن في هذا المضمار :

التعريف المختلط ـ أعرب معظم المندوبين الاعضاء في اللجنة عن تفضيلهم **للتعريف** المختلط ،وتبدأ صيغته بتعريف عام للعدوان يتبعه تعداد لأمثـلة واضحة من الاعمال العدوانية تذكر على سبيل المثال لا الحصر .

العدوان المسلح المباشر ـ كما أن عددا كبيرا من المندوبين قد رأى أنه من الأنسب كمرحلة أولى في اعمال اللجنة أن يقتصر الجهد على تعريف **العدوان المسلح المباشر** ما دام يبدو من العسير التوصل الى توحيد وجهات النظر المتضاربـة بشأن أشكال العدوان غير المباشر الاخرى .

الدفاع المشروع عن النفس ـ يمكن القول ان غالبية المندوبين قد أكدت على أن المادة (٥١) من الميثاق لا تقر استعمال القوة ، باللجوء الى حق الدفاع عن

النفس ، الا في حالة تعرض الدولة **لعدوان مسلح مباشر** ،ومن ثم فان أية أعمال أخرى **كالتهديدات الخطيرة** وخرق **الالتزامات الدولية والاعتبارات الأمنية** لا يجوز أن تكون مبررا لاستعمال القوة في ممارسة حق الدفاع عن النفس .

ممارسة الشعوب لحقها في تقرير المصير : كما أن أكثرية المندوبين قد أقرت بأن استخدام القوة للحيلولة دون استخدام الشعوب لحقها الطبيعي في تقرير المصير هو خرق لميثاق منظمة الامم المتحدة ، وقد نوه عدد من مندوبي الدول التقدمية في هذه المناسبة بشرعية نضال الشعوب في سبيل استرداد حقوقها المغتصبة .

ولا بد لي من الملاحظة هنا بأن وقوف اغلبية المندوبين في لجنة تعريف العدوان الى جانب عدم اقرار استعمال القوة ، باللجوء الى حق الدفاع عن النفس ، الا في حالة تعرض الدولة **لعدوان مسلح مباشر** عملا بأحكام المادة (٥١) من الميثاق . وتفسيرهم الواضح هذا لأحكام هذه المادة يظهر الحجة الواهية التي ما تزال تتذرع بها اسرائيل لتبرير عدوانها في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ على الاقطار العربية بادعائها أنها كانت في حالة الدفاع المشروع عن النفس ، كما أن هذا التفسير الواضح لأحكام المادة (٥١) من قبل أغلبية المندوبين قد أظهر الصبغة العدوانية لأعمال اسرائيل فيما ترتكبه من قصف لأراضي الدول العربية أثناء تنفيذها لعملياتها الحربية ضد نضال منظمات التحرير الفلسطينية .

هذا وما زالت الجهود مستمرة في لجنة تعريف العدوان للتوصل الى تعريف للعدوان يقره أعضاء اللجنة بالاجماع ، الا أنه من العسير بلوغ هذه الغاية اذا لم يتحقق التقارب بين انصار الاتجاهين الاساسيين اللذين أشرت اليها أعلاه ، وفي حال عدم توفر هذا التقارب فانه لا بد من اقرار صيغة التعريف المنشود بأكثرية الاصوات في اللجنة . ومن الأفضل أن تكون هذه الأكثرية ظاهرة كأكثرية الثلثين مثلا ، ما دمنا في صدد وضع قاعدة قانونية ناظمة لمسلك الدول وتصرفاتها ، ولن تتوفر هذه الأكثرية الا بفضل تضامن دول العالم الثالث وبمؤازرة دول المعسكر الاشتراكي لها في هذا الميدان الآخر من ميادين العلاقات الدولية .

أحكام متسرعة في شعر المهجر

أنس داود
— القاهرة

كثيرة هي الجهود التي بذلت لخدمة التراث المهجري العظيم، وتقييم أعمال شعرائه، وكشف جوانب التفرد والنبوغ فيها.. غير أن الأحكام المتسرعة، والكليات العجلى مازالت تلاحق هذا التراث، فتقصر عن مواكبة روائعه، وتنبو عن سبر أغواره، أو عن توضيح جميع ملامحه، وقد تصمه بالتهم، وتلقى في وجهه بالظنون..

ولعل أخطر هذه الأحكام المتسرعة هو ما قرره منذ ثلاثين عاماً على وجه التقريب أستاذنا الدكتور طه حسين في حديثه عن ايليا أبي ماضي وقد شاع ذلك

بين بعض الباحثين ، وتأكد في أذهان كثيرين ممن دأبوا على أخذ آرائهم في الأدب ووجهات نظرهم في النقد عن غيرهم .. دون تدبر له ، أو تحقق منه .

فقد زعم الدكتور طه حسين حينذاك أن لغة ايليا أبي ماضي : «تقارب الرداءة أحياناً حتى توشك أن توغل فيها ايغالا[1] ، ثم انتقل من ذلك الى الحكم بأن الشاعر « لايحسن علم الألفاظ والأوزان ، ولا يريد أن يحفل بالألفاظ والأوزان[2] » .

ثم مضى الدكتور في تعميم أحكامه ، ورمى المدرسة المهجرية كلها بأخطر التهم التي رميت بها ، وهي « الضعف في اللغة » . قال الدكتور :

« على أن هذا الضعف (يعني في اللغة) لم يكن شائعاً مألوفاً في مصر ، بل لم يكن شائعاً مألوفاً في الشرق العربي ، ولكنه أقبل علينا من مهاجر السوريين في أمريكا »[3] .

اذن .. تجاوز الضعف في اللغة شعراء المهجر الى شعراء مصر فيما يرى الدكتور وانتقل من الأولين الى الآخرين كما ينتقل الوباء ، وعمت به البلوى .

وبشيء من الأناة نرى أن الدكتور أصـــدر هذا الحكم الغاضب دون مبررات كافية للتدليل عليه ، وتقديمه خلاصة أمينة لبحث شاق بين يدي القارىء .

بل لقد قدم الدكتور قبل أن يصدر هذا الحكم الغاضب صفحات تقدير لملحمة الشاعر المهجري فوزي المعلوف « على بساط الريح » .. ولم يشك الدكتور ضعفاً في اللغة ، ولا وهناً في العروض .. ان الدكتور حين أبدى رأيه لم يترك

---

(١) د . طه حسين « حديث الأربعاء » ج ٣ ص ١٩٥ .

(٢) نفسه . ص ٢٠٠ .

(٣) السابق . ص ٢٠١ .

فرصة للنقاش معه ، فلم يقدم دليلاً واحداً على « ضعف اللغة في شعر المهجر » فليس ثمة دراسة مستوعبة لهذا الشعر في مهجريه الشمالي والجنوبي ، وتقييم لكل شعرائه ، ورصد مظاهر الضعف في اللغة عندهم وعند طائفة من أندادهم من شعراء مصر أو من شعراء سورية المقيمين أو من شعراء العراق .. حتى يكون لهذا أسبابه الواضحة .

واذا كان الدكتور قد قرأ فوزي المعلوف ، ولم ير به ضعفاً في اللغة ، ثم لم يشفع لديه لتخفيف الحكم عن الشعر المهجري ، فهل قرأ شقيقه شفيق المعلوف وهل قرأ الشاعر القروي والياس فرحات وصيدح وشكر الله الجر .؟ هذا اذا افترضنا أنه قرأ نعيمه ورشيد أيوب ونسيب عريضة، الذين لا نقر هذه التهمة عليهم ولا نجدها في شعرهم .. بل ان هذه الأخطاء اللغوية التي أخذها عن ايليا أبي ماضي لا تستطيع أن تزعزع قيمته الراسخة ولا أن تنشر الظنون حول شاعريته الفائقة، وموهبته العظيمة ، التي أمدت الشعر العربي بروائع خالدة ما زالت في أمس الحاجة الى البحث والدرس والتذوق الهادىء العميق .

لندع تهمة الدكتور اذن ، فليس ثمة دليل عليها ، وليس ثمة دحض لها غير القراءة المتأنية لأي شاعر من هؤلاء الشعراء الموهوبين .

ندعها الى اتهام غريب آخر ، قام به هذه المرة باحث مدقق حصيف ، هادىء الأعصاب ، بعيد عن الرغبة في الاثارة ، وعن الجري وراء الشهرة ، ينتج في صمت وفي دأب هو الدكتور شوقي ضيف ، فقد قال عن شعراء المهجر الجنوبي ، انهم « لا يسمون الى الدرجة الوسطى من شعرائنا [٤] » بل تجاوز ذلك القول الى ابعد منه خطورة حين قال :

---

(٤) د. شوقي ضيف « دراسات في الشعر العربي المعاصر » ص ١٩٦ .

« وان الشعر المهجري الخليق بالقراءة حقاً هو شعر امريكا الشمالية[١] » .

فهل قرأ الدكتور حقاً الشاعر القروي ثم لم يجده خليقاً بأن يقرأ ، وهل قرأ « عبقر » و « أحلام الراعي » ، وغير ذلك من روائع شعر المهجر الجنوبي .. انه – يقينا – لم يستوعب شعر الجنوب كله في قراءته .. والا فأين هؤلاء الشعراء عندنا الذين نستطيع أن نضعهم في درجة فوق الشاعر القروي وشفيق المعلوف ، وأين هي الأعمال الشعرية التي تتفوق كثيراً على « عبقر » و على « بساط الريح » ، و « أحلام الراعي » . وكيف نسقط هذا الانتاج الغزير القيم للقروي وفرحات والمعاليف وصيدح والجر .. وبأي مبرر نعتبره « غير خليق بالقراءة » ..

ولكن ثمة جانباً مضيئاً في هذا الاتهام ، فقد أنقذ الدكتور به شعر المهجر الشمالي واعتبره خليقاً بالقراءة .. وهذا اضاءة لنصف الصفحة التي حاول الدكتور طه حسين أن يسدل عليها ستاراً كثيف الظلمة .. فلنتفاءل اذن بهذا الاتهام ، ولنبسم له .. فسيأتي باحث آخر هو الدكتور محمد مندور لينقذ الشعر المهجري كله من أغلال تلك الاتهامات السريعة .. لكن حكاية الدكتور مندور بوضوح هي أنه عثر في كتاب « بلاغة القرن العشرين(٢) » – وهو مجموعة مختارة من الشعر – على قصائد لشعراء مهاجرين .. علقت بقلبه منذ الصبا ، وألف اعادة النظر فيها والترنم بأبياتها ، وحين عاد من بعثته الدراسية في باريس الى القاهرة ، وتصدر للكتابة في النقد ، تذكر كتابه القديم ، وقصائده الحبيبة .. وعاد اليها ليكتشف

---

(١) السابق ص ١٩٧ .
(٢) تأليف الأستاذ محي الدين رضا .

أن من خصائص هذه المجموعة من القصائد « الهمس » .. وان ذلك الهمس هو الذي عقد الألفة بين نفسه وبين هذه القصائد ، وأحس بأن أصحابها حين همسوا بها بثوا شكاتهم وأحلامهم لأعماق ضميره في نجوى مخلصة أخذت بمجامع نفسه واستملكت عليه كل فؤاده .. وانتقل من هذه القصائد الى شرح الظاهرة نفسها والتفرقة بينها وبين الخطابة ، والتفرقة بين الشعر الهامس والشعر الخطابي .. ولم ينكر الرجل الشعر الخطابي ، ولم ينكر أن هناك تنوعاً في موسيقى الشعر ، ولم يطلق الحكم جزافاً على الشعر المهجري بأنه شعر هامس .. لقد كان الدكتور مندور في مقالاته تلك موضوعياً وواضحاً .. ولكنه شاع بعد ذلك فيما بين الأدباء والمتأدبين أن الشعر المهجري شعر مهموس ، وان الشعر الجيد حقاً ، والذي يجب ان يحظى بالقبول ، هو الشعر المهموس .. وهما شائعتان بعيدتان عن مقالات الدكتور ، وبعيدتان عن كل صحة كذلك .. فشعر مدرسة المهجر — ككل شعر خصب — يثري نفسه بتنوع موسيقاه ، وتعدد ألوانه ، وتعدد وجوه شعرائه وملامحهم النفسية .. ففي شعر المهجر شعر مهموس ، ولكن هذه السمة لاتشمل كل هذا الشعر ، ولا تتعدى بعض نماذجه ، وقد نجدها متغلغلة في انتاج شاعر متأمل كميخائيل نعيمة كما نجدها في بعض قصائد القروي[1] على توفر الموسيقى الصاخبة ، والخطابية العنيفة في كثير من قصائده الأخرى ، وليس نوع الموسيقى هو الذي يحكم للشعر بالجودة أو عدم الجودة .. انما يحكم للشعر صدق التجربة ، ودقة الأداء ، وتناسب الموسيقى ، واتساع رؤية الشاعر ونفوذ بصيرته .

ولقد قرن الدكتور اكتشافه ظاهرة « الهمس » ، في هذه القصائد التي

---

(١) انظر — مثلاً — قصائد : أحبابنا . ص ١٠٦ ، عناق الوجود ص ٦٨٩ ، الأمي ص ٨٩٦ . ديوان القروي . مطبعة صفدي التجارية .

أعجب بها وقدمها للقراء ، بدعوة القراء العرب في أوائل الأربعينات الى قراءة الشعر المهجري ، والى امتداح هذا الشعر ، وتعدد روافده الثقافية ، وانسانية أهدافه .. ومن ثم كانت الشائعة بان الهمس طابع الشعر المهجري كلـــه .. وأصبح ذلك الحكم في حاجة الى توضيح كما أن الاتهامين السابقين في حاجة الى نقضها ، وتبرئة الشعر المهجري من تبعاتها وهما :

١ – شعر المهجر ضعيف في لغته ..

٢ – شعر المهجر الجنوبي غير خليق بالقراءة ..

ولقد صدرت هذه الاتهامات جميعها في مصر .. والسبب الحقيقي لذلك هو أن مراجع الشعر المهجري ليست بأيدي الدارسين المصريين .. فمن العسير على القارىء في مصر العثورعلى دواوين الشعراء المهجريين ، وبشق النفس يستطيع الدارس أن يصل الى بعضها دون البعض الآخر ، وعلى سبيل المثال ليس هناك في مصر من ديوان « سعاد » للشاعر زكي قنصل – تلك المجموعة الشعرية الرقيقة التي رثى بها ابنته التي قضت في عمر الزهور – سوى نسخة واحدة لدى الاستاذ محمد عبد الغني حسن ، وليس هناك من كتاب « ثورة قازان في معلقة الأرز » سوى نسخة واحدة لدى الأستاذ حسن كامل الصيرفي ، وليس هناك من ديوان « الأرواح الحائرة » لنسيب عريضة سوى ثلاث أو أربع نسخ ، وليس لدي يقين بغير نسخة الاستاذ وديع فلسطين .. ولولا مكتبة معهد الدراسات العربية التي تضم بعض الانتاج المهجري لما حفلت مكتبة به ، ومع أنها المكتبة الوحيدة المهتمة اهتماماً حقيقياً بأدب المهجر الا أن الكثير من الدواوين والكتب المهجرية غير موجود بها ، كدواوين الياس فرحات (الربيع ، الصيف ، الخريف ، رباعيات فرحات) وديوان جورج صيدح (حكاية مغترب) .وليس بها من دواوين

شكر الله الجر سوى « الروافد » وهو أقدم دواوينه ، ويؤسفني اني بسبيل البحث في شعر المهجر لم أستطع تكوين فكرة كاملة عن هذا الشاعر لأن دواوينه الأخرى ليست بمصر ، وكذلك الشأن في كثير من انتاج أدباء وشعراء المهجر .. فكتاب هام مثل « المنقار الأحمر » لشكر الله الجر لاتوجد منه غير نسخة وحيدة مهملة بدار الكتب المصرية ، ولا يدري عنه شيئاً المتصلون بالدراسات الأدبية ..

هذه هي مشكلة الدارس لشعر المهجر في مصر .. فالكتب والدواوين غير موجودة بأكملها .. فضلا عن افتقار الدراسة الى المجلات والصحف الأدبية بخاصة والعربية بعامة ، التي صدرت ومايزال بعضها يصدر في كل من الأمريكتين ..

اذن وسبيل الباحثين في مصر غير ممهدة لم يكن أمام بعضهم سوى تصيد بعض الدواوين أو الوقوع على بعض القصائد ، ثم اصدار أحكام عامة متعجلة ، شديدة القصور وبالغة الخطر في وقت معاً ..

ولكن الشعر المهجري مني بلون آخر من الأحكام المتسرعة والكلمات العجلى .. اشتركت في تسديده هذه المرة يد الأصدقاء الذين يحملون له أعمق التقدير ، ويضفرون بقلوبهم أكاليل الغار ..

من هـذا النوع الدراسات التي صدرت عن الشاعر القروي . فالشاعر القروي شاعر ضخم متعدد في جوانبه الشعرية .. شاعر للقومية العربية ، وشاعر للطبيعة ، وشاعر غزل ، وشاعر متأمل ثائر .. ولكن الدارسين قد امعنوا في تقليب شعره القومي والتحيز له أو التحيز ضده .. فأعداؤه يزعمون انه شاعر مناسبات ، وشاعر خطابي يلقي شعره في الجماهير فينتزع تصفيقهم ، ثم يذهب شعره مع الزمن هباء .. وقد دخل في روع الشاعر شيء كهذا فصرف كثيراً من جهده في التصدي لهؤلاء الأعداء ، ولقد صدق حينا دعاواهم بأنه أخلص

شعره للاحداث التي تمر بقومه دون أن تكون في حياته قصة حب خاصة يغنيها، أو ساعة نشوة بين أحضان الطبيعة يتحد بأسرارها ، ودون أن تكون له على الاطلاق رؤية كونية تجعل منه نبضاً انسانياً عاماً يشيع في الزمان والمكان ، ككل شاعر انساني كبير .. صدق الشاعر القروي دعاوى أعدائه أن شعره كله وحياته كلها وقف على تحفيز قومه وانذارهم ، وانه بعد افاقتهم ، وطرد المستعمر من ديارهم ، لن يصبح شعره سوى ذكرى من الذكريات .. فيقول مثلا في مقدمة ديوانه :

« ما كدت أنهض بقادمتي حتى صكت مسمعي أنات امتي ، ولفحت وجهي زفراتها ، فطويت جناحي عند سريرها ، مخضعاً خيالي لواقعها الأليم ، مقدما واجب تمريضها على التغريد بين الخمائل والتنقير بين الحقول » .

زعــم الأغرار أني شاعر ضيق الآفاق ، عدو الحدود
وسنبـلى وطنيـاتي التي رفلت منها البوادي في برود
والتي يحسد هداب الضحى خيطها المفتول من حبل وريدي

. . . . .

فغدا استقلال قومي شهرتي وأغاريدي ،وشعري وخلودي[1]

اذن .. لقد وصلت خطورة هذا الرأي الى حد أن الشاعر نفسه قد صدقه، ومضى يدافع عن نفسه وعن شعره على أساسه ، فليس عجيباً بعد ذلك أن نرى الدارسين قد وجهوا جل اهتمامهم الى شعره القومي ، متناسين أن جوانب شاعرنا الأخرى لاتقل أهمية وروعة من هذا الجانب الذي اشتهر به .. ولعلي أزعم يوما

---

(١) قصيدة « أو ماتي العرب » ديوان القروي ص ٣٧٧ .

أن شعر القروي في الطبيعة أعلى درجة من شعره القومي ، وأنه شاعر طبيعة من طراز خاص تكاد تكون له ملامحه النفسية والفنية المميزة ..

وعلى أية حال لنعبر هذا الاتهام الموجه من أعداء الشاعر ومن أصدقائه معاً الى حكم آخر تبرع به أصدقاؤه ، فقد أشار الأستاذ وديع فلسطين في مقالة له عن الشاعر في مجلة الآداب[1] الى أنه لم يعرف من الحب سوى الحب العذري[2] ، ورأى الاستاذ عبد اللطيف شرارة[3] أن الحب العذري خصيصة من خصائص الشاعر القروي ، وأنه لون من الوان الاحساس الذي يمزج الشاعر بأمته العربية ، ويجعله حقاً ممثلا لها ، فللأمة العربية ولع بالحب العذري ، وللشاعر القروي ولع بالحب العذري ..وهو خصيصة من خصائص الطباع في الأمة العربية وفي القروي معا،فطريقة القروي في الاحساس اذن عربية ..

وهي قضية غريبة بشقيها ، فلا الشعر الجاهلي ولا الشعر الحديث يؤكد أن الأمة العربية لها ولع بالحب العذري ، ولا شعر القروي يؤكد أن القروي لم يعرف غير الحب العذري ..

لقد رسم القروي ملامحه بوضوح في ديوان ضخم يقرب من ألف صفحة ..

غنى للقومية أقوى ما يكون الشعر القومي .

وغنى للطبيعة أروع ما يكون شعر الطبيعة .

---

(١) الآداب آذار (مارس) ١٩٥٩ ص ٧٨ .

(٢) ونص عبارته : « واذا استثنينا قصيدة أو اثنتين ، فان القروي في حبه عفيف ، يؤمن – كما كان مطران يؤمن من قبل – لتوحيد في الحب » ..

(٣) عبد اللطيف شرارة « الشاعر القروي » . دار صادر بيروت ١٩٦٠ ص ١٦

وغنى للحب بكل ألوانه ، وللحياة بكافة أفراحها وأحزانها .. لأنه شاعر عاش حياته بعمق ، وجرب الأحداث والناس ، وبلا الآلام والمسرات ، وحفز الجموع على الثورة ، ولعن الاستعمار والمستعمرين ، وذاب في أحضان الطبيعة الأم ، وانتشى من كأس الحب عذرياً وجسدياً ..

أما الذين سموه بالحب العفيف أو العذري فقد وقفوا عند حبه الأول في قريته ، ذلك الذي كان ساذجاً عفيفاً ، شديد القناعة بالنظرة ، وربما بغض البصر في حضور الحبيبة .. ولكنهم لم يتجولوا في شعاب مجموعته الشعرية «زوايا الشباب» ، المحفل بتصوير حبه حين جاوز تلك المرحلة الباكرة من حياته ، وحين هاجر الى امريكا الجنوبية ، وغادر لبنان .. ذلك الجبل الوادع ، بقراه الريفية البسيطة ، وأهلها الفطريين الساذجين ، وحبيبته الصغيرة البريئة ..

وفي هذه الحقبة من حياته عانى الحب كما يعانيه رجل ، وتلفت بكل رغباته الى مظاهر الجمال الأنثوي (١) وشرب من الكأس حتى الثمالة :

وقالت فدى عينيك ألف لمية	لتبك عيون العالمين فداكا
عيوني تبغي أم خدودي أم فمي	فقلت لها هذي وتلك وذاكا
وكبلتها بالساعدين فأسلمت	أسيرة وجد ما تطيق حراكا
وبت أعل الخمر والشهد والندى	أقول لها هاتي .. فتردف هاكا

---

(١)

جرأة الحلمتين خلف الصدار	علمتنا في الحب خلع العذار
خبيء هذه المفاتن عنا	انما الصدر مخبأ الأسرار
كيف لا تطمع الأكف بكنز	دافع نفسه الى النظار

(ص ٧١٨)

الى أن تولانا الذي يسلب الحجى ... وينصب للخلق المتين شباكا
فلما هصرت القد صاحت قتلتني ... لأشبه شيء بالعداء هواكا

ولست أدري أي ضير في أن يكون الشاعر القروي في حبه رجلا كبقية الرجال ! لقد ناضل في سبيل العروبة بصبر واخلاص ، حتى لقب بحق « قديس القومية العربية » ، وأحسب أنه من السذاجة أن تجرنا لفظة « قديس » الى أن نسجن الرجل في « دير » ، وألا نصغي . . الى تجربته الحية التي بثها في مجموعة شعرية كاملة هي « زوايا الشباب » تفيض بالنضارة ، وتنبض بالصدق ، فيها لوعة العاشق ، وهواجس ظنونه ، وعذاب غيرته ، وفرحة لقائه بمن يحب . .

هذه نماذج لأحكام أدبية أسرعت بها عواطف الغضب أو الرضى ، فبعدت عن الموضوعية . . وظلمت الحقيقة . .

نجيب محفوظ وثورة ١٩١٩ (١)

أحمد محمد عطية
– القاهرة

– ١ –

حقاً ان الرواية فن بورجوازي النشأة (٢). كما انها فن صاحب ظهور الطبقة التي غيرت في تركيب المجتمع وفي نوعية القراء أيضاً (٣).

---

(١) راجع دراساتنا في أدب نجيب محفوظ المنشورة بمجلات «الآداب» ديسمبر ١٩٦٥، و«المجلة» يوليو ١٩٦٦ «والآداب» مايو ١٩٦٧.

(٢) راجع «نحو رواية جديدة» – الان روب جرييه – ترجمة مصطفى ابراهيم مصطفى – نشر دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى ١٩٦٨، ص ٧.

(٣) تطور الرواية العربية الحديثة في مصر – الدكتور عبد المحسن طه بدر – نشر دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية ١٩٦٨، ص ١٨٨ وما بعدها.

ولاشك في صحة القول بأن نجيب محفوظ هو كاتب الطبقة المتوسطة . وقد اجاد كاتبنا الكتابة عن هـذه الطبقة ، فمعظم شخصيات رواياته منها ، من بورجوازيي المدن الصغار ومن ابنائهم الطلبة والمثقفين . ولعل ذلك ناشيء من كون نجيب محفوظ هو كاتب المدينة الذي لا يبارى في وصفها والتغلغل في أعماقها . وحتى إذا لجأ نجيب محفوظ الى تناول شخصيات من غير هذه الطبقة كالعمال والفلاحين ، فانها تبدو لنا مسطحة وموصوفة من الخارج وتفتقر الى دقته وولعه بالتفاصيل . ربما لان نجيب محفوظ نفسه ابن مخلص للطبقة المتوسطة ، التي لعبت دوراً تاريخياً هاماً في الحركة الوطنية المصرية . وفي دراسة لي عن « أزمة البطل الثوري في أدب نجيب محفوظ » ، لاحظت ان هذا البطل ، في روايات نجيب محفوظ ، بطل بلا بطولة ، فهو بطل غير قيادي ، ودائماً ينقصه الوعي ، وحتى إذا وجد ايديولوجيته فهو ينقصه التكتيك والاستراتيجية ، وهو دائماً بطل فاشل ، انتهى - في آخر رواياته « ميرامار » - إلى الخيانة والقتل ، كالمصير الذي أدرك بطليه سرحان البحيري ومنصور باهي .

وفي « بين القصرين » ، التقط نجيب محفوظ الطبقة الوسطى من بين فئات الشعب الكثيرة المشتركة في ثورة ١٩١٩ ، التاجر السيد أحمد عبد الجواد ، وابنه الطالب فهمي عبد الجواد . ولقد كان الطلبة هم راية الثورة ووقودها وثارها ، والقطاع العريض الممثل لفئات الشعب المهضومة ، وان رجعت جذورهم الطبقية الى الطبقة الوسطى أيضاً لأنها كانت الطبقة القادرة على الإنفاق على تعليم ابنائها والاستغناء عن خدماتهم ، أما البورجوازية الكبيرة فكانت تبعث بأبنائها الى الخارج لتلقي العلم . وكذلك كان التجار من الفئات المأزومة مادياً بسبب نهب

الاستعمار لثروات البلاد ، وسيطرة الأجانب على التجارة ، وكانت طبقة التجار لذلك تشارك في السخط العام الذي أطلق ثورة ١٩١٩ .

وبرغم أهمية ثورة ١٩١٩ كثورة شعبية عارمة تمثلت فيها ثورة الشعب المصري وافتقاره الى قيادة ثورية على مستوى ثورته ، فان الأعمال الفنية التي تأثرت بها قليلة ، وربما وجدت بعض كتابات الانطباعات أو القصص القصيرة ، أما الرواية الفنية المكتملة البناء الواعية سياسياً واجتماعياً بخلفية الثورة وأرضية الصراع الطبقي ، فهي لم توجد إلا على يد نجيب محفوظ في الثلاثية (بين القصرين) ، ثم في « ميرامار » ، حيث يكشف تيار الوعي والمونولوج الداخلي باطن الشخصيات وماضيها .

حقاً لقد كانت ثورة ١٩١٩ ثورة فاشلة . ولكن ألم تكن ثورة ١٩٠٥ في روسيا ثورة فاشلة ايضاً ، ومع ذلك فقد أثمرت رواية سياسية عظيمة هي «الأم» لمكسيم جوركي .

- ٢ -

كان المجتمع المصري يغلي ويفور من الداخل بثورات مكبوتة .

فالفلاحون يساقون للعمل في السلطة ويجمعون بالسياط الى نيران الحرب العالمية الاولى ، ويتعرضون لمصادرة حيواناتهم ومحاصيلهم في مقابل أثمان هزيلة تقل كثيراً عن أسعار السوق ، وبكميات تفوق طاقاتهم مما يضطرهم الى الاستدانة لتغطية القدر المطلوب منهم (١) .

وكبار ملاك الأراضي يعانون من الأسعار الهابطة للقطن التي يفرضها

---

(١) راجع بالتفاصيل «ثورة ١٩١٩» – عبد الرحمن الرافعي – كتاب الشعب ، الطبعة الثالثة ١٩٦٨ .

عليهم الانجليز برغم ارتفاع أسعاره عالمياً ، ثم حرمانهم من زراعة محصول القطن إلا في حدود ضيقة لتغطية الأرض بالحبوب والمواد الغذائية ، كتحريم زراعة القطن في مصر العليا وخفض نسبة زراعته الى الثلث في باقي اراضي مصر (١) .

والرأسمالية المصرية تعاني من سياسة بريطانيا في جعل مصر مستعمرة زراعية ، وتأمل في خلق صناعة مصرية كبيرة تتمتع بحماية جمركية مصرية .

والبورجوازية الصغيرة ، المكونة من صغار التجار والحرفيين تضيق بمزاحمة الأجانب ، فحتى تجارة المفرّق كانت مملوكة للأجانب ، فيما عدا تجارة الغلال وبعض الحوانيت المنتشرة في الأحياء الوطنية . وحقاً لقد حققت الحرب العالمية الأولى للبورجوازيين ـ الكبار والصغار على حد سواء ـ بعض الانتعاش ، ولكن ذلك كله كان مهدداً بانتهاء ظروف الحرب .

أما الطلبة فقد كانوا الفئة الثورية الناضجة التي تمثل اندفاع الشباب وعمله ، وتعكس تناقضات الطبقات العريضة التي يمثلونها والتي كانت على الأغلب البورجوازية المتوسطة والصغيرة . ذلك أن أبناء البورجوازية الكبيرة كانوا يتلقون تعليمهم في الخارج ويعيشون في تمائم بورجوازية خاصة بهم . أما العمال والفلاحون فقد كانوا أفقر من أن يتحملوا نفقات تعليم أبنائهم . وقد ظل الطلبة يلعبون دوراً حاسماً في قيادة الحركة الوطنية . حتى انه بالرغم من انضمام العمال للحركة الوطنية في ذلك الوقت إلا أنه كان من خلال قيادة الطلبة .

وكان الطلبة بالإضافة الى كل هذا يواجهون مستقبلا محفوفاً بالمخاطر . فالوظائف موقوفة على الأجانب وعلى الأخص الوظائف الكبرى . كما كان اسلوب

---

(١) راجع بالتفصيل عبد العظيم رمضان - « تطور الحركة الوطنية في مصر » - نشر دار الكاتب العربي بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٩٦٨ .

التعليم الانجليزي يعمد الى عدم خلق كفاءات قيادية مصرية في جهاز الإدارة، والاكتفاء بتخريج كتبة في أحسن الأحوال ، وبالرغم من هذا قدمت المدارس العليا حصيلة هامة من الكفاءات . وكان لكل هذا تأثيره في قيام الطلبة بدور متعاظم في الحركة الوطنية أدى في بعض الأوقات إلى إسقـاط الحكومات . وكانت ظروف تكميم الصحف بسبب الرقابة عليها والأحكام العرفية فرصة عظمى لتتحول المدارس الثانوية والعليا الى مراجل للثورة . ومن هؤلاء الطلبـة الذين يواجهون مستقبلاً مغلقاً في ظل الحكم الانجليزي ، ويشتعلون حماسة من أجل استقلال الوطن ، تكونت الجمعيات السرية التي قامت بعمليات اغتيـالات لكبار الخونة المتعاونين مع الانجليز أو محاولات لاغتيالهم . وليس أدل على أهمية دور الطلبة من قيامهم بدور قيادي في إشعال ثورة ١٩١٩ أو قبل ذلك بجميع الخطب الحماسية التي يلقيها قادة الوفد وطبعها وتوزيعها في منشورات . كما ان الطلبة كانوا هم الفئة الوحيدة التي لم تنه ثورتها حتى بعد الافراج عن سعد زغلول وصدور بيان اللنبي في ٣ مايو ١٩١٩ مما اضطر اللنبي الى اغلاق المدارس نهائياً.

أما العمال فكانوا ضحية لكل ما يجري من ازمة اقتصادية خانقة وارتفاع في الأسعار ، بسبب مواردهم المحدودة ولأنهم الطبقة الوحيدة التي لم تستفد شيئاً من ظروف الحرب العالمية الأولى . وقد شهد مطلع القرن العشرين بداية نشاط عمالي نقابي ومظاهرات واضرابات ضد الرأسمالية الأجنبية ، كإضراب عمـال السجائر في القاهرة في ١٨٩٩ و ١٩٠٣ واضراب عمال الترام في ١٩٠٨ .

وهكذا اندفعت الجماهير تؤرقها أحلامها بالخلاص من أوجاعهـا الاجتماعية ، ولكنها لافتقارها إلى قيادة سياسية ثورية واعية تخبطت ولم تدرك المعنى الاجتماعي لثورتها .

بينما كانت القيادة المفترضة لثورة ١٩١٩ من سعد زغلول ورفاقه من أعضاء الوفد يخشون ثورة الجماهير العنيفة ، ويجنحون إلى أسلوب قانوني هادىء يمكن تسميته بنوع من كفاح المكاتب ، أسلوب العرائض والمذكرات والمطالب إلى مؤتمر الصلح أو الى الإنجليز . وقد ركز الوفد في قانونه على الإجراءات السلمية المشروعة في الكفاح مثل «السعي بالطرق السلمية المشروعة ، حيثما وجد للسعي سبيلا في استقلال مصر استقلالا تاماً . » وكان ذلك لطبيعة تشكيل الوفد ، فمعظمه من البورجوازية الكبيرة وقلة منه من البورجوازية الصغيرة ، ولا وجود للعمال أو الفلاحين . كما ان سعد زغلول لم يكن ينظر إلى المجتمع المصري كبناء طبقي ، وانما كبناء طائفي وسياسي ، لذا اهتم جداً بوحدة المسلمين والأقباط وبإيجاد مصالحات تطمس الواقع الطبقي المتفجر . وحتى التوكيلات التي قام الوفد بجمع توقيعات جماهير الشعب عليها ، كانت صياغتها قائمة مهادنة متملقة للسلطة وللسلطان .

نقول كان الوفد قيادة مفترضة لثورة ١٩١٩ . لأن ثورة ١٩١٩ كانت ثورة عفوية بلا قيادة . فسعد زغلول نفسه كان من أنصار التفاهم مع الانجليز ، وكان يؤمن باستحالة الثورة في بلد محتل بجيش أجنبي قوي . وحتى عندما اعتقل سعد ورفاقه - وهو السبب المباشر لقيام الثورة - وجه عبد العزيز فهمي أحد أعضاء الوفد ، النصح إلى الطلبة بالتزام الهدوء . [1] وتنصل أعضاء الوفد من مسئوليتهم عن أحداث الثورة ، وخلال اندلاع الثورة هرع أعضاء الوفد لمقابلة الوزراء المستقيلين لقبول الحكومة والتغلب على الثورة المخيفة على حد تعبيرهم .

---

(١) عبد العظيم رمضان - تطور الحركة الوطنية . (ص ١٤٤)

وابان اشتعال الثورة في ٢٤ مارس ١٩١٩ أصدرت البورجوازية المصرية (الأعيان والوفد والوزراء والمشايخ) بيانا طالبت فيه الشعب بالكف عن الثورة والعودة إلى الأساليب المشروعة .

أما أحداث الثورة فتشير إلى عفويتها وإلى قيامها بدون تدبير . وانها بدأت بانفجار ارتجالي قام به طلبة مدرسة الحقوق في القاهرة ، وتلقفته باقي المدن ، الطلبة والمثقفون أيضاً ، ثم اندفعت باقي الطوائف اندفاعاً حماسياً غير منظم .

وفي المدن اختفى المعنى الاجتماعي للثورة ، الدافع الخفي والباعث الحقيقي على انفجار الثورة بشكل عارم شمل جميع طبقات الشعب . فبينما كان الشعب يئن من أوضاع اقتصادية تمسك بخناقه تركزت شعارات الثورة على طلب الاستقلال الوطني ، وهو مطلب سياسي يخلو من المضمون الاجتماعي . وكان سعد زغلول يرى الاقتصار على طلب الاستقلال دون غيره من المطالب الاجتماعية والسياسية التي تشوه الحركات السياسية !

وربما ظهر الدافع الاجتماعي في بعض القرى ، كذلك الهجوم الذي شنه الفلاحون في أسيوط على منزل محمد محمود باشا سليمان أحد أعضاء الوفد المعتقل مع سعد ، وحين نبهوا إلى طبيعة المنزل وصاحبه أجابوا : « وهـل وزع محمود باشا سليمان أرغفة عيش على الجائعين ؟ نحن طلاب قوت . »[١] تلك كانت الأسباب الدفينة لثورة ١٩١٩ والتي تجاهلتها الثورة لافتقارها إلى قيادة ثورية منظمة .

لقد كان الشعب المصري يغلي بتأثير الضغوط الاقتصادية الرهيبة ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣١ .

ولكن طبيعة القيادة البورجوازية للوفد المتوارثة عن حزب إقطاعي قديم هو حزب الأمة ــ الذي آمن بالاستقلال التدريجي فالتعليم والتدريب مع الانجليز أولاً ثم الاستقلال ــ جعلت أقصى أطماع البورجوازية المصرية هي الحلول محل الاستعمار على رأس النظام الإجتماعي الموجود كما هو قائم .

والمتتبع لأحداث ثورة ١٩١٩ يجد ان الطلبة بدأوا بمظاهرات عامة في ٨ مارس ١٩١٩ ،وهي مظاهرات سلمية كانت يمكن أن تمر كتعبير عن الرغبة العامة في الاستقلال الوطني والإفراج عن سعد زغلول وزملائه ، ولكن تصدي الإنجليز للمظاهرات بالسلاح زاد من حمية الثورة فاشترك العمال والمثقفون في المدن ، ثم سرت العدوى إلى الريف . وفي الريف كانت الثورة أعنف لأنها شملت الهجوم على مراكز البوليس والاستيلاء على الاسلحة وقطع خطوط السكك الحديدية والتليفونات ، وانتهت إلى استقلال بعض المدن كزفتي والمنياوأسيوط، حتى استحالت بعض المعارك إلى معارك حربية، كمعارك الصعيد التي استخدم فيها الإنجليز القنابل والطائرات والسفن الحربية .

وحتى اللجان الثورية التي شكلت في الأقاليم والمدن المستقلة ، كانت تخضع في تشكيلها لتلقائية فورية ، ليس لقيادة الوفد أي دخل فيها .

- ٣ -

ان الثلاثية ليست وثيقة اجتماعية فحسب ، وليست أيضاً مجرد وثيقة تاريخية ، ولكنها وثيقة اجتماعية تاريخية فذة . وتحتل ثورة ١٩١٩ الثلث الأخير من أول أجزاء الثلاثية (بين القصرين) . وهي تأتي كجزء لايتجزأ من السرد والحوار والبناء الروائي ، وليس كما فعل توفيق الحكيم في (عودة

الروح)، فجاء ذكر ثورة ١٩١٩ في السطور الأخيرة من الرواية كعمل دخيل على العمل الفني .

ان التناول الفني لثورة ١٩١٩ في « بين القصرين » يمكن أن نراه محصوراً في حدود الرؤيا التاريخية ، والسرد التسجيلي المباشر لأحداث الثورة ، وربما كان جانب الصنعة الفنية فيه هو أثر أحداث الثورة في أسرة مصرية متوسطة هي أسرة السيد احمد عبد الجواد . وهي آثار تتراوح بين اللامبالاة والسذاجة عند الأم ،والثورية الفدائية عند الابن فهمي الذي دفع حياته ثمناً لثوريته .

برؤيا التاجر البورجوازي السوقية ، يعلن السيد احمد عبد الجواد في مدخل الرواية عن قيام الحرب العالمية الأولى وأثرها على ارتفاع الأسعار واختفاء السلع الضرورية واستهتار الجنود الاستراليين بأمن الناس . كما يعلن أيضاً عن رفض ابن السلطان حسين ان يحل مكانه على العرش في ظل الانجليز[1] .

أما عن وضع السيد أحمد عبد الجواد الطبقي ،فهو من الطبقة الوسطى ، ودكانه متوسط الحجم ، وهذه الصفة للدكان تضع السيد عبد الجواد في مكانته كتاجر متوسط الحال في حي النحاسين ، أحد أحياء القاهرة الشعبية القديمة ، ومجال تجارته البن والأرز والنقل والصابون . وقد ظلت التجارة في تلك الفترة وقفاً على الأجانب ،باقي التجارة القطاعي (المفرق) فيما عدا تجار الأحياء الوطنية مثل السيد احمد عبد الجواد . والسيد أحمد عبد الجواد تاجر متسع الأفق،فله ثقافته العامة التي تتيح له تخطي أعماله التجارية البحتة - وهو من مؤيدي فكرة الخلافة

---

(١) بين القصرين ، نجيب محفوظ ، مكتبة مصر - الطبعة الخامسة ١٩٦٤،ص١٨.

الإسلامية وعودة الخديوي عباس . وهو كالأم يكتفي بالدعاء لله بخروج الإنجليز، برغم فظائع الإنجليز وجنودهم من الاستراليين التي ترويها الرواية بالتفصيل . وتنسحب نظرته الإسلامية إلى تبرير سهراته الحمراء، فهو يعتبر غزواته للغواني عملاً مشروعاً ، فالغواني كالجواري في عهد الإسلام الأول . فهو رجل لاه بحياته الصاخبة وملذاته «ولم يكن من عادته ان يشغل نفسه بالتفكير الذاتي أو التأمل . وقد استسلم لتيار حياته الزاخر مستغرقاً فيه بكليته .. »[1]

وهو يحتل من الأسرة مكان الأب الرهيب ، أو الإله . حتى ليتساءل ابنه كمال : «هل يخاف أبي الله» ، «لا أتصور أبي يخاف شيئاً» (ص ٧٧ و ٧٨) أو كما قالت ابنته خديجة في ثقة وإيمان «الأمر لله في السماء ، وأبي في الأرض» (ص ١٤٥) وهو الأب القادر على الخلق بكلمة واحدة كما فكرت عائشة ابنته الصغرى : «ولكن كيف تنسى ان كلمة واحدة لو جاد بها لسان أبيها ، كانت تكفي لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقاً جديداً ؟!» «فلم تضمر له إلا الإخلاص والوفاء كأنه إله لا يجوز أن تقابل قضاءه إلى بالتسليم والحب والوفاء . .» (ص ١٨٤) .

والسيد أحمد عبد الجواد يعيش بشخصيتين منفصلتين تماماً . شخصية جادة رهيبة في البيت ، وشخصية ماجنة في سهراته مع أترابه . لذا سهل عليه أن يأخذ جانب الجد عند ذيوع أنباء التوكيلات التي يوقعها الشعب ، كتفويض لسعد زغلول ورفاقه في المطالبة باسمه بالاستقلال . ولكن هذا الجد لا يتعدى حدوده فيغطي على حياتـــه الماجنة ، وحتى أيام الحزب الوطني لم يكن أكثر من عاطف على

---

(١) المرجع السابق (ص ٥٠) .

الحزب . لذا لم يشارك في أي نشاط سياسي أو حزبي واكتفى بالتعاطف السلبي، والانغماس في ملذاته ، أو في أحرج اللحظات السياسية مكتفياً بأسلوب التاجر ، بالتبرع بجزء من ماله ، وكان يرى في ذلك غاية الوطنية .

وفي تحليل نجيب محفوظ لأسس الثورة الوطنية في شخص السيد أحمد عبد الجواد جذور واعية وحقيقية ، فهي تبدأ حقاً بثورة عرابي ثم بالمقـــالات والخطب الحماسية لمصطفى كامل في جريدة اللواء – غير ان ذلك لم يعكر صفو مجالس الأنس والطرب لعبد الجواد ورفاقه – فحتى عندما مات مصطفى كامل عم الحزن الشلة ثم عادوا إلى لهوهم وسكرهم . لذا فان السيد أحمد عبد الجواد يلتمس الأحاديث السياسية « كمزة » في سهرة الشـراب والطرب مع الأصدقاء والغواني .

ولكن الخيال السلبي للتاجر عبد الجواد الذي ألف الاستكانة ، قصر عن فهم أبعاد المطالبة بالاستقلال وزوال الحماية الانكليزية .

وظلت شخصية عبد الجواد المزدوجة تصحبه ، فاهتمامـــه بالنساء وسهراته الحمراء يسير جنباً إلى جنب مع اهتمامه بما تفعله السلطة العسكرية والإنجليزية وما ينويه سعد زغلول .

وأكثر ما زلزل البورجوازي أحمد عبد الجواد هو اعتقال سعد ورفاقه من الباشوات ، فكيف يعتقل الباشوات الكبار . « يعتقلون الباشوات الكبار ! يا له من حدث مخيف . »

ولكن حزن عبد الجواد ورفاقه لم يطل حتى يقضي على عهود السهرات الحمراء العامرة بالجنس والخمر . وكان كل أثر حادث نفي سعد الذي هز البـــلاد هزاً ، هو ترددهم طويلاً قبل الاستجابة لدواعي اللهو والمرح والصخب . وعندما

اعتصم الناس ببيوتهم احتجاجاً على احتلال الإنجليز لمداخل الأحياء الوطنية ، هدد الإنجليز المعتصمين بالبيوت باعتبارهم من المضربين . فنفذ عبد الجواد أوامر الإنجليز ، وغادر رجال الأسرة المنزل إلى أعمالهم واجفين متحاشين أن يرفعوا أبصارهم إلى الإنجليز المرابطين أمام المنزل .

وحين اقتاد الإنجليز أحمد عبد الجواد ليعمل بالسخرة ، اعترف لنفسه بأنه لا شأن له بالسياسة واهتز جبروته اهتزازاً عنيفاً بوازي عنف الحربة (السونكي) الإنجليزية التي دفعته ليعمل بالسخرة في إصلاح الطرق التي حفرها الثوار لعرقلة التحركات الإنجليزية ، وقال « لا طعم للحياة في ظل الثورة » (ص ٥١٩) . وهكذا خاف البورجوازي من الثورة . وغلبه أمر نفسه على أمر الإنجليز فقال « إخراج شوية بول ، أهم عندي من إخراج الإنجليز من مصر كلها . . »

وعاود التاجر حياته المعتادة وتجارته وحدثنا عن خوفه من الثورة وعنفها على حياته وأسرته ، لأنه تاجر يرى النضال كالتجارة تبرع بالمال و كفى . غير أن الثورة لم تعد « فرجة حماسية . انها تهدد أمنه في الذهاب والإياب . » فهو يعطف على الشعارات ولكن بدون ثورة وبدون سخط وبدون دماء ، أو – كما قال قادة الثورة – بالوسائل المشروعة ، أي التي يقرها نظام الحكم الذي يوجهه الإنجليز .

هكذا قدم لنا نجيب محفوظ عميد الأسـرة وموقفه من أحداث ثورة ١٩١٩ ، وهو كما نرى موقف متردد ، خائف من ثورة الجماهير ، لأنه منعزل عنها وعن كل نشاط سياسي وثوري ، وحتى في حالة مشاركته في الانفعال بأحداث الثورة ، لم يتعد تصرفه حدود الانفعال السريع ، أو التبرع بالمال . بل ان مفهومه للاستقلال مفهوم خاطىء ، لأنه يتصوره استقلالاً عن الإنجليز فحسب والعودة إلى دولة الخلافة ، إلى عبودية الأتراك .

أما فهمي الابن المثقف في الأسرة ، فلنستطلع موقفه . سنجد لدى فهمي (١٨) سنة منذ البداية اهتمامات واضحة بالسياسة تمتد الى السياسة العالمية وأثرها على القضية الوطنية . أما لونه السياسي فهو أيضا من أبناء الحزب الوطني ، الى جانب قضية الخلافة الإسلامية وعودة الخديوي عباس الى حكم مصر . وهو تبعاً لذلك ـ وهذه كانت دعوة الحزب الوطني ـ لا يهتم باستقلال مصر ولا يريد إلا انتصار الألمان والأتراك ، تحت وهم ان الألمان سيحققون بانتصارهم الحرية المفقودة في مصر ، وهو وهم خاطىء بالطبع ينبىء عن جهل بحقائق السياسة العالمية آنذاك وفهمي متفائل بانتصار الألمان وهو يرفض التسليم باستعمارية الالمان وعدوانيتهم « وراح فهمي يؤكد ـ كعادته ـ ان الالمان قصدوا الانجليز بقنابلهم لا المصريين . » (ص ٦٧)

وظل فهمي أسيرا لفشله في الزواج من حبيبته مريم . وليس فهمي واحدا من الذين تشغلهم الحياة العامة والسياسة بحيث تصبح شغلهم الشاغل . ولكنا نلاحظ عليه هذا الاهتمام بعد فشله في حبه . ويبدأ اهتمامه بالقضية الوطنية باعلان ابتهاجه بالهدنة في الحرب العالمية الأولى . وقد أسس فهمي لنهاية الحرب هذه النهاية في طياتها من هزيمة للألمان وضياع الأمل في عودة الخلافة التركية والخديوي عباس وازدياد موقف الانجليز صلابة . ومضى يتحدث عن محمد فريد ومصطفى كامل قادة الحزب الوطني ، حزب الخلافة . وبدأ فهمي يمثل الطلاب في الرواية يهتم بنبأ تشكيل الوفد المصري وتوجهه لمقابلة المعتمد البريطاني للمطالبة برفع الحماية واعلان الاستقلال . لكنه امتعض لأن الثلاثة (سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي) أعضاء الوفد الذي قابل وينجت المندوب البريطاني ، غير أعضاء في الحزب الوطني ،حتى ليتشكك في سعد زغلول هل هو كما يقول الطلبة

من أذناب الانجليز أو انه عظيم كرجال الحزب الوطني ؟! (٣٦٩) والاستقلال في نظر فهمي لا يحمل الا معناه القديم لدى مصطفى كامل ، الاستقلال الذاتي في ظل الامبراطورية التركية ، وهو مؤمن بمصطفى كامل زعيم الحزب الوطني ويردد كل كلمة من كلماته . وهو مقتنع بأسلوب الكفاح الخطابي الخارجي الذي اتبعه مصطفى كامل ، وواصله سعد زغلول ورفاقه بطلب السفر الى باريس ولندن للمطالبة بالاستقلال . وكانت تلك مشكلة القضية الوطنية المصرية لزمن طويل ، مشكلة الكفاح في الخارج ، وليس الكفاح في الداخل كما يجب ، لأنهم خافوا شعبهم .

كان فهمي اذن من أنصار الحزب الوطني . وكان الحزب الوطني يطالب بخروج الانجليز والاستقلال . ولكن أي استقلال ؟ انه الاستقلال الذاتي في ظل الخلافة التركية الذي يعني عودة الاحتلال والاستبداد التركيين اللذين عانى منهما الفلاحون أكثر ما عانوا . لذا فان دعوة الحزب الوطني لم تجد لها مجالا إلا في المدن وبين صفوف الطلبة والمثقفين الذين وجدوا من عبارات مصطفى كامل الحماسية الصاخبة زادا عظيما لحماستهم . وكما يقول أحمد بهاء الدين في كتابه « أيام لها تاريخ » ان الحزب الوطني بالإضافة إلى نظرته السياسية الخاطئة في قضية الاحتلال وفي أسلوب النضال الخطابي في الخارج للعودة الى ذل الحكم التركي المنهار الذي أخذت تتحرر منه دول كثيرة مما جعل نشاط مصطفى كامل في أوروبا غير منطقي ، بالإضافة الى كل هذا كان الحزب الوطني يحتضن الكثير من الدعاوي الرجعية كوقوفه ضد قاسم أمين وقضية تحرير المرأة وضد زواج الشيخ علي يوسف وضد الشيخ محمد عبده لفتوى إسلامية خاصة بلبس القبعة وهل يفقد المسلم إسلامه الخ ... أما حزب الأمة ، الحزب الذي يعطف عليه سعد زغلول فهو حزب كبار

الملاك أو حزب الأعيان الذي يرى ان البورجوازيين الكبار يجب ان يتسلموا مسؤولية الحكم وان يعملوا على المطالبة بالدستور والتعليم والوصول الى الاستقلال على مراحل بالوسائل السلمية المشروعة حتى يتجنبوا عداء الانجليز وثورة الشعب في آن واحد . وكان لذلك يتجه الى تأييد السياسة الإنجليزية في الداخل والتفاهم مع الانجليز بهدف الاشتراك معهم في حكم البلاد .

فهمي يحلم بالسياسة حلما رومانسيا جميلا ، لأنها تطوف به في آمال مبهمة بحياة جديدة وأمل جديد وبيت جديد وأهل جدد . وهو يحن في غربته ـ بين أسرته التي تعيش بنأى عن أحداث الثورة ـ إلى زملائه الطلاب ليروي ظمأه الرومانسي إلى الحماسة والحرية والمجد . ولكنه لا يعرف على وجه اليقين كيف يبلور أفكاره وكيف تتحقق مهمة سعد زغلول في طلب الاستقلال . وبذلك صارت القضية الوطنية كل حياته ، وعكف على الاجتماع بزملائه بقهوة احمد عبده وهي واحدة من مقاهي حي الأزهر التي شهدت اجتماعات لجان الطلبة ومناقشاتهم « للحديث والتشاور والتنبؤ وانتظار الحوادث » ، والانتظار هنا يعني السلبية . فهمي بطل سلبي يعيش عالة على حركة المد الوطنية التي صاحبت نهاية الحرب العالمية الاولى والأمل في تحقيق وعود الانجليز خلال الحرب ، وليس بطلا ثوريا واعيا يتصدى للقيادة . وقد ظلت سلبية فهمي تتابعه كظله حتى عكست على تصرفاته نوعا من الجبن لازمه ، حتى إذا أراد التحرر من سلبيته وجبنه ، وتصدى لقيادة احدى المظاهرات ، لقي مصرعه جزاء لبطولته المستردة .

وترينا الرواية مدى انغماس فهمي في الحركة الوطنية ، فحتى دروس الاملاء لأخيه الصغير كمال صارت مجالا لاستعراض سخطه على الحماية البريطانية ، لأنها كانت من ضرورات الحرب وتنتهي بنهايتها ، مما دعا أخاه ياسين لأن يقلق

قائلاً : « أرى هذه المعاني قد ملكت عليك نفسك .. فلم يفتح الله عليك بإملاء لهذا الغلام المسكين الا خطبة سياسية وطنية يفتح لها المغلق من أبواب السجون » (ص ٣٩٥) . ومضى يؤيد الوفد الذي منع من السفر للخارج لعرض مطالب مصر ، وراح يوزع خطب سعد ومنشورات الوفد. ويثبت نجيب محفوظ نصوص بعض هذه المنشورات كاملة، كما فعل جوركي عندما أثبت في روايته «الأم» نص منشورات ثورة ١٩٠٥ . وظل فهمي يحفظ عبارات سعد زغلول ويرددها عن ظهر قلب . وبلغ إيمانه بسعد زغلول حتى شبهه بالملائكة ، في مواجهة له مع الأم الطيبة الساذجة التي لا تكره أحداً ولا الانجليز .

ويروي نجيب محفوظ وقع نبأ اعتقال سعد زغلول وأصحابه، وكيف وقع على الناس كالصاعقة وسرى كالنار في الهشيم . كما يروي أيضاً في سرد تاريخي مباشر كيف أثار نفي سعد كوامن ذكر نفي عرابي ونهايته، فخشي الناس ان ينتهي سعد وتنتهي بنهايته الآمال المعقودة عليه في الاستقلال وزوال الاحتلال الأجنبي . وعد فهمي سعد زغلول بطلاً ، ورجل البعث الجديد . وعلى خلاف الأب الذي ألهاه سكره ومجونه ، زاد غليان فهمي وانطلق في حديث ثوري طويل والدموع في عينيه يخطب في الأسرة . وبـــدأ ينادي بالثورة حتى يعود سعد .

وأفضل ما فعله نجيب محفوظ هو ربطه بين حادثي نفي سعد زغلول ونفي أحمد عرابي ،لأن النفي لم يكن موجها إلى سعد زغلول كشخص مجرد ولكن كبطل وطني يخشى أن يدركه نفس مصير البطل الوطني السابق احمد عرابي الذي شهد المنفى نهايته . ومن هنا كان سر رفض الشعب العنيف لحادث نفي سعد، لأنه يعني رفضاً لأن تنتهي الثورة مرة أخرى بنفيه كما انتهت الثورة العرابية بنفي

احمد عرابي . كانت الجماهير الغاضبة تعبر عن خوفها على بطلها وعلى مصير ثورتها .

وبينما اشتعلت الثورة وشملت كل الناس ، صور لنا نجيب محفوظ الأسرة وكأنها في واد آخر تعيش حياتها اليومية كما عاشتها من قبل ، بلا أدنى تأثر بما يجري حولها . وحتى الابن الأكبر ياسين الذي جارى شعور أخيه الثوري فهمي ، اكتفى بهذه المجاملة وقال : « حسبي اليوم ما بذلت من جهد في سبيل الحركة الوطنيـــة فان لبدني علي حقا » (ص ٤٠٨) ثم عاد سيرته الاولى في صحبة الخمر والنساء .

أما فهمي فقد عاش الثورة وخاضها بكل حياته وثوريته العارمة . عاش حياة حافلة عريضة طيلة أيام الثورة ، وليست حياة رتيبة ذليلة كالتي عاشتها أمه تعجن منذ القديم . وجاءت الثورة تعبيرا عما يفور في داخله بعنف ، وقد واكب الثورة من أولى لحظاتها ، وكيف لا ، وهو طالب في مدرسة الحقوق التي أطلقت أول شعاعات ثورة ١٩١٩ ؟

ويصف نجيب محفوظ بالتفصيل أحداث اليوم الأول للثورة وكيف انضم اليها فهمي وهتف معها بشعارات الثورة الوطنية « يحيا الاستقلال » ، « لتسقط الحماية » ، « يحيا سعد » . وصاح فهمي مع زملائه في وجه المستشار القضائي البريطاني لوزارة الحقانية : « ان آباءنا قد سجنوا ، ولن ندرس القانون في بلد يداس فيه القانون .. » (ص ٤١١) . ولكن فهمي كان يزاول الثورة واحدا من الجماهير المنقادة وليس قائدا ، كان يود ان يقود المظاهرات أو يطلق الهتافات ، الا انه اكتفى بالترديد وبالسير في صفوف الجماهير .

وتمضي الرواية في سرد وقائع الثورة بالتفصيل فتصور مصر بلدا جديدا تخلقه الثورة ويدفعه الغضب الى مواجهة المستحيل .

وقد وزعت الثورة تأثيراتها على الجميع سلباً أو ايجاباً . ورأي فهمي في أبطال الثورة ، رأي متعلق بفكرة الخلافة الاسلامية والحرب الدينية : « أبطال الثورة فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم ؟ ! » (ص ٤١٦)

أما رأي أفراد الاسرة في الثورة : كمال يبهره مايرى ويحفر في ذاكرته، وفهمي ثائر على الانجليز ، وياسين يناقش مايجري بهدوء ثم يمضي إلى سهراته الحمراء . أما الأم فتدعو لعودة السلام بين المصريين والانجليز . بينما تهاجم زينب - زوجة ياسين - سعد زغلول وتحمله مسؤولية ماحدث . أي فرقة هذه في صفوف الأسرة المصرية كما صورها نجيب محفوظ في « بين القصرين » !

وواجه الانجليز الثورة بالارهاب وباحتلال الأحياء الوطنية حتى عسكروا الى جوار منزل الأسرة .

وعاش فهمي أيام الثورة يغمره الاحساس بالمطاردة ، ووجد في أمر والده بالامتناع عن الخروج من البيت عذراً أمام ضميره يتجنب به مواجهة الانجليز وحيداً . وهي لمسة واقعية شجاعة من نجيب محفوظ . ومع ان فهمي لم يقبل بوجود الانجليز ببابهم ، الا انه تحاشاهم أمام بيته بينما هو عائد من مظاهرة اشتبكت معهم في شبه معركة بعد أن وزع منشورات تدعو الى قتالهم .

وأسفر احتلال الانجليز لحيهم عن خيانة حبيبته مريم له مع جندي انجليزي، فأسى فهمي لذلك أسى عظيما لدلالته على ماضيها المشين . وصمم على المضي في النضال لأنه لا حياة له الا به حتى ثار على أوامر أبيه ولم يستطع أن يعود الى طاعته العمياء كسابق عهده . أما أبوه فقد تغلبت أبوته على ما عداها عندما اكتشف أمر انضمام فهمي للجان الطلبة الثورية ، وأمره بأن يكف عن اعماله الثورية واعتبر ذلك ثورة عليه هو لا على الانجليز .

ونجحت الثورة في تحقيق هدف واحـد هو الافراج عن سعد زغلول ورفاقه . ففرح السيد احمد عبد الجواد بالنبأ وعادت المظاهرات الفرحة هذه المرة دون مقاومة من الانجليز ، مما شجع عبد الجواد على الابتهاج دون خوف .

وعدّ فهمي ذلك تسليماً من الانجليز بالاستقلال . وعادت المظاهرات مليئة بالثقة . وبدأ يشرف على تجمعات الطلبة – كعضو في لجنة الطلبة العليـا – للاشتراك في الإعراب عن الابتهاج بالإفراج عن سعد زغلول . وكان دوره من قبل جانبياً ، وكان لذلك يعاني من تعاسة خفية لأنه أحس بانعدام جرأته واقدامه. فتقدم الصفوف وقاد المظاهرة ، وحين فعل وتسلم زمام البطولة والقيادة لأول مرة غدر به الانجليز وقتلوه . وصدم نبأ موته والده احمد عبد الجواد الذي ظن ان عهد القتل قد انتهى . (ص ٥٧٥)

وبموت فهمي تنتهي رواية « بين القصرين » وهي رواية تسجيلية أرّخت لجماهير ثورة ١٩١٩ ، من خلال حياة أسرة مصرية متوسطة .

– ٤ –

رأينـا ان موقف نجيب محفوظ من ثورة ١٩١٩ في الثلاثيـة كان موقف المؤرخ أكثر منه موقف الفنان ، وانه اكتفى بسرد وقائع الثورة وتحليل موقف المثقف والبورجوازي الصغير منها ، أكثر منه بالتعليق عليها أو تحـديد موقف سياسي منها ، وهو ليس مطالباً بذلك لأنـه روائي وليس بكاتب سياسي ، مع ان الشق الخاص بثورة ١٩١٩ يعد جانباً سياسياً .

أمـا في « ميرامار » فقد دلنا المونولوج الداخلي للشخصيات على موقف الأنماط السياسية من ثورة ١٩١٩ . وهي في جملتها وجهات نظر حقيقية ولكنهـا

جديدة بالقياس الى الآراء السابقة في « بين القصرين » . حيث كان نجيب محفوظ يسجل بدقة المؤرخ كل شيء حتى ليسرد يوميات الثورة ويثبت بياناتها وخطبها ومنشوراتها . أما من « ميرامار » فقد ظهر موقف الفنان الواعي الذي يحلل وقائع ثورة مضت من جملة وجهات نظر سياسية لأنماط سياسية معروفة وثابتة .

في الثلاثية كانت طبيعة البناء الروائي الضخم الذي يتناول ثلاثة أجيال من أسرة مصرية متوسطة وتأثير الأحداث العامة والخاصة على حياتها ، كان من طبيعة هذا البناء الروائي التسجيل المحايد . أما في « ميرامار » فيسفر التحليل للشخصيات في وعيها ولا وعيها ، في حاضرها وذكرياتها ، عن وجهة نظر من الواقع السياسي لمصر .

وليس في هذا تجريد للسياسة ومحاولة فرض وجهة نظر خارجية على العمل الفني ، ولكنها وجهة نظر في عمل فني يهتم بأن يكون له موقف سياسي . وأهمية نجيب محفوظ عندي كروائي تتركز في موقفه السياسي الذي دأب على اخفائه او التصريح به من خلال شخصياته الروائية وأحداثه الروائية .

فلنر أين موقع ثورة ١٩١٩ في « ميرامار » ، التي تدور أحداثها في بنسيون بالاسكندرية ، ومن خلال الرؤيا الخاصة بأربع شخصيات رئيسية ؛ عامر وجدي صحفي وفدي قديم ، وحسني علام إقطاعي لم تمسه الثورة بضرر مادي وان أصابته في وجوده الأولي ، ومنصور باهي الشيوعي المارق ، وسرحان البحيري أحد المستفيدين من ثورة ١٩٥٢ ، بالاضافة الى شخصيات ثانوية مثل ماريانا صاحبة البنسيون ، وطلبة مرزوق إقطاعي قديم حددت ملكيته الزراعية ووضعت أملاكه تحت الحراسة ، وزهرة الفلاحة الطموح التي تمثل مصر في الرمز .[1]

---

(١) واجع مقالنا « نجيب محفوظ وطريق الثورة » مجلة الآداب مايو ١٩٦٧ .

ويدلنا تيار وعي عامر وجدي على انه رجل من كتاب السياسة القدامى في عهد ثورة ١٩١٩ وما بعدها . و « كان عامر وجدي شخصاً فريداً ، له في الرجاء جانب يردده الاصدقاء ، وفي الخوف جانب يتجنبه الاعداء . »[٢] رجل خطير الشأن في دنيا السياسة القديمة . وعامر وجدي رجل يعيش على الذكريات سواء بالتذكر أو بالقراءة أو يسلم نفسه للنوم . « في الحجرة أتذكر أو اقرأ أو استسلم للنعاس .. » (ص ١٣) .

وتيار ذكرياته هو الذي يدلنا على موقفه السياسي من ثورة ١٩١٩ . وهو الذي يأسى لانتهاء حياته السياسية كتاريخ بلا معنى .

أمـــا ماريانا صاحبة البنسيون فهي لا تزال ثائرة ضد ثورة ١٩١٩ . إذ « قتلت الثورة الاولى (١٩١٩) زوجي الاول ، أما الثورة الثانية فجردتني من مالي وأهلي ، لماذا ؟ (١٩٥٢) . » (ص ١٨)

وهذا هو الفرق بين ثورة ١٩١٩ الصاخبة الفاشلة ، وثورة ١٩٥٢ التي مصرت الثروة في مصر ، وقطعت على كبار البورجوازيين مجال المتعة في ملاهي الاجانب . لقـــد قتلت ثورة ١٩١٩ زوج ماريانا الاول ، الضابط الانجليزي ، قتله الطالب أيضاً . أما ثورة ١٩٥٢ فدفعت زوجها الثاني الى الافلاس فانتحر . فلم يعد هناك رواد للقصور والملاهي الفاخرة ، ولم يعد هناك شركات يتلكها الاجانب . ويتمنى عامر وجدي أن يفعل ما فعله صديقه القديم أحمد شفيق عندما كتب مذكراته السياسية فكانت أهم ما كتب عن أحـداث ثورة ١٩١٩ . وذكريات عامر وجدي حافلة ولكنه لم يكتبها بل سينثرها لنا من نتف جميلة

---

(٢) ميرامارا – نجيب محفوظ – نشر مكتبة مصر – الطبعة الاولى ١٩٦٧ ، (ص ١٣) .

خلال سطور الرواية . « ففي ذمة الله ذكريات الأزهر ، وصحبة الشيخ علي محمود وزكريا احمد وسيد درويش ، حزب الامة ما أعجبني فيه وما نفرني منه ، الحزب الوطني بحماسته وحماقاته ، الوفـــد بثورته العالمية الخالدة (١٩١٩) ، الخلافات الحزبية التي قوقعتني في حياد بارد لا معنى له ، الإخوان الذين لم أحبهم، الشيوعيون الذين لم أفهمهم، الثورة ومغزاها وامتصاصها للتيارات السابقة غرامياتي وشارع محمد علي ، موقفي العنيد من الزواج . لو قيض لذكرياتي ان تكتب لكانت عجباً حقاً » . (ص ٢٣)

ويصف عامر وجدي جيل ثورة ١٩١٩ بأنه جيل الضحايا . (ص ٢٥) ويأتي إلى عامر وجدي الوفدي القديم ـ الذي خرج من الوفد بعد حادث ٤ فبراير ـ غريمه « طلبة مرزوق » وكيل سابق لوزارة الأوقاف ومن كبـــار الأعيان ومن المنتمين إلى أحزاب السراي وبطبيعة الحال من أعداء الوفد .

وطلبة مرزوق الذي يخضع للقوانين الاشتراكيـــة في ثورة ١٩٥٢ ، وللحراسة لقيامه بالتهريب ، يحمّل سعد زغلول مسؤولية ماحدث له اليوم ، لأنه في رأيه الذي بث بذور الثورة الجديدة ، ثورة ١٩٥٢ . قال طلبة مرزوق لعامر وجدي : « ـ يوجد سبب بعيد في طرف الحبل المشدود حول أعناقنا ، شخص لايكاد يذكره أحد .

« ـ من هو ؟

« ـ سعد زغلول !

« لم أتمالك من الضحك (وهذا رأي عامر وجدي في مزاعم طلبة مرزوق) فراح يقول بجدة :

« ـ أجل ، منذ دأب على اثارة الإحن بين الناس ، والتطـــاول على

الملك ، وتملق الجماهير، رمى في الأرض ببذرة خبيثة مازالت تنمو وتتضخم كسرطان لاعلاج له حتى قضى علينا .. » (ص ٣١)

كيف تطور فكر رجال ثورة ١٩٥٩ .

هذا مآل تفكير أحزاب الأقلية ، أحزاب السراي والخيانة .

عامر وجدي المستقل ينظر نظرة محايدة ولكن مؤيدة لثورة الجماهير . أما طلبة مرزوق فقد صار معتوهاً سياسياً بعد تجريده من أملاكه ومن هيبته الطبقية والسياسية معاً حتى بات يتمنى قيام الطوفان ويأسف لأن أمريكا لم تستول على العالم بقوة القنبلة الذرية ! (ص ٣٣) فهو « لايطيق أن يسمع عن نظرية تبرر مأساته التاريخية . ويؤمن بأن الاعتداء على ماله كان اعتداء على كون الله وسننه وحكمته » (ص ٣١)

وعندما تنحي الفلاحة زهرة على طلبة مرزوق عظمته الكاذبة « يظن نفسه باشا وقد مضى عهد الباشوات » (ص ٤٤) تعود الذكرى بعامر وجدي إلى سعد زغلول عندما كان وزيراً للحقانية وليس باشا فتجاهله القضاة بما أحنقه واتهمهم بأنهم شراكسة أما هو ففلاح ، « اسمع طالما عيروني بالغوغاء ففاخرتهم بأنني زعيم الرعاع ذوي الجلاليب الزرق .. » (ص ٤٥)

ومازال طلبة مرزوق يحتقر الفلاحين ، يحتقر زهرة لأنها فلاحة ، لم يتغير فيها شيء :

وسرعان مايمتلىء البنسيون بالأنماط السياسية من الشبان : سرحان البحيري ، وكيل حسابات شركة قطاع عام وعضو مجلس الادارة المنتخب ، المستفيد الأول من القوانين الاشتراكية . حسني علام ، بورجوازي من كبار

ملاك الأراضي لم تمسه الثورة في ماله ولكن مسته أدبياً . وأخيراً منصور باهي المذيع باذاعة الاسكندرية ، الشيوعي المارق .

« وإذا بالسياسة تفرقع في السمر . » (ص ٥١)

وبدأ منصور باهي باتهام عامر وجدي بتجاهل « المشكلة الاجتماعية الجوهرية . » (ص ٥٤) .

أما عامر وجدي فما زال يحلم بأحداث ثورة ١٩١٩ عندما اقتحم الانجليز ساحة الأزهر على اثر المظاهرة الدامية . (ص ٥٩)

وظل عامر وجدي يدلي إلينا بذكرياته . فالذين خرجوا على الوفد كانوا يرمقون بعين أخرى الثراء ، فإما أموال بنك التسليف وإما الخراب .

عامر وجدي المصري المستقل يعطف على الحب وعلى السلام وعلى الفكر الاشتراكي ويبحث عن الايمان .

أما طلبة مرزوق فيحتقر كل ذلك ، الناس والحب والاشتراكية وكل شيء ، فنظرته دنسة تدنس كل ماحوله .

عامر وجدي مفتون بسعد زغلول ، يضرب به المثل تلو المثل . « لقد كان سعد زغلول يستمع إلى نصائح الشيوخ ولكنه اتبع غالباً آراء الشباب . » (ص ٧٢) .

أما حسني علام فيرى أيضاً أن الثورة كارثة مثل الكوارث الطبيعية . ولكنه حاقد على ابناء طبقته .

وجاء دور منصور باهي ليتحدث عن سعد زغلول . انه يرى فيه قاتل الثورة الحقيقية ، الثورة الحمراء ، فمعروف ان سعد زغلول — خلال حكمه —

أغلق الحزب الشيوعي المصري الأول وحرم نشاطه وطارد أعضاءه ، وهاجم إضرابات العمال وضرب على أيديهم بعنف وتبرأ من كل فكر اجتماعي .

« – وسعد زغلول ؟ .. لقد عبده الجيل السابق عبادة .. »

« – ماقيمة المعبودات القديمة ! ، لقد طعن الرجل الثورة الحقيقية وهي في مهدها .. » (ص ١٥٠)

أما عامر وجدي فلايثنيه شيء عن الإشادة بسعد زغلول : « أجل ، انك لم تشهد سعد في شيخوخته وهو يتحدى النفي والموت . » (ص ١٦٢)

وقال عامر وجدي لسرحان البحيري مبرراً كثرة المتعلمين نظريا ، وقلة الخبرات العلمية العملية :

« – يابني ، كان هدفنا إيقاظ الشعب ، والشعوب تستيقظ بالكلمات ، لا بالمهندسين ولا بالاقتصاديين !

وسرعان ، ماتراجعت قائلا في اعتذار :

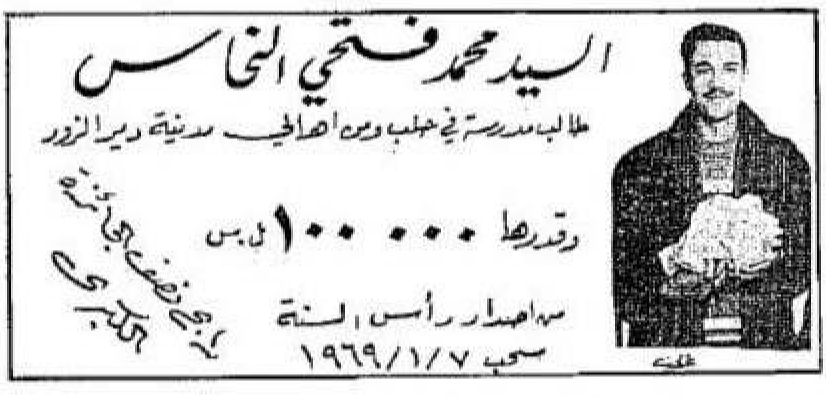
« – ولولم يقم جيلكم بواجبه لما تحقق لجيلنا وجود ! »

هذا رأي سرحان البحيري ولانعرف هل هو رأي مجامل أم حقيقي ، لكثرة ماغلب النفاق والكذب والخيانة على حياته .

هاهو جيل ثورة ١٩١٩ : الاقطاعي القديم طلبة مرزوق يبحث عن الثراء في الكويت ، ويأمل في أن تحكم أمريكا مصر والعالم بأسره . والمثقف عامر وجدي رجل الوفد القديم ، يبحث عن الإيمان .

وهكذا تسفر روايتي نجيب محفوظ « بين القصرين » و « ميرامار » عن نوعين من الرؤيا في تصوير ثورة ١٩١٩ ، فالرؤيا في الرواية الأولى تسجيلية، بينما هي في الرواية الثانية تحليلية .





يجري سحب الاصدار الشعبي السادس عشر بتاريخ ٣ حزيران ١٩٦٩